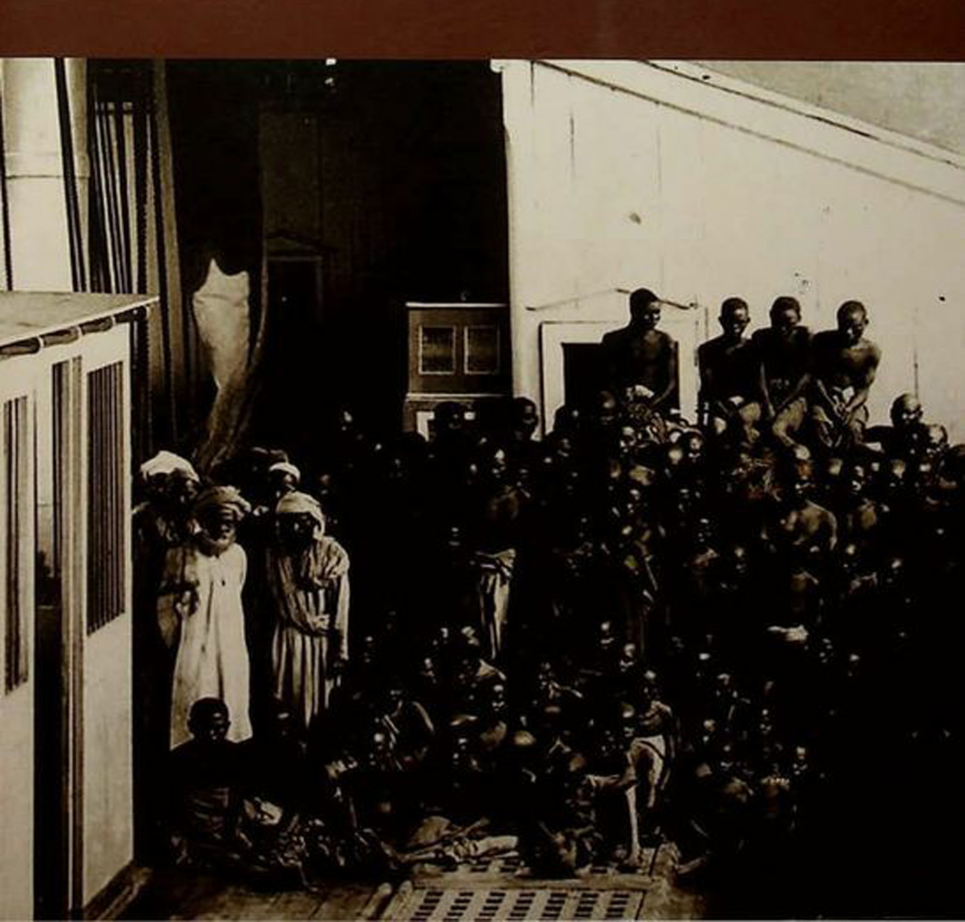
د. صالح أحمد العلي

علي بن محمد
صاحب الزنج
ودولته المهزوزة



علي بن محمد
صاحب الزنـج
ودولته المهزوزة

مكتبة الخير

علي بن محمد
صاحب الزنج
ودولته المهزوزة

د. صالح أحمد العلي

دار المدار الإسلامي

الطبعة الأولى

كانون الثاني/يناير/اي النار 2006 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 6705/ 2005
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-315-5
دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،
خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb،
ص.ب. 14/6703 ـ بيروت ـ لبنان
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498،
هاتف: 00218 . 21 . 3407010 - 00218 . 21 . 3407012 - 00218 . 21 . 3407013 - 00218 . 21 . 3407011 فاكس: 00218 . 21 . 3407011
طرابلس ـ الجماهيرية العظمى ـ oeabooks@yahoo.com

تقديم

حركة علي بن محمد الذي يطلق عليه كثير من المؤرخين «صاحب الزنج» واحدة من الانتفاضات التي تحدت سلطة الخلافة (العباسية) وكانت محدودة في زمانها ومكانها، فلم تدم أكثر من ثماني عشرة سنة، انحصر نشاطها في سنواتها الأولى في البحرين والبصرة وبغداد ولم تلق نجاحاً كبيراً إلى أن عاد إلى منطقة البصرة واتخذ مقره في برنخل، وعمل على التوسع في كور دجلة والأطراف الغربية من الأهواز، ثم في منطقة البصرة، ولم يجاوزها إلى مدة لم تزد على السنة، ثم امتد منها إلى واسط وجنبلاء وجبل. ولما قضى على القائم بها وأنصاره زالت آثارها كلياً، ولم تجر محاولات لتجديدها أو الاحتفاظ بمعالمها؛ ولم تكتب عنها المؤلفات في الفرق والعقائد على كثرة ما كتبوا عن كثير من الفرق الغالية وعرضوا آراءها البعيدة عن روح الإسلام وتوجهاتها بما في ذلك المجسمة والحلولية لكنها تفردت باهتمام خاص من الطبري الذي خص أخبارها بقرابة مائة وثمانين صفحة من كتابه في التاريخ ذكر عنها تفاصيل مستمدة أكثرها من المشاركين فيها، ونقل عنه عدد من بارزي المؤرخين المؤخرين كابن الأثير وابن كثير: والتفاصيل التي ذكرها عن الحركة لا توازي ما ذكره عن أي حركة أخرى باستثناء حركات الخوارج.

وفي الأزمنة الحديثة لقيت حركة صاحب الزنج اهتماماً خصوصاً منذ

أن نشر ثيودور نولدكه عنها مقالاً لا يجاوز العشرين صفحة اعتمد في معلوماتها على ما أورده الطبري، وبالغ في تجسيم سوء أحوال الزنج ومدى اعتماد علي بن محمد عليهم، ثم تتابع نشر مقالات وكتب عن هذه الحركة، وأولاها من بحثوا ما يطلق عليه «الحركات السرية في الإسلام» اهتماماً خاصاً علماً بأن الحركة لم تكن سرية ولم تكن تحررية ولم تقتصر على العبيد والرقيق، بل امتدت لجعلهم سادة، أي إنه لم يلغ الطبقية، بل أراد إبدال طبقة بأخرى، فاحتفظ بالرق ومده إلى العربيات اللائي استرق عدداً منهن فهي حركة قد تستجيب لشهوات الحاقدين على العرب، وليس لذوي الأفكار الإنسانية الحرة.

لقيت حركة صاحب الزنج في العهود الحديثة اهتماماً خاصاً لا يتجلى بمجرد المؤلفات القليلة التي خصصت لها ولا في الفصول التي كرست لها في الكتب العامة، بل كذلك في الاهتمام بها، وترديد ذكرها بكثرة تفوق ما حضيت به غالبية الحركات الأخرى في الإسلام. وكثيراً من هذا الاهتمام يرجع إلى المعلومات التي أبرزت فيها واستغلها الباحثون المتبنون للتيارات الفكرية السياسية والاقتصادية الحديثة، ومحاولتهم فرضها على تفسير أحداث التاريخ الإسلامي بتنوعها؛ ولعل أشد المدافعين عنها والمحاولين إبرازها بشكل براق هم من يسمون اليساريون ممن يحاولون إبراز العامل المادي في التاريخ والمبالغة في أثره، أو الحركات الشبيهة، ومن أوائلهم بندلي جوزي. وإنما امتد إلى من يمكن تسميتهم «أحرار الفكر» باعتبار الحركة تحررية، بالإضافة إلى من لا يحسنون الظن بالإسهام البناء للعرب. وكان أثر هؤلاء في التوجيه الفكري أقوى من أثر من عابها باعتبارها حركة متمردة شعوبية تدميرية ليست لها فكرة محددة مقبولة تدافع عنها. أو إلى أثرها بعد زوالها وقد علا صوت ممجديها مستندين إلى آراء تبنّوها وفرضوها وهي تتباين مع الدراسات التفصيلية الدقيقة لما كتبه الطبري، وهو مصدرنا الأول إن لم يكن الوحيد في ذلك.

إن الدراسة الحالية لا تفرض أفكاراً مسبقة على تصوير الحركة، بل تقوم على استيعاب تنظيم المعلومات التي أوردها الطبري، وإظهار الصورة التي نرى أن المعلومات التفصيلية الشاملة تقدمها؛ وإن كان بعضها قائم على نصوص قصيرة ذكرت عرضياً مع أن لها دلالات مهمة لطبيعة الحركة وتوجيهاتها مدفوعين وقد رأينا أن كتابة التاريخ الإسلامي تتطلب استيعاباً للمعلومات وفهماً متزناً لتقديم صورة عن الحوادث كما كانت وليس كما نريدها، وأن تنأى كتابة التاريخ عن الإعلام المتحيز مهما كانت وجهته، علماً بأننا نحس أن أثر أخبار حركة الزنج في الأفكار أوسع من العدد المحدود من المؤلفات المنشورة عنها، وأن الحاجة قائمة لبحث يهدف إلى الحقيقة لا الإعلام، والعقل لا العواطف.

اعتمدت معلومات هذه الدراسة على ما ورد في الطبري بالدرجة الأولى، وتميزت بتنظيم مادتها وتقدير بعض معلوماتها، من تكوين صورة متكاملة للحركة؛ فبدأت بدراسة مستوعبة للأحوال الجغرافية للأرض التي كانت مسرح الحوادث فوصفت طبيعة تربتها، ومياهها وأنهارها ومراكز الاستقرار فيها من قرى وبلدان ومدن وعناصر السكان بما في ذلك أصولهم العرقية وحرفهم وأحوالهم المعاشية والحضارية. وتلت ذلك دراسة عن نشأة صاحب الزنج واهتماماته واتصالاته السابقة؛ ثم محاولاته في إقامة كيان مرتبط به يرأسه ويوجهه؛ والعناصر البشرية التي اتصل بها وحاول ضمها إليه، وجهوده في توسيع مناطق هيمنته، ومد سلطانه، والتنظيمات التي وضعها وموقف أهل المنطقة من ذلك، وجهود «السلطان» في الحد من توسع الحركة، ثم القضاء عليها، والأساليب التي اتبعتها لتحقيق ذلك.

الفصل الأول

المؤلفات في صاحب الزنج وحركته

ذكر المسعودي في كلامه عن صاحب الزنج «وصنف الناس في أخباره وحروبه وما كان من أمره كتباً كثيرة»[1] غير أنه لم يذكر اسم أي مؤلف أو كتاب من التي ذكر أنها كثيرة. وذكر في «مروج الذهب: إنفاذ المعتمد الموفق لمحاربة صاحب الزنج، وفتوحه وبدء حركته وما أصاب أهل البصرة من ويلات عندما غزاها» وذكر التنوخي «روى القاضي أبو الحسين في كتابه الناجم بالبصرة «يعني الخائن صاحب الزنج»[2] ومع أن التنوخي نقل كثيراً عن القاضي أبي الحسين إلاّ أنه لم يذكر هويته، ولعله القاضي أبو الحسين عمرو بن محمد بن يوسف قاضي القضاة.

وذكر ابن النديم أن للوشاء كتاب «أخبار صاحب الزنج»[3] ولم أجد من نقل عنه، كما ذكر كتاب «أخبار صاحب الزنج ووقائعه لشيلمة»[4] وهو المصدر الرئيسي للطبري وسنتحدث عنه بتفصيل أوفى. وذكر كتاب «أخبار صاحب الزنج ووقائعه»، ولم أجد من نقل عنه.

---

(1) مروج الذهب 2/ 329 طبعة صادر.

(2) الفرج بعد الشدة 4/ 98 طبعة عبود الشالجي.

(3) الفهرست لابن النديم 141.

(4) الفهرست 93.

انفرد الطبري بذكر تفاصيل لم يرد في الكتب الأخرى ما يوازيها أو يضيف إليها عن أحداث حركة صاحب الزنج، وبلغ ما خصصه من الكلام عنها قرابة (مائة وخمسين) صفحة وهذا يكون كتاباً قائماً بذاته، ونقل عن الطبري معظم من تلاه بتفاصيل متباينة، ومن أوسع من نقل عنه كتاب «العيون والحدائق»، حيث بلغ عدداً من الصفحات أكثر نقلها عنه.

وممن أكثر النقل عن الطبري في أخباره من الزنج أن أبا الحديد فش شرحه نهج البلاغة، وبلغ عدد الصفحات التي نقلها عنه (أربعين) من القطع الكبير.

فصّل الطبري في ما أورده عن الحوادث والبلاد التي حدثت فيها، وقدم في ذلك معلومات عن الأنهار والمعالم العمرانية تفوق ما ذكره البلاذري في «فتوح البلدان» الذي كانت معلوماته الواسعة المعتمد الأول للباحثين في هذا الحقل. وذكر الطبري أسماء كثير منها وأكثرها بما يتصل بالحركات العسكرية وبعض آثارها، ولم يذكر إلا قليلاً جداً من الأفكار العقائدية التي نادى بها ودعا إليها.

ذكر الطبري مصدره في معظم ما أورده، وهو محمد بن الحسن بن سهل المعروف باسم «شيلمة»، وهو ممن كان قد انضم إلى صاحب الزنج ثم تخلى عنه مؤخراً دون أن يحدد الطبري زمن ذلك التخلي.

تابع شيلمة نشاطه بعد عودته إلى بغداد وألقي القبض عليه سنة 280، وأقر عليه جماعة من المستأمنة من عسكر العلوي وأصيبت له جرائد فيها أسماء رجال قد أخذ عليهم البيعة لرجل من آل أبي طالب وكانوا قد عزموا على أن يظهروا ببغداد في يوم بعينه ويقتلوا المعتضد «ورفض الإقرار بمن كان يدعو إليه فقتله المعتضد»[5].

---

(5) الطبري 3/ 2135 ـ 2136، مروج الذهب 4/ 155.

ذكر المسعودي أن لشيلمة تصنيفات في أخبار «المبيضة» وله كتاب مؤلف في أخبار علي بن محمد[6]. وذكر ابن النديم أن شيلمة كان أولاً مع العلوي البصري ثم صار إلى بغداد وأومن، ثم خلط وسعى لبعض الخوارج فحرقه المعتضد، وذكر أن له من الكتب كتاب أخبار صاحب الزنج ووقائعه وكتاب رسائله[7].

ذكر شيلمة مصادره في معظم المعلومات التي أوردها، وهم رجال كانت لأكثرهم مكانة عند صاحب الزنج وإسهامات في الأحداث ثم تخلوا عنه واستأمنوا للسلطان، ونقل أيضاً عن محمد بن حماد وهو ممن لم ينضم إلى حركة صاحب الزنج وولي قضاء البصرة بعد القضاء على الحركة. ونقل شيلمة عن كل ممن اعتمدهم عدة نصوص بعضها طويلة، تنسجم كلها مع الخط العام لتوجهه، وهو ما يدل على أن شيلمة هو الذي رسم الخط العام لما أورده، وهو الاهتمام بالأحداث العسكرية وقادتها وسمات المسهمين فيها ووصف مواقع الأحداث. والتفاصيل التي أوردها عن معظم الأحداث لا يدانيها في ما وصلنا إلا المعلومات التي وردت عن الفتوح الإسلامية الأولى. ويبدو أنه دونها تعبيراً عن اهتمامه بالتدوين، وليس بناءً على طلب من جهات رسمية لحفظ أخبارها، وهي لا تبرز من رجال السلطة إلا دور الموفق ثم ابنه أبا العباس ويبدو أن التدوين تم بعيد القضاء على الحركة.

يظهر مما نقله الطبري أن شيلمة كان دقيق الملاحظة قوي الذاكرة واسع النظرة وأشار إلى كثير الحوادث والأشخاص المساهمين فيها ومواقع حدوثها بتفاصيل تفرد بها، وهذا الشمول يدل على سعة اطلاعه على مجريات كثير من الأحداث في الميادين ودون الاقتصار على ما يتصل بصاحب الزنج، فهو بهذا يختلف عن الصولي الذي ركز في كتاب «الأوراق» على الأحداث

(6) مروج الذهب 4/ 155.

(7) الفهرست 141.

المتصلة بالخليفة وما حوله، ومع أنه لم يوضح دوره الخاص في هذه الأحداث إلا أن كتاباته تدل على أنه لم يقتصر على اتصاله بشخص صاحب الزنج، بل امتد إلى أعمال الرجال الآخرين المساهمين في الحركة.

وفيما يلي مكان المصادر في الطبري مما أشار شيلمة إلى ما أخذه من كل من الفصول التي كتبها في البصرة ممن كان مع صاحب الزنج وأسهم في كثير منها وكلها ذكرها محمد بن الحسن (شيلمة): 1780/ 1836/ 1847/ 1851/ 1862/ 1865/ 1870/ 1910/ 1928/ 2040/ 2046/ 2049.

ريحان: 1766 ـ 8/ 1770/ 1774/ 1777/ 1778/ 1779/ 1781.

شبل: 1775/ 1778/ 1856/ 1858/ 1861.

محمد بن سمعان الكاتب: 1783/ 1851 ـ 6/ 1866/ 1868/ 1871.

جياش: 1906/ 1923/ 1924/ 1925/ 1926/ 1929.

الفضل بن عدي الدارمي: 1777/ 1782/ 1911/ 1937/ 1969.

محمد بن عثمان العباداني: 1876/ 1900/ 1902 ـ 6.

محمد بن حماد: 1948/ 1965/ 1966/ 1968/ 1970/ 1978/ 1981/ 2005/ 2016.

محمد بن شعيب الأشتيام: 1955/ 1957/ 1959/ 1960.

لم يشر شيلمة إلى ما لا بد أنه كان مطلعاً عليه من الأفكار والآراء السياسية أو العقائدية لصاحب الزنج، واقتصر على عرض المحاولات العملية لنشر الهيمنة والسلطان، كما أنه لم يعن بجزئيات حياة الناس وخصوصيات حياة صاحب الزنج، فكتاباته تشير إلى أنه كان رجلاً سياسياً طموحاً يعنى بأعمال أصحاب السلطة ولا يذكر عن الجماهير إلا ما له صلة بصاحب السلطة، فاهتمامه منصبّ على «السياسة» بمفهومها الممارسات التي يقوم بها أصحاب السلطة وفي هذا كانت أهمية وحدود كتاب شيلمة في فهم حركة صاحب الزنج.

نقل شيلمة مقداراً كبيراً من المعلومات التي رواها عن محمد بن حماد بن إسحاق بن حماد بن زيد بدءاً من تحرك أبي العباس لقتال صاحب الزنج (1947) إلى الأحداث التالية (1948/ 1965/ 1979/ 1980/ 2005/ 2016/ 2020)، ونقل روايات متداخلة عن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الهاشمي (بريه) ومحمد بن شعيب الأشتيام.

وأورد ابن أبي الحديد كلاماً طويلاً عن صاحب الزنج في شرح نهج البلاغة (2/ 311 ـ 343) تابع فيه ما رواه الطبري مع حذف الأسانيد وقليل من الاختصار.

أُلِّفت في الأزمنة الحديثة، عدة كتب نذكرها تبعاً لزمن صدورها.

1 ـ عبد الكريم خليفة: مصادر ثورة الزنج. (باريس 1954). وهي تشمل مقدمة بخمس صفحات ونصوصاً وتعليقات تبلغ مائة وثلاثين صفحة.

2 ـ جميل المدفعي: صاحب الزنج (كراس)، عمان 1955.

3 ـ نور الدين فارس: «انهضوا أيها العبيد» ـ مطبعة الوفاء ـ بغداد 1960.

4 ـ هانز هالم، التقاليد عن علي بن محمد صاحب الزنج (بالألمانية ـ بون، 1967).

5 ـ أحمد فرادرس شوريش بردكان، مكتبة ابن سينا طهران 1968.

6 ـ معين بسيسو: ثورة الزنج، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1950.

7 ـ فيصل السامر: ثورة الزنج ـ ط دار الفارابي 1954.

8 ـ ألكسندر بوبوفيج: ثورة العبيد في العراق. جويشنر باريس ـ 1976 (بالفرنسية) لخصه أحمد علبي ولعله الذي نشر سنة 1998 إلى الإنكليزية بعنوان «ثورة العبيد الأفارقة في العراق» ـ ونشره ماركوس واينز في 157 مع مقدمة في 14 صفحة. ولم يتيسر لي الاطلاع على الطبعتين. وإنما أفدت مما لخصه أحمد علبي.

9 ـ محمد عمارة: ثورة الزنج، دار الوحدة، بيروت، 1980.
10 ـ أحمد علبي: ثورة العبيد في الإسلام، دار الآداب ـ بيروت 1985.
12 ـ أحمد علبي: ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد. دار الفارابي 1991 ـ بيروت. (ترجم إلى الإنكليزية والفارسية).
ونشرت عن صاحب الزنج مقالات بعضها طويلة وشاملة: مقال «نولدكه» في 1911 وأعاد نشرها في كتابه «فصول من تاريخ الإسلام».
13 ـ بندلي جوزى: «من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام».
14 ـ طه حسين: ثورتان. الكاتب المصري، مايو 1946 ـ ص243 ـ 273. وأعيد نشرها في كتاب ألوان للأخبار دار المعارف.
15 ـ فيصل السامر: بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية في ثورة الزنج ص5113، الثقافة الجديدة 1 ـ 2 1953 ص15 ـ 3.
16 ـ صلاح خالص حول البطولة في الوطن العربي. الثقافة الجديدة الأولية 1959 ص14 ـ 17.
17 ـ أحمد علبي: صلبان الإسلام. مجلة العربي م22، ص155 ـ 191، 1979. ونشر في شعره الذي ذكر ابن الطقطقي أنه يبلغ ستين ومائة بيت (الفخري 53)، وذكر الصفدي أنه مائة وسبعة وثمانون بيتاً.
أرابيكا، م12 عدد 2، ليدن 18-Arabica 1969.
19 ـ عز الدين المدني. ديوان الزنج: الدار التونسية للنشر.
20 ـ عبد الجبار ناجي: صاحب الزنج الثائر الشاعر، مع تحقيق ما أورده الصفدي في شعره. المورد (م1 عدد 3 ـ 4/ 11 ـ 23)، 1973. ونشر في مجلة المؤرخ العربي دراسة عن التنظيم العسكري لجيش صاحب الزنج (المؤرخ العربي م7 لسنة 1978).
21 ـ ماسنون: «الزنج» مقال في دائرة المعارف الإسلامية.
22 ـ مقال لولكر عن نقد ذهبي لصاحب الزنج نشر في مجلة IRAQ، ص197 ص651.

الفصل الثاني

منطقة البصرة: أحوالها العمرانية

كانت أراضي الجانب الغربي من دجلة البصرة عند تقدم المسلمين منطقة معمرة بالمزارع وبالتجمعات البشرية فقد كان فيها الإبلة التي يرجع إنشاؤها إلى زمن الإسكندر المكدوني أو ربما قبل ذلك، وكانت عند تقدم العرب إلى هذه الجبهة الميناء الرئيسي في جنوب العراق «وكانت سفن الصين والهند ترقى إليها»[1]. وكانت معظم سلع هذه التجارات تزود البلاط الساساني وأقاليم البحر المتوسط، ولا بد أن هذا رافقه ازدهار كثير مما تتطلبه التجارة البحرية من أعمال تتعلق بصناعة السفن وتجهيزها، والتجار الذين يتعاملون بهذه السلع.

غير أن تدهور الأحوال العمرانية والاقتصادية والسياسية لأسباب منها الفيضانات العارمة وتدمير منظومات الري وتحول مجرى دجلة، وتوسع البطائح، والخلافات الواسعة على تولي العرش، كل ذلك لا بد أنه كان له أثر في إضعاف التجارة وتدني مكانة الإبلة التي تتجلى في سهولة استيلاء القوات العربية التي مع أنها لم تكن كبيرة فإنها لم تلق مقاومة جدية، ولم تظفر بغنائم كبيرة، إذ تروي المصادر أن المقاتلة العرب الذين دخلوها

---

(1) فتوح البلدان 340.

وعددهم ثمانمائة أصاب كل فرد منهم درهمان[2].

لا شك في أن التخريبات والاختلالات التي حدثت في منظومات الري جنوب العراق وتقدم القوات الإسلامية إلى جبهة جنوب العراق، كان لها تأثير على تلك المنطقة، ولا سيما في الملاحة والري والإعمار فقد انقطع القسم الأعلى من دجلة، فأصبح يسمى دجلة العوراء، وتحول الكثير من مياهه إلى البطائح التي امتدت إلى أطراف البصرة، ويبدو أن هذا الانقطاع استمر إلى زمن خلافة أبي جعفر المنصور الذي أمر بحفر نهر أبي الأسد لتيسير الملاحة[3].

ويبدو أن مياه دجلة العوراء لم تنقص لأن مد البحر كان يعوض عن انقطاع الماء عن قسمه الأعلى، غير أن زيادة اعتماده على ماء البحر، فزاد من ملوحته، وقد أشار البلاذري في أكثر من موضع من كتابه «فتوح البلدان» إلى تشكي البصريين من ملوحة ماء دجلة البصرة، وذكر أن ماء البطيحة أعذب[4] وكان هذا من عوامل حفر نهر عدي لتزويد البصرة بماء البطائح الأعذب[5].

دفعت ملوحة الأنهار إلى حفر عدد من الحياض التي تعتمد فيما يظهر على المياه الجوفية فماؤها أعذب، ومنها حوض سليمان بن علي في رحبة بني هاشم[6] وحوض عبد الله[7] وصهاريج الحجاج[8]. ولعل هذا أدى إلى أن السباخ كانت في أطراف البطيحة أقل، ما دفعهم إلى إعمارها فقد أقطع سليمان عبد الملك يزيد بن المهلب ما اعتمل من البطيحة، فاعتمل الشرقي

(2) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا «منطقة البصرة».
(3) انظر فتوح البلدان 30291، الأعلاق النفيسة لابن رسته 108.
(4) فتوح البلدان 369 .
(5) فتوح البلدان 399.
(6) فتوح البلدان 271.
(7) أنساب الأشراف 3/ 9.
(8) الفرج بعد الشدة 1/ 161 طبعة عبود الشالجي.

والجبان والخست وريحيه ومغيرتان وغيرها فصارت حوزا، ثم قبضها يزيد بن عبد الملك، ثم أقطعها هشام ولده، ثم حيزت بعده.

ذكرت المصادر العربية معالم عمرانية كانت في الجانب الغربي من دجلة البصرة، ومما ذكرته الخريبة التي كانت في أول الإسلام من المعالم البارزة في البصرة.

ومن هذه المعالم دار سنبيل «كان قصراً قديماً للفرس في جانبه وحوله خندق»[9]. وفي أطرافها بثق شيرين[10]، ونهر المرأة «كان لامرأة من الفرس رسمها ظاهر»[11]. ولعل دير جابيل من المعالم العمرانية السابقة للإسلام، وذكر البلاذري أن القندل فيه نهر للنعمان بن المنذر صاحب الحيرة أيام كسرى وكان فيه قصر للنعمان»[12]، ولعل كثيراً من هذه الأنهار في الجانب الغربي ترجع إلى ما قبل الإسلام وأن العرب أحيوها بتنظيف مجاريها وتعميقها وتوسيعها.

لا شك في أن وجود هذه المعالم القديمة أنه كان يرافقها رقعة زراعية معمرة، غير أنه عند مجيء العرب كانت هذه الرقعة في حالة تدنٍ، أو ربما كانت منعدمة لأسباب لا علاقة لها بتقدم العرب لأنها سبقتهم، وكان بعض العرب من سدوس استغلوا ضعف سيطرة الفرس، فكانوا يغيرون على تلك المنطقة دون أن يلقوا مقاومة أو يظفروا بانتصارات ملحوظة، ولما هيمن أبو بكر على جزيرة العرب وبسط سلطان دولة الإسلام عليها، أمر خالد بن الوليد بالتوجه إلى جبهة العراق، فقدمها من الجنوب، وانضمت إليه القوات العربية التي كانت تغير على الفرس وأكثرهم من سدوس يقودهم قطبة بن

(9) أنساب الأشراف 2/ 431.
(10) فتوح البلدان 466.
(11) معجم البلدان 4/ 844.
(12) فتوح البلدان 362.

قتادة[13]. ولم يلق خالد مقاومة في تقدمه وحركاته في أطراف العراق الجنوبية، وكان اهتمام العرب موجهاً إلى جبهة الحيرة في أواسط الأطراف الغربية من العراق.

اهتم عمر بن الخطاب بفتوح العراق بعد انتصار العرب على الروم في اليرموك فحشد أكثر القوات التي تيسرت له نحو أواسط العراق، وأرسل قوة صغيرة قوامها ثلاثمائة رجل، ثم زادت إلى ثمانمائة، إلى جبهة البصرة فأحرز انتصارات على الأطراف الغربية من دجلة البصرة، ثم فتحت الإبلة وبعض أراضي دست ميسان، وتابع الاهتمام بهذه الجبهة فوسع العرب سيطرتهم على أبر قباذ ودست ميسان وكلها في غرب دجلة البصرة، ولم يلقوا مقاومة فعالة، ثم عبروا دجلة إلى إقليم الأهواز فلقوا مقاومة من حاكمها الهرمزان الذي ظل يقاتل العرب رغم تزايد قوّتهم إلى أن انهارت قوة الفرس في الشمال ففاوض العرب بعد سنتين من القتال، وقبل العرب استسلامه مع قواته من الأساورة الذين انضموا إلى الجيش العربي وأعطوا مثل ما يعطى من مقاتلة العرب من العطاء والحقوق[14].

وبالنظر إلى حاجة الدولة إلى المقاتلة، فقد منع عمر المقاتلة العرب من تملك الأرض والعمل فيها لئلا يشغلهم ذلك عن متابعة القتال، وهو ما كانت دولة الإسلام تحتاجه آنذاك.

فلما ولي عثمان من الخلافة كانت قوة الفرس قد انهارت، فتابع عثمان التوسع، وزاد عدد المقاتلة بمن انضم «رادفة» من العرب، وبدأت تتنامى حياة استقرار حضرية من مظاهرها اهتمام والي البصرة عبد الله بن عامر باستغلال الأرض للزراعة فحفر عدداً من الأنهار الآخذة من دجلة البصرة

---

(13) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة» وكتابنا «الفتوح الإسلامية».

(14) فتوح البلدان ، وانظر كتابنا (التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة).

لإحياء الأراضي التي أقطع كثيراً منها ذوي المكانة من العرب.

والأرض الممتدة على طرفي حوض دجلة البصرة أكثرها سباخ تكثر فيها الأملاح فتجعلها غير صالحة لزراعة غير النخيل وقليل من أشجار الفاكهة، غير أن السباخ إذا عولجت تجعل الأرض صالحة للزراعة، ومع أن المد والجزر يفيد في غسل التربة، إلا أن فائدته محدودة، لأن أثره يقتصر على شواطئه التي تتعرض للغرق عند المد، فتزيد من الملوحة التي لم يعرف العرب علاجاً لها إلا بكسحها واستعمال السماد الحيواني المحدود المقدار.

إن الأراضي الواسعة الغنية الممتدة على حوض دجلة البصرة لقيت عناية قبل الإسلام ومن مظاهرها كثرة المدن في غرب دجلة ومنها ما كان في دست ميسان وميسان وأبر قباذ وما وراءها[15].

يبدو أن الساسانيين عنوا بأعالي دجلة البصرة وبالأراضي الواقعة في شرقه، أما الجانب الغربي فإن قلة المعالم التي وجدها العرب فيها تدل على أنهم لم يولوها اهتماماً كبيراً.

شيدت البصرة في طرف الصحراء غربي دجلة، فأرضها مستوية تفتقد المياه العذبة، وحفرت فيها بعد الإسلام مياه والحياض.

لكن مياه هذه الحياض مجة، وقد عبر الكوفيون أهل البصرة بافتقادها الماء العذب.

غير أن حولها مصادر غنية بالمياه، ففي شماليها البطيحة التي تمتد أطرافها الجنوبية إلى ما يقرب من البصرة، وفي شرقيها يجري دجلة البصرة، يأخذ بعض مياهه من فضول ماء دجلة والبطائح، وبعضه من أنهار الأهواز وأكبرها نهر الأهواز وكارون وتصل آثار المد والجزر إلى شط البصرة وما

---

(15) انظر بحث شابلر عن ميسان المنشور في Der Islam وكتاب «بابل المسيحية» لجون فابيي بالفرنسية.

يتفرع منه، فيوفر ما تحتاجه الزراعة من مياه. وأرض منطقة البصرة مستوية لا يزيد انحدارها على واحد من عشرين ألفاً، ولذلك فإن الأنهار التي تأخذ من شط البصرة قلما تصل نهاياتها إلى أكثر من عشرة كيلومترات تتلوها برارٍ وقفار.

يقول البلاذري: إن عمر بن الخطاب لم يقطع بالبصرة إلا أبا بكرة، وإن عثمان لم يقطع بالبصرة إلا عمران بن الحصين، وابن عامر أقطعه وحمران مولاه[16].

لم يكن العرب منعدمين من الخبرة في الزراعة أو بعيدين عن تقديرهم لأهميتها وما توفره من مواد ضرورية للمعاش ومورد من المال الذي كان زينة الحياة الدنيا، ولعل الكارهين للعمل فيها هم القليل من البدو الذين يمتهنون تربية المواشي معتمدين على المراعي الطبيعية.

إن منع عمر العمل بالأرض أو تملكها اقتصر على المقاتلة ولم يعم الجميع، ومنهم العرب الذين ظلوا مقيمين في مواطنهم ولم يشاركوا في القتال. وكان غرضه من هذا المنع أن يحملهم على تركيز طاقاتهم على قتال العدو وهو غرضه الأكبر الذي يوسع الدولة ويثبت سلطانها، وهذا يتطلب الحركة والاستعداد للتنقل نحو ما يتطلبه القتال من الجبهات كما أنه يزيد من اعتمادهم في معاشهم على عطاء الدولة، فيثبت سلطان الدولة عليهم، وأخيراً فإن الأرض مهما كانت واسعة فإنها أقل من أن تكفي لتوزيعها عليهم جميعاً بالإضافة إلى ما قد تحدثه الزراعة من منافسات وانقسامات بينهم.

توسع فتح الأنهار وإعطاء القطائع في زمن ولاية زياد بخاصة، ثم من تلاه من الولاة، وازداد الاهتمام بإعمار الأرض باعتبارها من أبرز مصادر الثروة، وعمت الإقطاعات الرجال والنساء، وكان المقطعون يقومون بما

(16) فتوح البلدان 356.

يتطلبه الإحياء وهي باعتبارها «إحياء موات» تصبح ملكاً للمقطعين وكانت تسمى بأسمائهم وقد ذكر البلاذري أسماء أصحاب كثير من هذه الإقطاعات وذكر مساحات بعضها ومواقعها.

وشارك الخلفاء وكبار رجال الدولة الأموية في هذا الإحياء الذي امتد إلى مناطق أخرى من العراق.

ازداد اهتمام الدولة باستغلال الأراضي كمصدر من مصادر الثروة وخصوصاً بالخليفة والمتصلين به. وكان العراق الميدان الأوسع لاستغلال الأرض لسعة أراضيه، وزوال الأسرة الساسانية الحاكمة التي كانت تعنى بالأرض وتسند كبار ملاكيها والمستفيدين منها وكان مجال الإفادة واسعاً بعد أن قتل أو هرب كثير من ملاكيها القدماء المرتبطين بالأسرة الساسانية المنقرضة، بالإضافة إلى خراب أراضٍ واسعة بسبب إهمال الموظفين المسؤولين عن صيانتها وإدامتها، وفي هذا يقول البلاذري: «ثم دخلت العرب أرض العراق وشغلت الأعاجم بالحروب فكانت البثوق تنفجر فلا يلتفت إليها ويعجز الدهاقين عن سدها فاتسعت البطيحة وعرضت»(17).

ثم إن المسلمين، وخصوصاً معاوية والحجاج، اهتموا بإحياء البطيحة، وإقامة سدود لمنع غرقها بالفيضانات. ثم إصلاح الأرض من السباخ التي كانت تطغى على أراضي جنوب العراق.

عني زياد والي البصرة بإحياء الأراضي التي في الجانب الغربي من دجلة، وحول المدينة، فعيّن على القطائع عبد الرحمن بن تبع الحميري(18)، وكان يقطع الرجل القطيعة سنتين فإن عمرها وإلا أخذها منه وهذا أسلوب يدفع إلى التعجيل في العمل على إحياء الأراضي وكان قد اتبع سياسة عمر فمنع (التحجير) أي تملك الأرض دون أن يعملها خلال خمس سنوات.

(17) فتوح البلدان 291.

(18) فتوح البلدان 352، 360.

أورد البلاذري في كتابه فتوح البلدان قائمة كبيرة بإقطاعات الجانب الغربي من دجلة البصرة يبدو أنه اعتمدها من القحذمي الذي كان على ديوان البصرة، وذكر فيها زمن إقطاع بعضها، وفيها عدد من أقطعهم زياد، ومما أقطع بعده إلى أوائل زمن الخلافة العباسية، وغالبية مقطعيها من العرب، وبعضهم من المقربين لزياد بمن فيهم بناته وأكثر القطائع التي ذكرت كانت على الأنهار التي ترويها وبعضها على نهري أبي الخصيب ومعقل، وهي أنهار كبيرة لا شك أنها كانت عليها مزارع لمقطعين آخرين، وفيها نهر باسم (اليهودي) أو تفرده من غير المسلمين كما أن منها نهر الأساورة، الذي يبدو من اسمه كان ملكاً جماعياً لهم وليس لرئيسهم وحده.

لم يذكر البلاذري إقطاعات في الجانب الشرقي من دجلة البصرة ومن المعلوم أن أرض هذا الجانب مستوية قليلة الانحدار ما يقرّب دجلة للبصرة منها لا تختلف عن تربة الجانب الغربي، إلا أنها بعيدة عن بطائح العراق، وتخترقها أنهار عذبة المياه، وعليها مدن غير قليلة أبرزها «الفرات» في رقعة تقابل شمالي أبي الخصيب بالإضافة إلى عدد من المدن الأخرى وأبرزها سوق الأهواز وعسكر مكرم والسوس وتستر، وجنديسابور وأكثرها في الأطراف الشمالية المرتفعة من الأهواز.

لم يذكر البلاذري قطائع للعرب في الجانب الشرقي، بل ذكر «في الفرات أرضون أسلم عليها أهلها حين دخل المسلمون، وأرضون خرجت من أيدي أهلها إلى قوم مسلمين بهبات أو غير ذلك من أسباب الملك، فصيرت عشرية وكانت خراجية فردّها الحجاج إلى الخراج، ثم ردها عمر بن عبد العزيز إلى الصدقة، ثم ردها عمر بن هبيرة إلى الخراج، فلما ولي هشام بن عبد الملك، ردها إلى الصدقة ثم إن المهدي أمير المؤمنين جعلها كلها من أراضي الصدقة»[19].

(19) فتوح البلدان 367.

حدد البلاذري أراضي (في الفرات) ولم يذكر أنها أراضي كل الفرات، كما أنه لم يذكر مثل هذا التبدل في غير هذه الأراضي، وهو يشير في هذا النص إلى تبكير انتشار الإسلام في أهل هذه الأراضي، وإن بعض هذه الأراضي خرجت من أيدي أصحابها من غير المسلمين فصارت للمسلمين وصارت عشرية، ثم تقلبت الضريبة عليها منذ زمن الحجاج حتى استقرت عشرية منذ زمن المهدي.

وفي أخبار حوادث صاحب الزنج أراضي ملاكها من العرب، يبدو أنهم حصلوا عليها في أزمنة سابقة ولا سيما في العصر العباسي الأول، إلا أنه لا يمكن الجزم بأن ما تملكه العرب هو كل هذه الأراضي التي لا شك في أن أكثرهم كان من الملاكين القدماء.

الفصل الثالث

أهل المنطقة

كانت منطقة البصرة التي ابتغى علي بن محمد اتخاذ مركز هيمنته فيها أرضاً زراعية غالبية أهلها يعملون في الأرض، عمالاً أو فلاحين أو ملاكين، وفيها مراكز حضرية أبرزها البصرة والإبلة في الجانب الغربي من دجلة البصرة، والفرات وعبادان وعدد غير قليل من المراكز الأخرى في الجانب الشرقي الذي أرضه سهلة تتصل بمرتفعات الهضبة الإيرانية وتسكنه جماعات يتكلم كثير منها الخوزية، وتغلغل فيهم أعداد كبيرة من العرب من أهل الصحراء منذ أزمنة قديمة وازداد عددها وانتشارها بعد الفتوح الإسلامية، وتكيفت حياتها، فابتعد أكثرهم عن حياة البداوة التي تتميز بالعزلة والتنقل وما يرافق ذلك من نظم وأساليب في الحياة ومثل في الأخلاق.

والمنطقة الزراعية من الجانب الغربي تكون شريطاً من الأرض يمتد على طول دجلة البصرة ولا يزيد عرضه على عشرة أميال تمتد وراءه بواد متصلة بالصحراء فيها ديار البدو ولا سيما من عشائر بكر وتميم وما أُضيف إليهم بعد الإسلام من أسر وعشائر أخرى.

والمناطق التي بسط عليها علي بن محمد سلطانه كان لأهلها نظم مستقرة يرجع بعضها إلى ما قبل الإسلام، أبقت الدولة الإسلامية كثيراً من هذه النظم دون إدخال تبديلات أو تعديلات أساسية فيها وعبّر عن ذلك

البلاذري بقوله «قال أبو يوسف: إذا كانت في البلاد سنة أعجمية قديمة لم يغيرها الإسلام ولم يبطلها، فشكا قوم إلى الإمام لما ينالهم من ضرتها فليس له أن يغيرها، وقال مالك والشافعي يغيرها وإن قدمت لأن عليه نفي كل سنة جائرة»[1]. ومن أجلى مظاهر تطبيق هذا النظم هو احتفاظ النصارى بنظمهم الدينية واختيار رجال دينهم دون تدخُل الخلافة، ولعل هذا كان سارياً على أحوال ونظم حياتهم الاجتماعية والإدارية التي لا تتوافر عنها معلومات واسعة وانحصر ما فرضته الدولة من تنظيمات على العرب المقاتلة الذين كان مركزهم الرئيسي البصرة وواسط، ثم الأماكن المتفرقة التي ينفذون إليها فيقيمون فيها مؤقتاً أو دائمياً وتسري عليهم النظم المطبقة على المقاتلة العرب؛ وبعضها على من يسلم.

ذكرت المصادر أسماء عدد كبير من الأنهار في منطقة البصرة مسماة بملاكها الأولية، وأغلبهم من العرب ذوي المكانة في البصرة والمقربين إلى السلطان، وهو الوالي أو الخليفة، ولا ريب في أن هؤلاء الملاكين الأولين، وبعضهم من النساء، تملكوا الأراضي التي ترويها هذه الأنهار التي حفروها أو أصلحوها واستصلحوا الأراضي التي ترويها، ولا شك في أن هؤلاء الملاكين كانوا يستغلون منتوج هذه الأراضي مستخدمين فيها عمالاً لا يرتبطون بهم بصلة النسب، لأنهم من أسر متنفذة لا يعمل أفرادها في الأرض، وأكثر هؤلاء الملاكين يقيمون في مدينة البصرة ويقومون باستغلالها عن طريق من يستخدمونه من الوكلاء والفاشكار والعمال الذين لم تذكر المصادر أصولهم، ولعلهم من عمال الأرض القدماء، بمن في ذلك الفلاحون والمزارعون والأكرة ممن كانوا يقيمون منذ قبل الإسلام في هذه الأراضي ويعملونها، أو ممن انتقل إليها من المناطق الأخرى مستفيدين من حماية ملاكها الجدد وبعض الامتيازات التي يتمتعون بها على غيرهم.

(1) فتوح البلدان 447.

لم تكن منطقة الجانب الغربي من دجلة البصرة تنتج كل ما تحتاجه المراكز الكبيرة فيها بما في ذلك البصرة، ثم المختارة مدينة صاحب الزنج على نهر أبي الخصيب، والموفقية التي شيدها الموفق في الجانب الشرقي المقابل لما بين البصرة والمختارة. ولذلك كان لا بد لهذه المراكز الكبيرة من الاعتماد في كثير من مواردها المعاشية على ما تستورده من المناطق المجاورة ولا سيما من الأهواز في الشرق، والبادية في الغرب والبطيحة في الشمال. علماً بأن هذه المنطقة لم تعتمد في معاشها على ما يستورد من المناطق البعيدة، وإن حركات صاحب الزنج أدت إلى أن تنقطع عن المجيء مراكب البحر لأكثر من عشر سنين[2]. ويلاحظ أن السفن التي استعملت في القتال من الشذا والسميريات كانت تصنع في سيراف وجنابا[3] وذكرت الرقيات والجريبيات والزواريق ولم تذكر أماكن صنعها.

استقرار الأمن

تميزت البصرة في العهود العباسية الأولى بالاستقرار السياسي، فلم تحدث فيها أي حركة تهدد سلطان الخلافة العباسية بعد حركة إبراهيم بن الحسن التي قام فيها باسم أخيه محمد النفس الزكية وامتدت إلى أطراف الكوفة، ثم قضى عليها أبو جعفر. غير أن هذا الاستقرار لم يكن مظهراً لجمود الحياة فيها، فقد انقسم أهلها، شأن معظم المراكز الحضرية الأخرى إلى كتلتين متمايزتين هما البلالية والسعدية. والظاهر أن هذا الانقسام لم يقم على أسس عرقية، لأن كلتيهما عرب، ولعل للعشائرية أثراً فيه، وإذا كان السعدية ذوي صلة ببني سعد بن زيد مناة، فإنه لا يوجد دليل على أن البلالية أخذوا اسمهم من بلال بن أبي بردة الأشعري الذي ولي البصرة في أواخر عهد الخلافة الأموية. وكان جده أبو موسى قد وليها في خلافة

(2) الطبري 3/ 1989.

(3) الطبري 3/ 1997، 1989.

عمر بن الخطاب ثم انتقل إلى الكوفة وأقام فيها وانتقل بعد التحكيم إلى مكة وتوفي فيها[4].

وفي أول الخلافة الأموية حاول الخوارج التمرد والثورة وتولى الحركة قريب وزحاف في منطقة خطط الأزد لكن زياد والي البصرة قضى على حركتهم ونفى مائة وخمسين من الأزد إلى الفسطاط بمصر. فلم تعد للخوارج قوة في داخل البصرة، وجعلوا مركزهم في البحرين، ومدوا نشاطهم إلى أطراف البصرة فعرقلوا تجارتهم ولكنهم لم يفلحوا في إثارة التمرد في أهلها.

واعتمد الأمويون الأوائل على المهلب بن أبي صفرة الأزدي في الحد من نشاط الخوارج في الأهواز وحول البصرة، فأمنوا تجارتها، ثم ولي المهلب ومن بعد ابنه خراسان فتوثقت صلتهم في خراسان، لكنهم لم يكونوا أكثر من واحد من أخماسها، وكانت للمهالبة ثروة ونفوذ لا شك أن الأزد كانوا أكثر إفادة منه غير أن فشل ثورة يزيد بن المهلب على عمر بن عبد العزيز أضعفت مكانتها مؤقتاً، إذ ولي البصرة بعد ذلك بلال بن أبي بردة الأشعري، وهو أقرب إلى الأزد، فاستعاد الأزد مكانتهم ومع أن العباسيين الأوائل قربوا المهالبة إلا أنهم ولوهم المغرب، وهي بعيدة عن البصرة لكن توليته قوّت مكانة الأزد[5].

تميزت البصرة بالهدوء السياسي والتجارة، والصناعة واستغلال الأرض. ففي الصناعة عرفت في البصرة صناعة الزجاج، وينسب التميمي إليها صناعة الزجاج الفرعوني المشهور الذي انتشر في أرجاء من الدولة الإسلامية، كما عرفت بمنسوج المبجبجات التي كانت تصدر إلى أقاليم أفريقية الشرقية[6].

---

(4) انظر ص

(5) انظر تفاصيل أوفى في كتاب «المهالبة» للدكتور نافع توفيق.

(6) انظر عن الزجاج الفصل الثالث من كتاب «المرشد» للتميمي. مخطوط الجوراني. وعن المبجبجات «الجماهير» للبيروني.

وأما التجارة فإن وقوعها على رأس الخليج العربي جعلها مركز التجارة البحرية مع أقاليم المحيط الهندي والشرق الأقصى وأغلب التجارات مع هذه الأقاليم من السلع الكمالية بما في ذلك المصنوعات الحربية والزجاجية والجواهر والتوابل والأفاويه والأخشاب الصلبة التي ازدهرت برقي الحضارة والترف الماديين، ولم تقتصر على العراق، وإنما امتدت إلى أوربا لأن طريقها أقصر من طريق مصر[7].

ولا ريب في أن مراكز السفن هو الإبلة التي لا شك أنها كانت مركز صناعة السفن وما يتصل بها من خشب وحبال وغيرها، أما التجار فمن المرجح أن أغلب إقامتهم بالبصرة ولا تدخل في ذلك الأهواز لأنها تتصل بالعراق من طريق الطيب أما تجارة أواسط آسيا وخراسان فتسلك طريق البصرة إلى زمن خلافة سليمان بن عبد الملك حين استولى على جرجان وتحول طريق التجارة إلى شمال إيران.

كور دجلة والأهواز والبطيحة

تمتد في شرق منطقة البصرة كور دجلة وهي تشمل بهمنشير وأبرقباذ، ودست ميسان وميسان. وتقع في شريط من الأرض يمتد على طول غربي دجلة البصرة ولم تحدد المصادر عرضه.

فرات البصرة

ذكرت المصادر من مراكز كور دجلة فرات البصرة، وهي مركز بهمنشير وتقع مقابل الطرف الجنوبي للبصرة عبر النهر ويبدو أنها كانت قبيل الإسلام مركزاً مهماً. وأقام النصارى فيها مطرنة[8]. ويبدو من الأخبار أنها

(7) انظر الملاحة البحرية في المحيط الهندي لهادي حسن.

(8) معجم البلدان 1/ 771. وانظر مقال «الحسن البصري» لشيدر المنشور في مجلة er Islam بالألمانية. وكتاب «بابل النصرانية» لجون فاي بالفرنسية.

كانت من مراكز الحركة الفكرية النشيطة؛ وكانت في أوائل الإسلام من مراكز سك النقود، ووجدت نقود ضربت فيها في عدد السنوات الأولى وفيها كانت الحركة الأولى لثورة الزنج[9].

ويلاحظ أن من أصناف الزنوج والعبيد الذين ضمهم صاحب الزنج إليه «الفراتية»[10] ولم يذكر غيرهم مسمون باسم مدينة ولم تذكر المصادر سبب هذا التميز أو الأسس القائمة عليه أو جنس وأصول هؤلاء الفراتية إلا أنهم كانوا ممن يفصح بلسان الغرب، وأن صاحب الزنج حلف لهم أنه لن يخونهم[11]. وكان للحسن البصري في زمن الحجاج تأثير على «سقاط الإبلة وعلوج الفرات»[12]. وكانت ثورة شارزنجي في باب دوما من الفرات[13].

وذكرت المصادر ممن ولي على الفرات الحجاج بن عتبك وقد وليها في زمن عمر بن الخطاب، وذكره ابن الصعق في قصيدته التي ذكر فيها أسماء المختانين[14].

الإبلة

أما الإبلة فكانت تقع على الجانب الغربي من دجلة، وكانت مركز الملاحة البحرية «ترقى إليها السفن من الصين والهند واستسلمت دون مقاومة للقوات العربي الصغيرة بقيادة عتبة بن غزوان ولم يظفر العرب بغنائم دسمة منها فقد أصاب كل من المقاتلة الذين فتحوها وعددهم ثمانمائة درهمان، ويبدو أن أغنياءها انسحبوا منها، وأن ثروتها تضاءلت في أواخر العصر الساساني.

---

(9) تاريخ الطبري 2/ 1742.
(10) تاريخ الطبري 3/ 1756.
(11) تاريخ الطبري 3/ 1757.
(12) تاريخ الطبري 2/ 1410.
(13) أنساب الأشراف 1209 والمخطط، أخبار القضاة لوكيع 2/ 1817.
(14) فتوح البلدان 385.

ويبدو أنها استعادت مكانتها التجارية بعد الإسلام وعندما استولى عليها صاحب الزنج «كانت مبنية بالساج محفوفة ببناءٍ متماسكٍ فلما تقدم إليها صاحب الزنج سلموا إليه بلدهم فدخلها أصحابه فأخذ من كان فيها من العبيد»[15]. وقد ذكرت المصادر أسماء من ولي الأبلة في زمن عمر وصدر العصر الأموي[16].

أما الطساسيج الثلاثة الأخرى من كور دجلة وهي أبرقباء والمذار ودست ميسان وميسان، فلم تذكر المصادر ولاتها أو دوراً متميزاً لها، علماً بأنها كانت قبل مجيء الساساني مركز دولة ميسان التي هيمنت على جنوب العراق، وكان لها دور كبير في الحياة السياسية والتجارية إبان ازدهارها.

يبدو أن العباسيين الأوائل اعتبروا كور دجلة وحدة إدارية، فقد ذكرت المصادر جباياتها مجملة، وولاتها عامة فذكر الجهشياري أن تقدير جباية كور دجلة في زمن هارون الرشيد «20800 ألف درهم»[17].

وذكر قدامة أن جبايتها على عبرة سنة 260 تسعمائة كر حنطة وأربعة آلاف كر شعير وثلاثة وأربعين ألف درهم[18].

ذكر الطبري عدداً من ولاة بعض بلدان كور دجلة ومنطقتها وذكر أن الموفق ولي الإبلة، ثم أمر أبا الأحوص الباهلي بتوليها[19].

ولي محمد بن أبي عون على البصرة وميسان والبحرين سنة 252[20]، ثم نقل سنة 256 إلى ولاية الإبلة وكورها[21]. ثم ولي مسرور البلخي

(15) تاريخ الطبري 2/ 1837.
(16) انظر الملحق في كتابنا «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة».
(17) الوزراء والكتاب 184.
(18) الخراج وصنعة الكتاب 239.
(19) الطبري 3/ 1789.
(20) الطبري 3/ 1751.
(21) الطبري 3/ 1847.

الأهواز والبصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين. وولي محمد حمادة قضاء البصرة وكور دجلة والإبلة[22] وولي أحمد بن محمد بن يحيى الواثقي معاون البصرة وكور دجلة[23].

الأهــواز

تظهر المعلومات المفصلة التي انفرد الطبري بإيرادها أن قوات السلطان كانت قليلة في منطقة غربي دجلة البصرة بما فيها البصرة، وأن الجانب الشرقي من ذلك النهر كانت فيه قوات موزعة في عدة مواضع من الأهواز والطريق الذي يربطها بواسط. ولعل كثرة القوات الموزعة في هذه المناطق الشرقية راجع إلى أهميتها وإلى تعرضها لتهديدات من شرقيها. ومن المعلوم أن الأهواز كان إقليماً غنياً بمنتوجات وخصوصاً السكر الذي يتموّن منه العراق وكثير من أقاليم الشرق في العهود العباسية الأولى. وقد أشار الكُتّاب الأولون، ولاسيما الجاحظ إلى أن الأهواز كانت أكبر مموّن للسكر. وبجانب ذلك فقد كانت في الأهواز كثير من أكبر مراكز المنسوجات الحريرية، ولاسيما في السوس وسوسنجرد وبصنا وفي كثير من الطرز التي تزود قصور الخلفاء بهذه المنسوجات[24].

وتجدر الإشارة إلى أن الجيوش الإسلامية لقيت في فتح الأهواز مقاومة لم تشهد في عنادها فتح الأقاليم الأخرى في العراق والجزيرة الفراتية وشمالي الهضبة الإيرانية، وكان منها ممر الطرق البرية التي تسلكها الجيوش إلى بلاد السند، وإلى خراسان إلى أن تم فتح الطريق الشمالي عبر الري

---

(22) الطبري 3/ 2097.

(23) الطبري 3/ 2188.

(24) انظر تفاصيل أوفى عن الأهواز في كتابنا «الأهواز في العهود الإسلامية الأولى». وانظر مراكز النسيج في الأهواز ما كتبناه عنها في كتابنا «المنسوجات والألبسة العربية».

وجرجان في زمن خلافة سليمان بن عبد الملك. ومع أن هذا الطريق الجديد أصبح أكثر سلوكاً، فإنه لم يقض على طريق الأهواز، فلما تقدم طاهر بن الحسين لقتال قوات الأمين في بغداد سلك هذا الطريق الجنوبي؛ ولما ضعفت هيمنة الخلافة العباسية، تعرض هذا الطريق إلى أخطار بدأت من حركات الزط في زمن المأمون التي عرقلت التجارة مع بغداد؛ وظلت الأهواز إقليماً غنياً مغرياً ومعرضاً للأخطار، فالمرجح أن القوات العسكرية فيها والتي ذكرت في أخبار حركات صاحب الزنج، ترجع إقامتها في هذه المنطقة إلى أزمنة سابقة لظهور صاحب الزنج، وأن التبدلات التي حدثت كانت في الولاة والقادة، وليس في عدد القوات وأماكن إقامتها، وقد وجه صاحب الزنج جل حركاته الأولى للسيطرة على هذه المنطقة التي لقي فيها من قوات السلطان أصلب المقاومة إلى أن قدم أبو أحمد الذي سلك المنطقة الشرقية وهيمن عليها واتخذ قاعدته «الموفقية»، ليقوم فيها بحركاته للقضاء على المختارة قاعدة حركات صاحب الزنج في غرب دجلة البصرة ولم يجعل قاعدته في الإبلة أو في البصرة. أما الباقون فقد قاتلوه تنفيذاً لأوامر قادتهم ولخدمة السلطان ولم يستأمن غير واحد منهم لصاحب الزنج أو مال إليه أو أظهر تقبل آرائه، ومرجع ذلك تربيتهم العسكرية والانضمام إليها برغبتهم الذاتية، وأصول كثير منهم من بلاد نائية وخصوصاً من أهل ما وراء النهر أو كانوا رقيقاً فليس لهم ملجأ إذا تخلوا عن الخدمة العسكرية إلا أن يصبحوا مشردين أو ينظمون إلى منتزين.

كانت معظم حركات علي بن محمد وحملاته والأتباع الذين ألحقهم به في كور دجلة والأهواز واقتصر على حصار البصرة بقطع صلتها مع الأطراف ولم يقترب منها إلا مرتين: انتصر في أولاهما على القوات الحكومية والشعبية التي حشدها البصريون لمقاومته وتغلب عليهم في معركة جرت في الأطراف الجنوبية الشرقية من البصرة فأضعفهم وأشاع الخوف في نفوسهم، ولكنه لم يتابع انتصاره فلم يدخل البصرة وقال: «إنما البصرة خبزة لا نأكلها

من جانبها فإذا انكسر الرغيف خربت»[25].

وأما المرة الثانية فقد استعد لها كثيراً وحشد عليها معظم قواته، واستعان بقوات من الأعراب. ولم يلق مساندة من أهل البصرة، ثم دخلها ولكنه لم يبق أكثر من ثلاثة أيام انسحب بعدها ولم يحاول إعادة الكرة للاستيلاء عليها رغم ضعف قوات السلطان المدافعة عنها وتضعضع معنويات أهلها.

ولم تذكر له حركات مهمة في الجانب الغربي من دجلة البصرة علماً بأنه أشيد مقره في المختارة على نهر الخصيب في الأطراف الجنوبية الغربية من البصرة ومن المنطقة التي سيطر عليها.

كان أكثر نشاطه وجهوده في الجانب الشرقي من دجلة البصرة الذي كان منه معظم أتباعه وفيها لقي مقاومة من قوات السلطان والقوى التي كانت تريد الهيمنة على الأهواز. وأبرزهم الأكراد والصفاريون. وغزا عدة مدن ودخلها ونهبها. ولكنه لم يستقر في أي منها. بما في ذلك الإبلة والفرات وعبادان وسوق الأهواز.

ألقت الخلافة العباسية واجب صد توسع صاحب الزنج والقضاء على حركاته على قواتها المحلية في المنطقة، ولم تنفذ من سامر ومركز الخلافة إلا حملتين أولاهما بقيادة أبي أحمد الموفق ولم تفلح في القضاء عليه بسبب قلة عددها والأمراض التي تعرضت لها. أما الثانية فكانت كبيرة منذ أول إنفاذها وانضمت إليها القوات العاملة في المنطقة، وعززتها نجدات تالية ونجحت بعد جهود كبيرة امتدت زمناً في القضاء التام على الحركة وقتل رئيسها وكثير من كبار رجاله بالإضافة إلى من استسلم خلال ذلك.

وكانت المصادمات الرئيسية في الجانب الشرقي من دجلة البصرة،

---

(25) الطبري 3/ 1482.

حيث وجه صاحب الزنج معظم جهوده لجلب الأتباع منها، كما كانت في هذا الجانب أكبر القوات لتأمين السيطرة على هذا الجزء الغني بموارده، والمهم بموقعه.

كان والي الأهواز المسؤول الأعلى في منطقته لإدارة الحركات العسكرية وتوجيهها لصد توسع صاحب الزنج والحد من نشاطه. ولم يرد ذكر للعدد الإجمالي للقوات التي كانت بتصرفه، بل ذكرت أسماء عدد ممن قاد الحملات المتعددة التي وجهها لصد قوات صاحب الزنج كما وردت إشارات إلى حجم بعضها، وإلى إنجازاتها. وقد قاتلت هذه القوات صاحب الزنج بتماسك، ولم يرد ذكر من فر من القتال أو انضم إلى صاحب الزنج منهم ومن خصائص قوات السلطان أنها كانت تضم بجانب الرجالة فرساناً لم يتوافروا لصاحب الزنج. ومعظم قادة الحملات من الترك، ولعل الجند كانوا منهم كذلك. وقد ذكر في تنظيمهم العسكري أنه كان على كل تسعة عريف وعلى كل خمسين خليفة، وعلى كل مائة قائد(26). وكان للسفن دور كبير في القتال، وأكثر ما ذكر منها الشذا والسميريات، وأكثر ما كانت تصنع في جنابا وسيراف. أما سفن البحر الكبير فلم يتردد ذكرها كثيراً.

البطيحة وموقف أهلها

تقع في الأطراف الشمالية من منطقة البصرة البطائح(27)، وهي مستودع ماء ضخم يمتد من الأطراف الجنوبية من منطقة واسط إلى الأطراف الشمالية من البصرة وكانت لها أهمية مزدوجة فهي مسلك السفن بين البصرة والأهواز وكور دجلة من جهة، وبين واسط وبغداد وما بينهما من جهة أخرى،

(26) الطبري 3/ 1799.وانظر عن السفن الإسلام كتاب كندرمان، والمعجم الذي نشرته جامعة الإسكندرية.

(27) انظر عن البطائح وتوسعها ، فتوح البلدان 291-2 التنبيه والإشراف 307 وانظر عجائب الأقاليم لسهراب 135.

فسيطرة الزنج عليها تقطع التجارات بين هذه المناطق وبغداد فيض الطرفين معاً.

ولعل أضراره بالمنطقة الجنوبية أوسع، لأنه يحرمها مما يمكن أن تجنيه من التجارة مع المناطق الشمالية وبغداد. وكانت البطيحة تميز منطقة البصرة بالسمك[28].

ويبدو أن العرب في هذه المنطقة لم يقبلوا على العمل في الأرض والاستيطان في الريف، ولم يرد ذكر معلم عمراني باسم عشيرة عربية سوى قرية الباهليين قرب تستر[29]. وباهلة التي نسبت إليها القرية هي عشيرة من قيس عيلان، استوطن رجال منها البصرة ثم نقلوا إلى الجزيرة حيث برز منهم حاتم بن النعمان الباهلي[30] وكان سيد باهلة بالجزيرة[31]، ومنهم قتيبة بن مسلم والي خراسان المشهور، وكان أولاده مقربين للخلفاء العباسيين الأوائل فولي سعيد بن سلم بن قتيبة ولايات للمنصور والمهدي، وولي أخوه إبراهيم اليمن للهادي، وكانت لهم بقية ضخمة في البصرة[32]. ولما ثار الزط بالبطائح في زمن المأمون ضوى إليهم قوم من أباق العبيد وموالي باهلة وخولة محمد بن سليمان بن علي فشجعوهم على قطع الطريق ومبارزة السلطان بالمعصية[33].

ولما اضطربت أحوال منطقة البصرة عند ثورة صاحب الزنج ثار سعيد بن أحمد بن سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي «وكان متقدم الباهليين، وكانوا قد طمعوا في البطائح بعد إخراج الزنج منها وأظهروا فيها الفساد،

(28) الطبري 3/ 2013.
(29) الطبري 3/ 1911، 1913.
(30) الاشتقاق لابن دريد 272.
(31) جمهرة النسب لابن حزم 245.
(32) جمهرة النسب لابن حزم 246.
(33) فتوح البلدان 347.

فقبض على مقدمهم هذا ونفذ به إلى بغداد» وقتل فيها سنة 258 فانضم باقي رؤسائهم إلى الزنج[34].

وولي أمر البطيحة عمير بن عمار مولى باهلة وكان عالماً بطرق البطيحة ومسالكها[35].

ولم يرد ذكر دور فاعل مؤيد لحركة علي بن محمد أو معارضة من الباهليين أو أي من رجالهم.

احتفظ الباهليون بنفوذهم في منطقة البطيحة فكان عمير بن عمار مولى الباهليين في البطيحة ثم انضم إلى الزنج وصار خليفة سليمان بن جامع عليها[36]. فلما تقدم سليمان بن جامع مالأه الباهليون فدعا سليمان عمير بن عمار خليفته، ورجلاً من رؤساء الباهليين يقال له أحمد بن شريك لمعاونته[37] ولما انسحب سليمان «كره الباهليون خروج سليمان بن جامع من بين ظهرهم لغمس أيديهم معه، وما خافوا من تعقيب السلطان إياهم» وفي الحوانيت جمع سليمان إليه رؤساء الباهليين أهل الطفوف[38] أوقع السلطان بالباهليين[39].

ولعل من الباهليين من ذكر الطبري أنه عندما وصلت خيل أبي أحمد قرية الباهليين «استأمن جماعة من الأعراب الذين كانوا مع علي بن أبان إلى ابن ليثويه وهو القائد العباسي، واندحر علي بن أبان»[40].

أدرك صاحب الزنج هذه الأهمية للبطيحة، واستغل ضعف وقلة قوات

---

(34) الطبري 3/ 1786، 2580.

(35) الطبري 3/ 1725.

(36) الطبري 3/ 1746.

(37) الطبري 3/ 1902، وانظر 1899.

(38) الطبري 3/ 1913.

(39) الطبري 3/ 1911.

(40) الطبري 3/ 1911.

السلطان التي تدافع عنها: وقلق أهلها من موالي باهلة. واستغل ذلك فأرسل شبلاً وأبا النداء في عشرة آلاف من الزنج وغيرهم إلى نهر أبي الأسد وأنهار البطيحة للغارة على المسلمين ولقطع الميرة عن عسكر الموفق في حملته الأولى، ما يردها من البطيحة ومدينة السلام وواسط وأطرافها[41].

ووجّه صاحب الزنج إلى البطيحة الريان والخليل وهما من قرية بسمى، وجماعة من أهل الطف يجلبون السمك[42].

وتابع الموفق جهوده في قطع ما يأتي من البطيحة فأرسل نصيراً ليمنع قرى البطيحة وما يليها وكان درمويه مسيطراً عليها، فلما علم درمويه بفعل صاحب الزنج استأمن الموفق فأخاه فعاد أهل التجارات وسلوك السابلة[43].

(41) الطبري 3/ 1999.
(42) الطبري 3/ 2012.
(43) الطبري 3/ 2015.

الفصل الرابع

علي بن محمد

النسب والنشأة الأولى

تتفق المصادر على أن القائم بالحركة اسمه علي بن محمد غير أنها تختلف في تفاصيل نسبه. فيقول الطبري عن أصله وحياته الأولى «وكان اسمه ونسبه، فيما ذكر، علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه من عبد القيس وأمه قرة ابنة علي بن رجب بن محمد بن حكيم من بني أسد بن خزيمة، من ساكني قرية من قرى الري يقال لها ورزنين بها مولده ومنشؤه. فذكر أنه كان يقول حدثني محمد بن حكيم ويقصد جد أمه من أهل الكوفة، أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين، فلما قتل زيد هرب فلحق بالري فلجأ إلى ورزنين، فأقام بها وإن أبا أبيه عبد الرحيم رجل من عبد القيس، كان مولده بالطالقان، وأنه قدم العراق فأقام بها واشترى جارية سندية ولدها محمداً أباه فهو علي بن محمد هذا»[1].

وذكر نشوان بن سعيد «ومن الناس من يقول إنه دعيّ وإنه من أهل الري من قرية يقال لها ورزنين»[2]، ويقول المسعودي «وأكثر الناس يقول إنه

---

(1) تاريخ الطبري 3/ 1743، وانظر مروج الذهب 4/ 94.

(2) الحور العين 252.

دعيّ إلى أبي طالب وإنه من ورزنين[3].

وذكر ابن حزم أنه «علي بن محمد بن عبد الرحيم العبقي، وأنه ولد في قرية من قرى مرو اسمها ورزنين»[4] وهذه الرواية تطابق ما ذكره الطبري، ولم يذكر الطبري أو ابن حزم مصدرهما فيها.

وذكر البيروني «قيل إنه كان علي بن محمد بن عبد الرحيم من عبد القيس»[5] وقال ابن سعيد إنه كان عسيفاً أجيراً من عبد القيس»[6].

وقال ابن أبي الحديد «جمهور النسابين اتفقوا على أنه من عبد القيس»[7] ولم يسم ابن أبي الحديد أحداً من جمهور النسابين الذين قالوا بذلك.

ويذكر ابن عنبة «ويقال إنه كان ورزنياً وإنه أعدى هذا النسب العلوي»[8].

ولعل مرجع نسبته إلى عبد القيس إلى أنه بدأ دعوته في البحرين، وهي التي كان أغلب أهلها من عبد القيس الذين لا يعرف لهم مكان يقيمون فيه غيرها عند ظهور الإسلام، إلا أن ما يشكك في هذه الرواية أن المصادر لم تذكر أنه لقي في البحرين تأييداً خاصاً عن عبد القيس، ولا في البصرة، وإن كان أكثر مؤيديه الأولين من بني دارم وتميم.

النسب العلوي

ثبت علي بن محمد عند قدومه البحرين نسبه إلى العلويين، غير أنه

(3) مروج الذهب 4/ 108.
(4) جمهرة النسب 56.
(5) الآثار الباقية للبيروني 332.
(6) البداية والنهاية 11/ 72.
(7) شرح نهج البلاغة 2/ 311.
(8) عمدة الطالب، وابن عتبة 291.

ساق في ذلك روايتين غير متسقتين، فذكر أولاً أنه علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، ولما فشل في نشر دعوته في هجر وانتقل إلى البادية ادعى أنه حفيد يحيى بن عمر أبي الحسين المقتول بناحية الكوفة[9].

لم تذكر المصادر لعبيد الله بن العباس بن علي، أو لآبائه دوراً في الحوادث التي سجلتها المصادر، وذكر ابن حزم الحسين بن عبد الله، وهو أخو نفيسة أم علي والعباس ابني خالد بن يزيد وهما من خرج بدمشق على الدولة وحفيده عبيد الله بن الحسين الذي ولي مكة والمدينة للمأمون والفضل بن محمد بن عبد الله بن العباس بن الحسين الذي كان مع الحسين بن زيد، ومحمد بن حمزة بن عبيد الله وكان مع القرمطي[10].

العباس

الحسين العباس

نفيسة علي عبد الله

عبد الله محمد حمزة

الفضل مع الحسن بن يزيد محمد

علي

محمد

وذكر ابن حزم كذلك أن علي بن محمد «انتمى في بعض أوقاته إلى يحيى بن زيد»[11].

(9) تاريخ الطبري 3/ 1743

(10) جمهرة النسب 67.

(11) جمهرة النسب 56.

وذكر الطبري أنه عندما ظهر سنة 255 من فرات البصرة زعم أنه علي بن محمد أحمد بن علي بن عيسى ثم غير نسبه «فانتسب الخبيث إلى يحيى بن زيد بعد أخذه البصرة»[12]، وذكر جماعة من العلويين الذين كانوا بالبصرة إليه أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد[13].

وذكر مؤلف «العيون والحدائق»[14] وابن أبي الحديد[15] أنه ادعى أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد، وذكر البيروني أنه «علي بن محمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين»[16] ولعل حذفه أحمد من خطأ النساخ.

إن الزيدية تنسب إلى زيد بن علي الذي ادعى صاحب الزنج انتسابه إليه هي فرقة من أبرز أفكارها موقفها المعتدل من الخليفتين الأولين: أبي بكر وعمر، واعتقادها بشرعية استعمال القوة بوجه الحاكم الظالم. ولذلك كانت القوة المحركة لكثير من الثورات العلوية التي قامت في العهود العباسية الأولى بخاصة، وأيدت أفكارها أعداد كبيرة من المحدثين والفقهاء في العراق.

نشأ زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب في الحجاز، ثم قدم الكوفة وأعلن ثورته وقاتل معه عدد غير كبير من أهل الكوفة، ثم قضى الوالي الأموي يوسف بن عمر على ثورته وظفر به وصلبه في الكوفة، وكان لزيد أولاد أبرزهم يحيى وعيسى. وتابع ابنه يحيى الثورة في خراسان، ولكنه لم يفلح فقتله الأمويون وقضوا على حركته في الكوفة.

(12) تاريخ الطبري 3/ 1742.
(13) تاريخ الطبري 3/ 1855.
(14) العيون والحدائق 47.
(15) شرح نهج البلاغة 2/ 312.
(16) الآثار الباقية 332.

كان عيسى بن زيد، من أكثر من لقي من أهله ديناً وعلماً وربما أشدهم بصيرة في أمره وموهبة مع علم كثير[17]. نشأ في المدينة وأيد محمداً النفس الزكية في ثورته وكان أول من قاتل الجيش العباسي الذي أرسله المنصور بقيادة عيسى بن موسى للقضاء على ثورة محمد النفس الزكية[18]. فلما قضى على ثورة محمد النفس الزكية، ذهب عيسى إلى البصرة وانضم إلى إبراهيم أخي محمد في ثورته، غير أنه طلب أن يكون الأمر إليه ودعا الزيدية إلى نفسه فأجابوه وأبى البصريون ذلك، وقالوا لإبراهيم إن شئت أخرجناهم عنك من بلادنا فإن الأمر لك وما نعرف غيرك[19]. غير أن إبراهيم استطاع أن يحتفظ بعيسى معه، ولما تقدم إلى الكوفة جعله على ميمنته[20]، فلما تغلب المنصور على إبراهيم وقضى على حركته، هرب عيسى وتوارى وبذل المنصور والمهدي جهوداً عبثاً في إلقاء القبض عليه[21]، وتوفي في مخبئه الذي قضى فيه ثماني وعشرين سنة[22].

وكان لعيسى بن زيد ولدان هما أحمد وزيد، استسلما للمهدي فتبناهما، ثم توفي زيد، أما أحمد فظل في بغداد إلى أن قتل الأمين[23] و«كان عالماً ورعاً في أهله معروفاً في فضله»[24]. ويروى المهدي كان يجري عليه الرزق ورده إلى الحجاز، ثم استتر في أيام الرشيد وهرب إلى البصرة واختفى في العتيك، من الأزد[25].

(17) مقاتل الطالبين 207.
(18) مقاتل الطالبين 268، وانظر 278، 296، 405.
(19) مقاتل الطالبين 370، 405.
(20) مقاتل الطالبين 343، 406، 407.
(21) مقاتل الطالبين 420.
(22) جمهرة النسب لابن حزم 56.
(23) مقاتل الطالبين 423، 424، 427.
(24) مقاتل الطالبين 621.
(25) مقاتل الطالبين 621، جمهرة النسب 56.

كان علي بن أحمد بن عيسى بالبصرة حين أخذها صاحب الزنج، وخرج إليه ولقيه، وحينئذٍ ترك صاحب الزنج الانتساب إلى أحمد بن عيسى بن زيد وانتسب إلى يحيى بن زيد(26).

وولد علي بن أحمد أولاداً منهم محمد وولد محمد بن علي وكان مؤيداً لصاحب الزنج(27). وكان له من الأولاد يحيى وسلمان والفضل وكانوا بالبصرة، فلما قضي على حركة صاحب الزنج أخذوا وحبسوا في المطبق(28).

وأما علي بن زيد بن الحسين بن زيد فقد أقام بالكوفة ثم هرب إلى صاحب الزنج بالبصرة فقتله(29).

موقفه من العلويين

قصر علي بن محمد ادعاءه في انتمائه النسبي على العلوية دون أي جماعة أخرى تعنى بالرابطة النسبية، غير أنه لم يول أياً منهم منصباً متميزاً، ولا قربهم إليه كما أن كتب الفرق والعقائد لم تذكر انضمامه أو ميله إلى أي من فرق الشيعة ولا اهتمامه ببحث أمور العقائد، ولعله أدرك أن ادعاءه الانتماء إلى العلويين ييسر له قوة عند من يهتم بالأنساب ويدفع طعونهم دون أن ييسر لهم السيطرة على حركته وتوجيهها ولذلك لم يلق منهم حماساً في تأييده، كما أن تبديل ادعائه في الانتساب يدل على أنه عندما أعلن حركته لم تكن له مكانة مرموقة في الأسرة فلم يعتبر «علويته» أساسية في دعوته، كما أن العلويين لم يولوه تقديراً كبيراً أو يفخروا في انتمائهم إلى حركته.

لم تذكر المصادر زوجته، فذكر ابن عنبة أنه أعقب رجلين: يحيى

(26) جمهرة النسب 56

(27) جمهرة النسب 29.

(28) مقاتل الطالبيين 672.

(29) مقاتل الطالبيين 582.

وعبد الله الضرير، فأما يحيى فولده بدمشق وكان حفيده علي وأما علي بن محمد بن علي بن يحيى بمصر وزيد بن يحيى بن علي كان بمصر، وينسب هذا القول الشيخ أبو الحسن محمد بن أبي جعفر إلى الحسن علي بن محمد، غير أنه يشكك في هذه الرواية ويرجح أنه لم يبق له عقب إلا ولد كان يقيم بالأبلة[30].

ومما يؤيد أنه كان يدعي ارتباط نسبه بالعلويين دون غيرهم من المجموعات الأخرى المرتبطة بنسبه اتخاذه في ثورته الأعلام البيضاء وهو شعار العلويين آنذاك[31]. غير أنه لم يول هذا الانتساب أهمية كبيرة في حركته التي اعتمدت على الزنج والسودان وذوي الطموح الشخصي دون العقائد المذهبية أو الاهتمام بالنسب. ويذكر البيروني أن علي بن محمد لما ظهر بالبصرة كتب إليه زيد صاحب طبرستان (يسأله عن نسبه. . .) فأجابه «يعنيك من أمري ما عناني من أمرك والسلام»[32]. ويدل اضطراب المعلومات عن نسبه أنه لم تكن له مكانة مرموقة في الأوساط التي تولي الأنساب العربية أهمية فلم تقدم عن نسبه معلومات ثابتة، ولم يثر تبديل نسبه هولات.

كانت تصرفاته في الحكم بعيدة عما فعله معظم العلويين الذين يسرت لهم الظروف الحكم وكانت تصرفاته أقرب إلى مثل الخوارج، ولا سيما الأزارقة، ولهذا نسبه عدد من المؤلفين إلى الخوارج فقال المسعودي «كان يرى رأي الأزارقة من الخوارج لأن فعاله في قتل النساء والأطفال وغيرهم الشيخ الفاني وغيره من لا يستحق القتل يشهد بذلك عليه»[33]. وقال نشوان

(30) مقاتل الطالبيين 491.

(31) تاريخ الطبري 3/ 1785، 2054، وانظر عن ألوان الشعارات مقالنا المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي «ألوان الألبسة العربية».

(32) الآثار الباقية 332.

(33) مروج الذهب 4/ 108، 119.

الحميري «وكان علي بن محمد الذي يسمى علوي البصرة من الخوارج، وكان يرى رأي الأزارقة، قال البلخي وأفعاله في النساء والصبيان تدل على ذلك، قال وله خطبة يقول في أولها: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله: الله أكبر، ألا لا حكم الله. وكان يرى أن الذنوب كلها شرك»[34]. غير أن توجهاته المشابه بعضها لآراء الأزارقة لا يعني أنه كان منهم.

وذكر الأصبهاني أن علي بن محمد لما ظهر بالبصرة «خرج إليه علي بن زيد ومعه جماعة من الطالبيين منهم محمد بن القاسم بن حمزة بن الحسن بن علي بن عبد الله بن العباس بن أبي طالب، وابن أخيه طاهر بن أحمد فلما تبين علي بن زيد أمره ودعوته وما هو عليه: كان يستميل قواده، ويعرفهم خبره، فدعا به الاثنين الأخوين فضرب أعناقهم[35]».

وذكر ابن حزم أن علي بن زيد هرب إلى صاحب الزنج بالبصرة[36] فقتل وكان محمد بن عبد الله بن القاسم بن حمزة أخذ في أيام علي بن محمد صاحب البصرة، فحبس ومات في خلافة المعتضد من حبسه[37] أما محمد بن حمزة فقد قتله محمد بن طغج[38].

ولا بد من التميز بين حمزة المذكور وحمزة بن عبد الله بن الحسين الذي خرج حفيده الحسين بن محمد إلى الكوفة بعد يحيى بن عمر، ثم استسلم وعاود محاولة الخروج فسجن، ثم أطلق سراحه ثم عاد إلى الثورة سنة 269 فحبس ومات في سجنه سنة 271.

فأما علي بن زيد بن الحسين بن زيد بن علي، فقد خرج من الكوفة،

---

(34) الحور العين 201، وفي خطبة قائده علي بن أبان المهلبي انظر مروج الذهب 4/ 119.
(35) مقاتل الطالبيين 676-7.
(36) جمهرة النسب 58.
(37) مقاتل الطالبيين 494.
(38) مقاتل الطالبيين 700.

وبايعه نفر من عوامها وأعرابها، ولم يكن للزيدية وأهل الفضل والوجوه هوى فيه، ففشل في خروجه، فلما ظهر صاحب الزنج بالبصرة خرج علي بن زيد بن علي كما ذكرنا[39].

وقال ابن عتبة أن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين، ويسميه «أحمد المختفي» أعقب رجلين، محمداً المكتمل وعلياً، وأنه «أعقب محمد بن أحمد المختفي» و«علي بن محمد الذي أعقب رجلين: يحيى وعبد الله الضرير فأما يحيى بن علي بن محمد بن أحمد فولده بدمشق منهم علي بن محمد بن علي بن يحيى بن علي المذكور كان بدمشق.

وأما عبد الله الضرير بن علي بن محمد بن أحمد المختفي فمن ولده الحسين بن عبد الله له عقب ببغداد وأحمد بن عبد الله يلقب القمص له عقب ببغداد منهم محمد بن أحمد بن حمزة بن عبد الله المذكور[40]. وقال «هذا ما ذكره النسابون مثل شيخ الشرف أبي الحسن محمد بن أبي جعفر العبدلي وأبي الحسن علي بن محمد العمري. وزعم قوم آخرون منهم برية وأبو الحسن بن كتنة أنه صحيح النسب من آل أبي طالب، وقال الشيخ أبو علي أحمد بن مسكويه في كتابه «تجارب الأمم» سمعت جماعة من آل أبي طالب يذكرون أنه علوي صحيح النسب في آل أبي طالب، وكان هذا الرجل يدعي أنه علي بن محمد بن أحمد المختفي».

نشأته وسيرته الأولى

يقول الذهبي إن علي بن محمد قضى أول نشأته في الري، وتعلم علومه الأولى فيها، ولم يدع أحداً عنده علم بالري حتى خالطهم، ثم غادر الري إثر خلاف أبيه مع أمه وانفصالهما. وتوجه إلى خراسان وغاب سنتين

(39) مقاتل الطالبيين 675-7.

(40) أعمدة الطالب ابن عتبة 293.

أو ثلاث ثم عاد وأقام مدينة فيها (الري). ثم غاب الخرجة التي خرج منها[41].

ويقول ابن عراق «أصله من البصرة، وبها قرأ وتأدب، وكان يُعلِّم القرآن والأدب لبعض أبنائها إلى أن كان من أمره ما كان»[42] وهذا القول يشير إلى أن أصله من البصرة ولا ينص بالتحديد على أنه ولد فيها: بل ينص على أنه كان فيها إبان صباه، وفيها قرأ وتأدب وأنه كان يعلم القرآن لبعض أبنائها، وهو كلام يوحي بأنه قضى في نشأته الأولى ردحاً من الزمن بالبصرة فتعلم ثم أخذ يعلم فيها. فكأنه ظل مقيماً في صباه وأول شبابه في البصرة، ويقتصر في كلامه بعد ذلك على أن كان من أمره ما كان دون أن يوضح هذا الأمر الذي كان له، وقد تكون إقامته في البصرة بعد أن جاءها من الري.

وذكر نشوان بن سعيد أن صاحب الزنج «ذهب إلى البصرة وبها قرأ وتأدب، وكان يعلم القرآن والأدب لبعض أبنائها[43] وهذا الكلام يشبه كلام ابن عراق، فكأن النصين من مصدر واحد، وينطبق عليه ما ذكرناه أعلاه عن كلام ابن عراق.

أشارت الأخبار إلى أن علي بن محمد أقام في سامراء دون أن تحدد زمن إقامته فيها، ويبدو أنه توجه إليها. بعد مقامه في البحرين، وكانت أحوال الخلافة العباسية في سامراء تمر باضطراب أدى إلى تدني هيبة الخلافة وتفكك الإدارة، وصراع على المناصب العليا التي تعتمد عليها الخلافة، وبروز رجال ليست لهم جذور عميقة في النسب، أو كفاءة فكرية بالإضافة

---

(41) تاريخ الإسلام 13/ 38.

(42) ابن عراق 39. وذكر ابن الحديد أن صاحب الزنج كان «يعلم الصبيان الخط والشعر والنجوم (شرح نهج البلاغة 2/ 311) ولكنه لم يحدد ذلك في البصرة.

(43) الحور العين.

إلى أنهم متصارعون مفككون. وفي خلال هذه المدة القصيرة قتل عدد من الخلفاء، وحدثت منازعات بين قادة الجيش، وظهر عدد من المنتزين الذين يسعى كل منهم إلى «الاستقلال» والهيمنة على المنطقة التي يستطيع مد سلطانه عليها، بغض النظر عن أصوله العرقية أو مستواه الفكري أو توجهاته العقائدية. ولا شك في أن هذه الأحوال أثرت في توجهاته، وحملته على عدم الاقتصار على نظم الشعر للتكسب من أصحاب سلطة غير مستقرة لهم. ولعل هذه الأحوال حملته على توجه جديد نحو الطموح السياسي بغضّ النظر عن الأفكار التي يرى تطبيقها أو العقائد المذهبية التي يرى نشرها. فالأساس عنده هو الطموح السياسي دون التوجهات القديمة التي تتحكم فيه.

روى الطبري أن علي بن محمد، «كان متصلاً قبل بجماعة من آل المنتصر منهم غانم الشطرنجي وسعيد الصغير، ويسر الخادم، وكان منهم معاشه ومن قوم من أصحاب السلطان وكتابه، يمنحهم ويستميحهم بشعره»[44]. ويروي المرزباني أن مما نظمه علي بن محمد قصيدة يقول في أحد أبياتها:

لهف نفسي على بغداد وما حوته من كل عاثر[45]

إن هذا البيت يدل على أنه قضى أمداً من حياته ببغداد واستاء من الأحوال فيها. ويقول الحصري إن له في هذا المعنى شعراً كثيراً نقضه البغداديون[46]، وكثرة هذا الشعر قد تدل على أنه قضى في بغداد أمداً أحنك خلالها بأدبائها وأثار حفيظة عدد منهم فنقضوا شعره في ذم بغداد ولعل ذلك كان قبل انتقاله إلى سامراء وأنه فيها تعرف بالحسن بن سهل. ووردت معلومات تشير إلى صلته بأطراف الحسن بن سهل، فقد انضم إليه ابنه

(44) الطبري 3/ 1743.
(45) معجم الشعراء للمرزباني 148.
(46) زهر الآداب 188.

محمد بن الحسن الملقب بشيلمة الذي ألّف عن حركته كتاباً كان المصدر الأساسي الذي اعتمده الطبري في ما أورده عن حوادث حركته وخصوصاً بعد عودته من بغداد وإقامته في برنخل حيث بدأت اتصالاته بالزنج وعمال الأرض وما تلى ذلك من نشاطات إلى أن تم القضاء على حركته، وقد يدل هذا على أن شيلمة ظل ملازماً لصاحب الزنج ولم يتخل عنه إلا في آخر مراحل حركته فاستسلم للقوات العباسية ولقي ترحيباً من السلطات العباسية، شأن كثير من رجال صاحب الزنج الذين انشقوا عليه.

وفي الروايات خبر يعزز صلة صاحب الزنج بالحسن بن سهل، فذكر ابن حزم أن «سعيد بن ضمضم أعرابي شاعر من صحابة الوزير الحسن بن سهل، وكان له ابن اسمه أبو المهدي وكانت له ابنة تزوجها صاحب الزنج فولدت له»[47]. إن هذا الخبر، مع اجتلاب شيلمة، يظهر أن صاحب الزنج اتصل بذوي المكانة من آل الحسن بن سهل الذي ولي بغداد في أول خلافة المأمون، وقام بقمع الثورات في أطرافها، وعزز مكانة الحسن بن سهل عند المأمون أن الأخير اتخذ مقامه في بغداد في قصر الحسن أو إنه تزوج ابنته بوران وهي صغيرة السن، وبذخ في حفل زواجه بها من أم العروس والمأمون مما صار مضرب المثل. ولم تذكر الروايات أن الحسن بن سهل كانت له طموحات سياسية خاصة أو اتصالات بالجماعات والكتل المعنية بأمور السلطة والحكم. فاتصال شيلمة بصاحب الزنج هو مظهر طموح فردي ولا شك في أنه تم عند مجيء صاحب الزنج بغداد بعد فشله في البحرين والبصرة.

ذكرنا من قبل أن علي بن محمد تزوج ابنة سعيد بن ضمضم وولدت له ولم تذكر المصادر له زوجة غيرها ويقول ابن حزم أن لصاحب الزنج من الذكور محمداً ويحيى وسليمان والفضل فأما محمد فولد له قديماً قبل قيامه

(47) جمهرة النسب 282.

بالبصرة وصلبه المؤيد الموفق. بعد قتل أبيه لعنهما الله بعامين وهم صبيان أما يحيى وسليمان والفضل فولدوا بعد قيامه بالبصرة فلما قتل حبسوا بالمطبق فلم يزالوا فيه إلى أن ماتوا. ولصاحب الزنج ابنتان زوج إحداهما من علي بن أبان المهلبي صاحبه، وإن له ابناً استعبده الموفق وسماه نشيطاً وولاه الولايات، وآخر ما ولاه البصرة، فقتل بها أيام دخول القرامطة، وكان محمود الطريقة.

وكانت له ابنة ثانية زوجها من سليمان بن جامع صاحبه، وكان سليمان هذا عبداً أسود لرجل من أهل هجر، فصحبه وشهد حروبه، وعلت حاله عنده، ثم أخذ هو والمهلبي وأخو المهلبي والخليل بن أبان، وصلبوا ثلاثتهم المذكور وكان محمد المذكور يلقب أنكلاي، ومعناه بالزنجية ابن الملك[48].

ثقافتــه

الشعر

كان الشعر أبرز ما تميز به صاحب الزنج، وقد أطراه عدد من المعنيين بالشعر، ونقل عدد من المؤلفين له أبياتاً وقصائد، وممن أطرى شعره الصولي فقال عنه «له شعر حسن»[49] وقال ابن الجراح «له حظ من الأدب»[50] وقال التنوخي «وجدت كتاباً قد جمع فيه شعر صاحب الزنج[51]»، وقال الحصري إن له في ذم بغداد شعر نقضه البغداديون»[52] وقال محمد بن عبد المنعم الحميري «لصاحب الزنج أشعار أكثرها في القتال ووجوب القيام لإزالة الظلم وتغييره»[53] وقال الصفدي إن صاحب الزنج أحد الأدباء

(48) جمهرة النسب 57.

(49) ....

(50) الورقة

(51) مشوار المحاضرة 5/ 92، 98-99.

(52) زهر الأداب 1/ 198.

(53) الروض المعطار 108.

المتقدمين في الآداب والأخبار والشعر والتاريخ[54]. وروى له نشوان الحميري ستة أبيات[55].

وذكر ابن عنبة أن صاحب الزنج «مع شدة قلبه وقوة نفسه فصيح اللسان، شاعر أنشدني له النقيب تاج الدين[56].

وقد ذكر شعره أو نقل منه كل من النهروالي في الجليس الصالح 1/ 75، والقالي في الأمالي 1/ 43 وأبي حيان التوحيدي في البصائر والذخائر 4/ 66 والزمخشري في ربيع الأبرار 358 والأبشيهي في المستطرف 1/ 232 وابن حمدون في التذكرة 2/ 431 ـ 2 وابن الطقطقي في الصخري 81 والحصري في زهر الآداب 98.

ذكر ابن عنبة أن صاحب الزنج «له ديوان مفرد ورأيت كثيراً من نسخه، وقد نحل كثيراً من شعر علي بن محمد الحماني[57]، ووصف ابن عنبة الحماني (ص301) بأنه شاعر فحل من شعراء الطالبيين. وهو علوي من أهل الكوفة، نسب إلى بني حمان لأنه سكن محلتهم، وله قصائد يهاجم بها صاحب الزنج[58]، وله ديوان شعر منه قطع في مخطوطة بباريس برقم 5982.

نشر محمد حسن الأعرجي مجموعة من شعره في مجلة المورد (م3 ج2 ص199 ـ 200، 1974). ونشر أحمد جاسم النجدي أشعار صاحب الزنج في رسالته غير المنشورة في الشعر للشعراء في البصرة في القرن الثالث الهجري، ونشر عنه بحثاً في مجلة المورد ج3 ص67 ـ 174 سنة 1974.

---

(54) الوافي بالوفيات 9.

(55) الحور العين 202، وروى ابن أبي الحديد بقية أبيات من شعره. شرح نهج البلاغة 2/ 311.

(56) عمدة الطالب 293.

(57) عمدة الطالب 293.

(58) عمدة الطالب 300.

لم تذكر المصادر لصاحب الزنج اهتماماً بعلوم الأولين من الرياضيات وفروعها والطب وما يتصل به والفلسفة وما تشمله بل أشارت إلى اهتمامه بالغيبيات وما يتصل بها فذكر الرازي أنه «صاحب دعاوى ونيرنجات وشبه مخاريق»[59] وذكر مؤلف العيون والحدائق أنه كان «يعرف طرفاً من النجوم»[60] وذكر ابن أبي الحديد «أنه كان يتعاطى النجم والسحر والإسطرلاب[61].

وذكر الطبري أن صاحب الزنج كان قد نظر في حساب النجوم ووقف على انكساف القمر وأنه دعى الله في تعجيل خرابها (يعني البصرة) وقال وإنما البصرة خبزة لك تأكلها من جانبها، فإذا انكسر الرغيف خربت البصرة[62]. وقال إن صاحب الزنج غداة اليوم الذي دخل فيه أصحاب البصرة دعى على أهل البصرة وقال اجتهدت في الدعاء وسجدت، وجعلت أدعو في سجودي فرفعت إلى البصرة، فتراءى بين السماء والأرض رجلٌ واقف في الهواء أرفق صوته قائم قد خفض يده اليسرى ورفع يده اليمنى، يريد قلب البصرة بأهلها، فعلمت أن الملائكة تولت إخراجها دون أصحابي.. وإن الملائكة لتنصرني وتؤيدني في حرب، وتثبت من ضيق قلبه من أصحابي[63].

ولما بدأ دعوته وتجمع حوله بعض العبيد قال لهم إنه «لم يخرج لغرض من أغراض الدنيا وما خرج إلا غضباً لله ولما يجري عليه الناس من الفساد في البر[64].

---

(59) الزينة 292.

(60) العيون والحدائق .

(61) شرح نهج البلاغة 2/ 60.

(62) الطبري 3/ 1481.

(63) الطبري 3/ 1857.

(64) الطبري 3/ 1757.

يروي الطبري أن صاحب الزنج ادعى الغيبيات وذكر عنه أنه كان يقول «أوتيت في تلك الأيام (عندما كان يتنقل في البادية)، آيات من آيات إمامتي ظاهرة للناس»، منها أنه قال: «إني لقيت سوراً من القرآن لا أحفظها، فجرى بها لسان على ساعة واحدة، منها سبحان والكهف وص»، وقال ومن ذلك أني ألقيت نفسي على فراشي فجعلت أنكر في الموقع الذي أقصد له وأجعل مقامي به، إذ نبّت بي البادية، وضقت بسوء طاعة أهلها فأظلتني سحابة، فرقت ورعبت واتصل صوت الرعد منها بسمعي فخوطبت فيه فقيل: أقصد البصرة، فقلت لأصحابي وهم يكنفوني إني أمرت بصوت هذا الرعد بالمصير إلى البصرة»[65].

ويذكر أنه في سنة مقامه في بغداد ظهرت له بها آيات وعرف ما في ضمائر أصحابه وما يغفله كل واحد منهم وأنه سأل ربه أن يعلم حقيقة أمره فرأى كتاباً يكتب له وهو ينظر إلى حقيقة ولا يرى شخص كاتبه[66].

لم تذكر المصادر ادعاء علي بن محمد النبوة، ولم تذكره بمن ذكرت من المتنبين الذين يذكرون في معرض الذم. ولم يدع الحلولية أو المهدوية أو الخلافة، بل تحدى سلطانها وأراد أن يحكم دون الحصول على موافقتها، فهو ناجم... نابز... في الدولة التي كانت أرض الخلفاء فيها قلقة غير مستقرة.

الاتجاهات العامة في سياسته

لم يصلنا كتاب أو منشور أصدره، بل وصلتنا أقوال قليلة منسوبة إليه تظهر محاولته إسباغ سمة الإلهام الديني عليه دون أن يدعي النبوة أو نزول وحي عليه، كالذي فعله عدد ممن ادعوا النبوة.

(65) الطبري 3/ 1744.

(66) الطبري 3/ 1746.

ولم تذكر المصادر الامتيازات التي أغدقها على أتباعه سوى تحرير الأرقاء منهم وتخليص العمال من الأعمال المرهقة التي كانوا يقومون بها دون أي إشارة إلى من يعوضهم للقيام بتلك الأعمال التي وإن كانت مرهقة للقائمين بها، فإنها ضرورية لإعمار الأرض وازدهار الزراعة التي مردودها للملاكين وللمجتمع الذي يعتمد عليها في كثير من أسباب معاشه.

وردت معلومات تدل على معاملته العنيفة لأهل المدن القليلة التي استولى عليها، فقد اقتصر على تحرير الأرقاء، ولم يكن عددهم كبيراً في المدن ولا كانت أحوالهم المعاشية تشبه في سوئها أحوال عمال الأرض، وخصوصاً من يعمل في استصلاحها بكسح السباخ والأعمال الشاقة. ولم ترد إشارة إلى نجاحه في جلب أهل المدن إلى جانبه أو تأييدهم في التأليب على السلطة الحاكمة.

ذكر حمزة الأصفهاني في كتابه «تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء» الأحداث المدمرة التي تعرض لها الشرق، ولكنه لم يشر إلى أحداث حركة صاحب الزنج، واقتصر من أحداث المنطقة إبان الحركة على ذكر وباء ظهر سنة 258 في الأهواز والعراق «وكان انتشاره من جانب عسكر مكرم فمر منها طولاً إلى قرقيسيا من كورة الفرات وعرضاً إلى حلوان وحدودها فيدم من صحراء العرب...»[67].

أما اليعقوبي فاقتصر في كتابه «التاريخ» على بضعة أسطر فقال «وزحف الخارج بالبصرة المدعي إلى آل أبي طالب واسمه علي بن محمد إلى الإبلة فنهبها وأخربها وأحرقها بالنار، وتوجه إليه سعيد بن صالح فواقعه بنهر أبي الخصيب»[68] وقال في مكان آخر «وفي هذه السنة (257) دخل المدعي

---

(67) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء 145-6.

(68) تاريخ اليعقوبي 3/ 229.

البصري ونهب وحرق المسجد الجامع وتوجه إليه رجل من الأتراك يقال له محمد المولد، فلما بلغه الخبر انصرف ولم يلقه، ثم ذكر خبر الوباء الذي وقع في العراق»[69].

(69) تاريخ اليعقوبي 3/ 231.

الفصل الخامس

المحاولات الأولى في البحرين

لما عزم علي بن محمد على القيام بدعوته كان أول توجهه إلى البحرين[1]، وهو إقليم يمتد على أواسط الساحل الغربي من الخليج العربي، وتتوافر فيه بعض الينابيع والنهيرات التي تروي المزروعات وخصوصاً النخيل والحبوب، غير أن وقوعه على البحر جعله من أكبر قواعد الملاحة للسفن التجارية، وكانت للساسانيين في الخط قاعدة لأسطولهم، وأغلب سكانها من عبد القيس وبكر وتميم، وأبرز مدنه هجر والزارة وجواثا، وقد انضم حاكمها العربي المنذر بن ساوى إلى الإسلام تلقائياً وقضى أبو بكر على مقاومة من عارض امتداد دولة الإسلام إلى البحرين، وشارك عرب البحرين في فتوح إقليم فارس بخاصة.

هاجرت أعداد من أهل البحرين إلى البصرة خصوصاً حيث كوّنوا أحد أخماسها، كما هاجر بعضهم إلى الكوفة، وانضم بعضهم إلى الخوارج، وكانت في العهد الأموي من أبرز المراكز التي اعتمد عليها الخوارج في حركتهم التي امتدت في بعض الفترات إلى الأطراف الجنوبية من العراق، ثم قضى الأمويون على حركتهم بعد جهود عسكرية مضنية، وانحسرت حركة

---

(1) انظر عن أحوال البحرين «البحرين في العهود الإسلامية الأولى» لعبد الرحمن العاني. وانظر ما كتبناه عنها في كتابنا «الدولة في عهد الرسول ﷺ».

الخوارج إلى الجزيرة الفراتية وساد الهدوء البحرين، فلم يرد ذكر حركة معارضة فيها إلى أن توجه إليها علي بن محمد.

كان أول توجه علي بن محمد إلى البحرين التي لم تعرف بكونها مركزاً لنشاط علوي، ولعل اختياره لها للقيام بحركته هو إدراكه بعدها عن مركز الخلافة، واستعداد أهلها للاستجابة للدعوات المناهضة لسلطان الدولة.

ذكر الطبري تحرك علي بن محمد الأول إلى البحرين فقال إنه «أشخص فيما ذكر من سامراء سنة 249 إلى البحرين، فادعى أنه علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، ودعى الناس بهجر إلى طاعته، واتبعه جماعة كثيرة من أهلها، واتبعته جماعة أخرى، وكانت بسببه بين الذين اتبعوه والذين أبوه عصبية قتلت بينهم جماعة فانتقل عنهم لما حدث ذلك إلى الأحساء، وضوى إلى حي من تميم ثم من بني سعد يقال لهم بنو الشماس، فكان بينهم مقامه. وقد كان أهل البحرين أحلوه من أنفسهم محل النبي، فيما ذكر، حتى جبي له الخراج هنالك ونفذ حكمه بينهم، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه ووتر منهم جماعة كثيرة، فتنكروا له، فتحول عنهم إلى البادية»[2].

لم تشر المصادر إلى أي اتصال مسبق عرقي أو بشري أو فكري بين علي بن محمد وأهل البحرين الذين وقع عليهم أول اختياره لنشر دعوته وإقامة سلطانه، ولعل بعض أسباب هذا الاختبار هو إدراكه بالبصيرة أحوال البحرين الملائمة لما يريد، فموقعها ناح عن مركز الخلافة في بغداد وسامراء وعن المناطق التي تعرضت لحركات الأفكار والفرق التي نشطت ولقيت غير قليل من النجاح والفشل، وخصوصاً أقاليم الجبال وخراسان في المشرق، والجزيرة الفراتية والكوفة والحجاز. ولم تقم فيها بعد القضاء على حركات الخوارج أي حركة ثورية سياسية أو عقائدية إلى أن جاءها علي بن محمد.

(2) الطبري 3/ 1743-4؟

ارتكز علي بن محمد في دعوته بالبحرين على النسب والغيبيات، حيث أبرز ارتباطه في النسب بالعلويين، وهم بجانب العباسيين أقوى الجماعات التي تفخر برفعة نسبها. علماً بأن البحرين لم تعرف بكونها من مراكز الفرق العلوية، وأما الغيبيات، فهي تجلب العامة والجماهير أكثر من أي أسلوب آخر فقد احتفظ باعتداده بالنسب، ولكنه لم يردد بعد البحرين الغيبيات ولم تشر المصادر إلى الأساليب الدعائية في إقناع الناس للانضمام إليه، أو العوامل الاجتماعية والمعاشية التي مهدت له ضمهم إليه. وتشير الأسماء القليلة التي ذكرت المصادر انضمامها إليه أنهم من «الطبقة الوسطى لا العليا ولا المنبوذة» وإن تميماً موالٍ مرتبطون بالعرب، فليس في دعوته مظهر لشعوبية أعجمية حاقدة على العرب أو محاولة لإذكائها، بل دعوته تنسجم مع التوجه الإسلامي العام الذي تتسم به حركات الفرق التي ظهرت في الهلال الخصيب والجزيرة.

اتخذ علي بن محمد مقامه في هجر وهي أكبر مركز حضري في البحرين وإن كانت بمستوى أقل من الأمصار المشهورة في صدر الإسلام، فلم يكن يوزع على أهلها الرزق والعطاء، ولم يظهر فيها علماء مبرزون، وكان أكثر سكانها من عبد القيس وتميم وبكر ولعل أعداداً منهم أسهمت في الملاحة والتجارة البحرية.

تمسك علي بن محمد بانتسابه إلى العلويين، وادعى أنه من نسل العباس بن علي بن أبي طالب الذي لم يظهر من نسله رجال بارزون أسهموا في الحركات العلوية والزيدية، ولم يعرف عن هجر والبحرين أنها كانت مركزاً استوطنه العلوية، أو كان لهم فيها أنصار، فانتسابه للعلويين هو إظهار لعروبة دمه، وليس لجلب الأنصار.

لم تذكر المصادر ما استند إليه في دعوته التي لم تقم على الأسس القبلية، ولا ذكر أنها قامت على مبادىء اقتصادية أو اجتماعية، علماً بأن

الطموح الشخصي يتطلب في بداياته آراء تقنع الناس بالانضمام إليه ولا سيما أنه غريب عن المنطقة ودخيل عليها.

أحرز علي بن محمد في دعوته نجاحاً أولياً بالرغم من فقدان صلته النسبية مع أهلها، وعدم وجود تمهيد مسبق لها أو أي صلة بالتيارات العرقية والسياسية التي كانت قائمة في العالم الإسلامي عموماً، والمناطق المجاورة، ولا شك في أن من عوامل هذا النجاح عرضه أفكاراً تتعلق بالأحوال القائمة في المنطقة، ومقترحات لإزاحة مساوىء لم تذكرها المصادر، بل كانت سبب تذمر فريق من السكان، وكان توجهه العام ضد السلطة القائمة، وليس ضد فريق من أهلها، أي إنها كانت موجهة ضد سياسة الحكام المسيطرين وليست محلة تسند فريقاً على آخر. وقد عبر عن ذلك الطبري بقوله «واتبعه جماعة كثيرة من أهلها، وكان أهل البحرين أحلوه من أنفسهم محل النبي، فيما ذكر، حتى جبي له الخراج هنالك ونفذ حكمه بينهم، وقاتلوا أسباب السلطان بسببه»[3]. إن قول الطبري إنهم أحلوه من أنفسهم محل النبي يشير إلى أنه نشر دعوة ذات سمة دينية، وليس مجرد نقد للأحوال المادية. وإن اتباع جماعة كثيرة من أهلها له يشير إلى مدى انتصاره مما مكنه أن يجبى له الخراج وينفذ حكمه بينهم ويقاتلوا أسباب السلطان بسببه، وهذا يدل مع احتمال ما فيه من مبالغة، إلى قوة فاعليته ليحرز مثل هذه الانتصارات خلال هذا الوقت القصير، وأنه كان معنياً بمعالجة الأحوال المادية القائمة أكثر منه في نشر توجهات عقائدية.

كانت هذه النجاحات سطحية محدودة وغير شاملة، أو كاملة، فقد أثارت عليه جماعة أبته ونفرت منه فتنكروا له وتغلبوا على أنصاره سلمياً ومن دون قتال. ولعل هؤلاء المتنكرين استفزهم تحديه لمصالحهم وللسلطان الذي يستمدونه من الخلافة ومن المبادىء المقررة في احترام صاحب

(3) الطبري 3/ 1744.

السلطان، وعدم جواز قيام «ثورات» محلية تقف في المدى البعيد بوجه السلطان الأعلى، فيمكن القول بأن نشاطه في هجر كان محلياً، وأنه اهتم بالأحوال الإدارية وركز على مكانته الشخصية دون محاولة نشر أفكار عقائدية.

غير أن فشل علي بن محمد في هجر لم يكن حاسماً، فقد ظل عدد منهم مرتبطاً به ملازماً له. ومنهم موليان لعشائر تميمية هما يحيى بن محمد البحراني مولى بني دارم، وهي عشيرة تميمية مرموقة، وسليمان بن جامع مولى بني حنظلة، وقد يدل هذا على أن دعوته تلقت استجابة من الموالي، وأنها لم تنحصر في بني تميم، وقد احتفظ بعلاقته الوثيقة بهذين الرجلين، فلما وسع حركته في البصرة أسند إليهما مناصب عسكرية رئيسية، فكان سليمان بن جامع أكبر قواده، وظل معه إلى أن انهارت مقاومته، أما يحيى بن محمد فتولى قيادة أساسية إلى أن قتل في إحدى المعارك.

لم يصل الفشل الذي لقيه حد توليد اليأس في نفسه، فقد تابع نشاطه وادعى ارتباطه بيحيى بن عمر بن الحسين، ولعله في هذه المدة انتقل إلى الأحساء وأقام بين بني الشماس، وهم حي من بني سعد من تميم، واستطاع أن يجمع جماعة كبيرة وزحف بهم إلى الردم، غير أن أهل البحرين حاربوه وفتكوا بأصحابه، فتفرقت عنه العرب وتجنبت صحبته، وكرهته، ولعل مرجع ذلك تصرف مستهجن قام به لم تذكره المصادر، أو النفور منه وكرهه الذي لم ينحصر بفئة محددة، بل كان واسعاً.

الانتقال إلى البادية

لما فشل علي بن محمد في الأحساء انتقل إلى البادية وكان ذلك أول اتصاله بأهلها وبالأعراب، وانتقل معه إلى البادية جماعة من أهل البحرين منهم محمد بن يحيى البحراني مولى بني دارم وسليمان بن جامع مولى بني حنظلة «ثم كان ينتقل في البادية من حي إلى حي، وادعى إبان ذلك أنه

أوحى آيات من آيات إمامته» وأوهم أهل البادية «فادعى أنه يحيى بن علي وأبو الحسين المقتول بالكوفة، فاختدع بذلك قوماً منهم حتى اجتمع بها منهم جماعة كثيرة، فزحف بهم إلى موضع بالبحرين يقال له الردم» غير أن أهل البحرين قاتلوه في معركة اندحر فيها وقتل عدد من أعوانه «فنفرت عنه العرب وكرهته، وتجنبت صحبته، فلما تفرقت عنه العرب، ونبت به البادية، شخص منها إلى البصرة. ولعل من أسباب نجاح دعوته في البدو ضحالة تفكيرهم وميلهم إلى تصديق الغيبيات دون التأكد من مدى صحتها»(4).

لم يذكر الطبري الأحياء التي تنقّل بينها في البادية وكان انتصاره في الردم آخر صلته بالبادية التي يظهر أن ما لاقاه من فشل فيها حمله على عدم تكرار المحاولة، وتوجه بعدها إلى البصرة.

لم يفكر علي بن محمد بعد فشله اليائس في البحرين بغير البصرة مكاناً لدعوته، وادعى أن اختيار البصرة جاءه بطريق الإلهام ومهما تكن صحة مدعاه، فلا بد أنه أدرك ما في أحوال البصرة من خصائص تيسر له هذه الدعوة، وكانت البصرة شأن أكثر الأقطار الأولى أغلب سكانها العرب الذين باعدهم طول الاستقرار فيها عن السمات البدوية ونقلهم إلى حياة حضرية تختلف عن حياة البدو ومظاهرها الأساسية في الحياة والمعاملات والتفكير.

روى الطبري أن علي بن محمد، لما شخص إلى البصرة نزل بها في بني ضبيعة، فاتبعه بها جماعة، منهم علي بن أبان المعروف بالمهلبي، وأخواه محمد والخليل وغيرهم، وكان قدومه البصرة في سنة 254. وكان محمد بن رجاء الحضاري عامل السلطان بها، ووافق ذلك فتنة أهل البصرة، لبلالية والسعدية، فطمع في أحد الفريقين الناميين إليه، فأمر أربعة نفر من أصحابه فخرجوا بمسجد عباد، أحدهم يسمى محمد بن سليم القصاب الهجري، والآخر بريش القريعي والثالث علي الضراب، والرابع الحسين

(4) الطبري 3/ 1744-25.

الصيدناني، وهم الذين كانوا صحبوه بالبحرين فدعوا إليه فلم يجبه من أهل البلد أحد، وثاب إليهم الجند فتفرقوا ولم يظفر بأحد منهم، فخرج من البصرة هارباً فطلبه ابن رجاء فلم يقدر عليه، وأخبر ابن رجاء بميل جماعة من أهل البصرة إليه فأخذهم فحبسهم فكان فيمن حبس يحيى بن أبي ثعلب، ومحمد بن الحسن الإيادي، وابن الأكبر لصاحب الزنج وزوجته أم ابنه ومعها ابنة له، فحبسهم ومضى هو لوجهه يريد بغداد، ومعه من أصحابه محمد بن سلم ويحيى بن محمد وسليمان بن جامع وبريش القريعي، فلما صاروا بالبطيحة نذر بهم بعض موالي الباهليين ورجل كان يلي أمر البطيحة يقال له عمير بن عمار، فأخذهم وحملهم إلى محمد بن أبي عون، وهو عامل السلطان بواسط فاحتال لابن أبي عون حتى تخلص هو وأصحابه من طريقه. وصار إلى مدينة السلام فأقام بها حولاً"[5].

ذكر الطبري في هذا النص معلمين خطبين، أحدهما بنو ضبيعة حيث نزل بهم علي بن محمد عند قدومه البصرة، والثاني مسجد عباد حيث أرسل أربعة من أتباعه يدعون الناس للانضمام إليه.

فأما بنو ضبيعة فهي من محال البصرة سميت بعشيرة ضبيعة التي نزلتها، وهي إحدى عشائر بكر ذكرت في العصيان الذي كان قريب زحاف الخارجيين في زمن ولاية زياد في خلافة معاوية، وكانا قد ظهرا في بني يشكر ثم مرا بها ثم تفرقا في عشائر الأزد[6]. والمرجح أنها تقع في الأطراف الجنوبية الشرقية من البصرة، ولم ترد إشارة إلى خصائص موقعها[7].

أما مسجد عباد فإن البلاذري يذكر "مسجد بني عباد بن رضاء بن الأشعر التميمي"[8] ويذكر ابن عنبة أن مسجد عباد منسوب إلى عباد بن

---

(5) الطبري 1/ 1745-6.

(6) تاريخ خليفة 209 ، تاريخ الطبري 2/ 91.

(7) انظر كتابنا "خطط البصرة ومنطقتها 94".

(8) فتوح البلدان 253.

منصور القاضي[9] وهو من قضاة البصرة، وليها بضع مرات في آخر خلافة الأمويين وفي زمن أبي جعفر[10]، وكان قبل ذلك على قضاء اليمامة[11]، وامتدحه وكيع[12] ولم تحدد المصادر موقع هذا المسجد، وسبب اختيار هذا الجامع لبث الدعوة.

ذكر الطبري أن علي بن محمد عندما نزل في بني ضبيعة اتبعه بها جماعة منهم علي بن أبان المعروف بالمهلبي، وأخواه محمد والخليل، وغيرهم. ولم يوضح الطبري ما كان يدعو إليه صاحب الزنج ولا عدد وتوجهات الآخرين الذين اتبعوه، ولا بد أن استجابتهم لدعوته ترجع إلى الآمال التي أيقظتها فيهم وانسجامها مع توجهاتهم الفكرية والنفسية، دون إعلانه محاولة تحرير العبيد وعمال الأرض وجعلهم السادة.

حاول علي بن محمد بعد النجاح الأول الذي حظي به في بني ضبيعة أن يوسع دعوته مستغلاً المنازعات بين السعدية والبلالية فأرسل أربعة من معتمديه الأولين إلى مسجد عباد، ولم يذكر الطبري موقفه من الفريقين المتنازعين، أو الأفكار التي دعا أهل البصرة إليها والتي حظيت ببعض النجاح وبميل جماعة من أهل البصرة إليه، وهي مهددة للسلطة مما دفع محمد بن رجاء والي البصرة إلى استعمال الحزم، فأخذهم وحبسهم، وقضى على الحركة في مهدها وقبل استفحالها، وهرب صاحب الزنج إلى بغداد حيث أقام حولاً لم يذكر أنه حاول خلاله تجديد صلته بأنصاره من أهل البصرة. ويذكر البلوي أن صاحب الزنج «لا ناصر له إلا لفيف البصرة وأوباش عامتها»[13].

---

(9) عمدة العباب؟ 109.

(10) أخبار القضاة ، ؟؟ 2/ 44

(11) وكيع 2/ 47.

(12) وكيع 1/ 50.

(13) سيرة أحمد بن طولون للبلوى 84.

كانت السنوات التي قضاها صاحب الزنج منذ وصوله إلى برنخل في رمضان سنة 255 حتى القضاء التام على حركته مفعمة بالنشاط المتتابع الذي بدأ بجمع الأتباع والمؤيدين، وامتد إلى توسيع الرقعة التي يهيمن عليها والتغلب على المقاومات التي جاءت من جهات متعددة تشمل قوات السلطان، والقوات «الشعبية» وقوات المنتزين، وأبرزهم يعقوب بن الليث الصفار ثم الجهود التي بذلها في صد قوات الموفق التي أقامت بعد جهود مضنية استغرقت مدة طويلة إلى أن أفلحت في القضاء على حركته، وقتله.

لقي علي بن محمد في السنوات الأولى من حركته نجاحاً كبيراً تجلى في تزايد عدد المنضمين إليه، وحماسهم في القتال من أجل توطيد سلطانه وتوسيعه، واحتفظت أعداد كبيرة من أتباعه بتمسكهم به حتى في أيامه الأخيرة التي انكمش سلطانه واقتصر على مدينته المختارة التي لم يقتصر دفاعه اليائس عنها على طبيعة الأجواء الجغرافية من شبكات الأنهر وتموجات سطح الأرض. وإنما كذلك على المقاومة العتيدة التي أبداها أتباعه بالرغم من القوات الكبيرة المدربة المتماسكة التي حشدها الموفق والمغريات السخية التي بذلها لم يستسلم من قواد صاحب الزنج وأتباعه...

عندما عاد علي بن محمد من بغداد إلى منطقة البصرة للقيام بنشاطه، اتخذ مقامه في برنخل عند قصر القرشي على نهر عمود ابن المنجم وهو مكان لم يكن له ذكر في الأحداث السابقة أو التالية في المنطقة، مما يدل على أنه لم تكن له سمة مميزة أو أهمية خاصة، ولم تذكر المصادر سبب اختيار برنخل مقراً له، أو الأماكن الأخرى التي تنقل إليها، أو مشاركته شخصياً في الحركات العسكرية الكثيرة المتشعبة التي أنفذتها قواته، وكان يقودها رجال ينفذهم ولا يرافقهم، ولم يرد ذكر لإقامته أو زيارته أياً من البلدان التي دخلتها قواته وسيطرت عليها دائمياً أو مؤقتاً.

غير أنه عندما تقدم الموفق للقضاء عليه وعلى حركته كان يقيم في

المختارة التي شيدها على نهر أبي الخصيب، وتمتد إلى جنوبه، فموقعها في الطرف الجنوبي الغربي من المنطقة التي شملها نشاطه وهيمنته، ولم يكن في موقعها قبل إنشائها أي منشأة سابقة لفتت نظر البلدانيين أو المؤرخين ولا نعلم متى بدأ اتخاذه المختارة مقراً له، علماً بأن سعتها وكثرة أبنيتها تدل على أنها أقيمت قبل سنوات من مهاجمة الموفق لها.

في الكتب معلومات تذكر بعض الأماكن القريبة مما يسر تحديد مكانه بالتقريب، فيذكر الطبري أن برنخل عند قصر القرشي على نهر عمود ابن المنجم، وهو غير بعيد عن الجعفرية[14]. ويذكر كتاب «العيون والحدائق» أن برنخل ناحية المفتح[15]، وقد تردد ذكر المفتح في كتب البلدانيين. فذكر المقدسي أن المفتح من مدن البصرة[16]، وذكر الإصطخري أن «عبادان والإبلة والمفتح والمذار» من شاطىء دجلة وهي بلدان صغيرة إلا الإبلة فإنها كبيرة[17] وذكر أن دجلة بعد أن يجاوز بيان رودان ينعطف من وراء المفتح والمذار إلى أن يتصل برستاق واسط[18]، وكل هذا يظهر أن برنخل قرب دجلة وفي الأطراف الشمالية من منطقة البصرة، ولعلها كانت من «كور دجلة» الممتدة على دجلة بينها وبين الأهواز.

إن انتقال علي بن محمد من بغداد إلى برنخل في شمالي البصرة يكون بداية المرحلة الجديدة الأساسية في تثبيت هيمنته وحكمه على منطقة واسعة ظل يسيطر عليها ويصد مقاومات السلطة العباسية التي لم تفلح في القضاء عليها واجتثاثها إلا بعد جهود كبيرة دامت قرابة عشرين سنة بذلت فيها الكثير من الأموال والأرواح.

---

(14) الطبري 3/ 1745.

(15) العيون والحدائق 47. ويذكر المسعودي أنها بين المفتح وكرخ البصرة.

(16) أحسن التقاسيم 114.

(17) المسالك 51.

(18) المسالك 51

ادعى علي بن محمد أن اختياره منطقة البصرة لتكون ميدان نشر سلطانه جاء به «إلهام» أي بخاطرة إشراقية، ومهما كانت صحة أساسها فهي تظهر ملاءمتها لتوجهاته. والواقع أن فشله في محاولاته اتخاذ قاعدته في جواثا في البحرين وبواديها حمله على التفكير في اختيار مناطق يهيمن عليها، ورأى أن منطقة البصرة الأكثر ملاءمة لبعدها عن الحركات التي حدثت في أوائل العصر العباسي، في الحجاز والجزيرة الفراتية والشام، والواقع أن عدداً من القدماء بمن فيهم القائد الأموي القنوي، وعدد من القادة حديثاً بمن فيهم القائدان البريطانيان أوكفلك ومونتجومري، والقائد الألماني رومل، وأشاروا إليها في مذكراتهم كما أشار إليها الكاتب الإنكليزي ويلز، أدركوا جميعاً أهمية البصرة ومنطقتها في الاستراتيجية العسكرية، ولعل مما له دلالته أن طاهر بن الحسين لما تقدم بجيشه لقتال الأمين سلك طريق البصرة، وأن علياً الرضا لما ذهب إلى المأمون في خراسان سلك طريق البصرة.

لا بد أن الأحداث التي شهدها علي بن محمد في سامراء والتجارب التي مارسها في البحرين والبصرة كانت العامل الأكبر في تحوله من شاعر متكسب يعيش على ما يجود به عليه المتنفذون الذين يمتدحهم بشعره، وتوجهه إلى طموحات سياسية مكنت الكثيرين من الحصول على المكانة والثروة بغضّ النظر عن أصولهم العرقية أو مكانتهم الاجتماعية، فأكثر أصحاب النفوذ من القادة ورجال الإدارة والمهيمنين على المالية وجباياتها وإنفاقاتها لم يكونوا من العرب، ولم يستندوا إلى الدم في الحصول على المكانة، بل على جهودهم الفردية التي تيسر لهم إذا تيسرت الأحوال والظروف فرص التقدم والهيمنة، دون الاستناد إلى العقائد المذهبية التي تصبغ السياسة بالدين.

احتفظت الخلافة بمكانتها المتميزة، غير أن شاغليها لم يحتفظوا بالمكانة المناسبة للمنصب بالرغم من المزايا الشخصية والأفكار الإصلاحية التي يحملها بعضهم، وبعد مقتل المتوكل هيمن على مقاليد الحكم عدد من

الرقيق الأتراك، يعتمد كل منهم على من يتبعه من الجند الذين أصل كثير منهم أعاجم محررون، في الحفاظ على منصبه وفي القضاء على العصيان والثورات التي تكرر حدوثها ولا سيما في بلدان الهضبة الإيرانية والجزيرة الفراتية، وقليل من أصحاب السلطة احتفظ بمكانته بوجه التحديات الفردية ممن يشبهونه في مصدر قوتهم.

لا شك أن هذه الأحوال التي شهدها صاحب الزنج وعاش على هامشها أذكت فيه الطموح وبعض التوجهات، فقد أدرك إمكان المنتزين والطامحين للوصول إلى مراكز القيادة والسلطة بغضّ النظر عن أصولهم العرقية والاجتماعية، ومع أن هذه الأحوال أتاحت للمحررين الوصول إلى المراكز العليا، ويسرت لعبيدهم وعتقائهم وغلمانهم من التمتع بنفوذ وإن كان مصدره سادتهم إلا أنه يفيدهم ويقويهم في نظر الناس بفضل انتمائهم إلى سادتهم.

ويبدو أنه كان يدرك في هذه المرحلة مكانة الدم والانتساب وأهميتها وبدور العروبة في تعزيز مكانة الفرد فردد بشيء من الاعتزاز صلة الدم التي تربطه بالعلويين، كما أدرك الإمكانيات التي لما تستغل للعرب، وخصوصاً البعيدين عن مراكز الحكم في العراق. واختار لتحركه البحرين وهو إقليم يمتد على القسم الأوسط من الشاطىء الغربي للخليج العربي أكثر أهله من العرب يمتهنون الزراعة وفي بواديهم الغربية أعراب أكثرهم من بني تميم وبكر، وعلى شواطئه موانىء لسفن المحيط الهندي بخاصة، وبقرب الساحل مراكز حضرية متعددة أبرزها هجر التي لم تذكر المصادر فيها أو في المدن القريبة منها اضطرابات سياسية بعد القضاء على حركات الخوارج في أوائل عهد الخلافة الأموية، وكان عدد من أهلها قد هاجر إلى البصرة خصوصاً، فكونوا أحد أخماسها، وكانت للبحرين فيها محلة أكثر أهلها من بني دارم، وصلة البحرين وهجر بالبصرة أمتن مما بغيرها.

اعتمد علي بن محمد في نشر دعوته الأولى في البحرين ثم في

البصرة، لما استقر في برنخل على الأساليب السلمية في نشر دعوته، فلم يذكر عنه استعمال القوة لفرض هيمنته وتوسيعها، وإن لم تذكر المصادر مرتكزات دعوته في هذه المراكز كافة التي لم يكن له مع أي منها علاقات مسبقة عرقية أو مصلحية أو عقائدية وكان مجرى الأحداث في البحرين قاده إلى استخدام القوة تجاه معارضيه، ولا شك أن اندحاره العسكري في البحرين أظهر له أهمية استخدام القوة في تثبيت هيمنته، ومن الواضح أن عدم توافر القوة العسكرية له في البصرة عندما قدمها من البحرين كان من العوامل الرئيسية في اندحاره.

لم تكن له في نشر دعوته في برنخل قوة عسكرية، وفي هذا يقول الطبري أن علياً بن محمد عندما عزم على قتال قوات السلطات في الرزيقية في مؤخر الباذورد «ليس في معسكره يومئذٍ إلا ثلاثة أسياف، سيفه وسيف علي بن محمد وسيف محمد بن مسلم»[19]. وكان له في هذه المرحلة المبكرة ستة مقربين، وكان إذا نزل اعتزل عسكره بأصحابه الستة[20]، وعندما كان في بردودا أتاه أحد أصحابه الستة وأعلموه بانغمار أتباعه الزنج في شرب الخمر، فأمر بأن ينهوا عن شربه[21].

يذكر الطبري أنه في منتصف شوال من سنة 255 ظهر علي بن محمد «في فرات البصرة. . وجمع إليه الزنج الذين كانوا يسحون السباخ، ثم عبر دجلة فنزل الديناري»[22] لا شك في أن هذا النص يعبر عن زمن لاحق بمقامه برنخل وهو يشير إلى أول اتصال علي بن محمد بالزنج وجميع من كانوا يكسحون السباخ في فرات البصرة، ولعل مرجع اختياره زنج الفرات معرفته بالثورتين اللتين أعلنهما الزنج في زمن الحجاج ثم المنصور.

(19) الطبري 3/ 1752.
(20) الطبري 3/ 1760.
(21) الطبري 3/ 1763.
(22) الطبري 3/ 1742.

ولا تتوافر تفاصيل عن الأوضاع التي تفردت بها الفرات وحملت زنجها دون غيرهم إعلانهم التمرد والثورة وهي ليست مجرد أحوالهم التي لم تكن بأسوأ من حالات أقرانهم في الأماكن الأخرى.

الفصل السادس

قوات صاحب الزنـج

أحوال عمال الأرض

إن العمل في زراعة الأرض في الأحوال الاعتيادية ليس بأشق أو أضنى من كثير من الأعمال في المدن وفيه سمات قد تجعله مقبولاً فهو يقتصر على الحراثة والبذار ومتابعة السقي والحصاد وما يتبعه، أو متابعة نمو الأشجار وجني الثمار وهذه لا تستوعب كل أيام السنة بل تتوافر فيها أيام كثيرة لا عمل فيها، ثم إن الحقول والبساتين مفتوحة تخلو من تلوث البيئة الذي يكثر في المدن. غير أن فيه بعض العزلة عن المجتمعات وضعف الدوافع للتفكير الذي ينشط في الاحتكاك، وينمو عند الاتصال. علماً بأن هذه العزلة تمتد إلى العمل في كثير من الصناعات الرتيبة والعمل الزراعي الذي يؤمن للعاملين فيه الحاجات المعاشية الأساسية في الغذاء، وبعد الحاجات البيتية الأخرى، كما يؤمن موارد مالية من بيع الفائض يتوقف مقدارها على أحوال النظم الاقتصادية السائدة في المجتمع وفي الدولة إلا أن العمل الزراعي يكون شاقاً مضنياً عندما لا تتيسر متطلباته وأهمها التربة والماء، وهو أشق في الأراضي السبخة التي يكثر فيها الملح ويتطلب استغلالها إزالة هذه الملوحة، وزراعة النباتات المقاومة للأملاح، وهي محدودة لا تدر أرباحاً كبيرة. وفي

هذه الحالة يستخدم في الغالب عمال يرتضون بها لفقر حالهم أو لأن القوانين تلزمهم على ذلك.

الزنج

ومن استخدم في هذه المنطقة لهذه الأعمال المضنية الزنوج من العبيد المستوردين بالاختطاف من أواسط شرق أفريقيا وهذا ما حدث عند الرومان عندما اهتموا بالزراعة واستغلال السباخ والمستنقعات الواسعة في المنخفضات التي على شواطىء البحر المتوسط، وكذلك في الولايات المتحدة الجنوبية وغيرها مما يخرج بحثه عن نطاق دراستنا.

لا نعلم في البلاد والدولة الإسلامية في عهود ازدهارها استخدام الزنوج في الزراعة في غير جنوب العراق وفي الحجاز.

أصولهم

في المصادر إشارات كثيرة إلى الزنج والبلاد التي كانوا يقيمون فيها أصلاً ثم نقل بعضهم إلى بلاد الإسلام فذكر المسعودي أن الربع الجنوبي يسكنه الزنج وسائر الأحابيش تحت خط الإستواء وأن الأقليم الثاني يمتد إلى جزائر الزنج والأحابيش[1] وذكر أن بقرب جبل القمر كثيراً من أحواز الزنج ومساكنهم إلى أن يتصل ببلاد سفالة الزنج وجزيرة قنبلو، وأهلها مسلمون وبلاد بربر أو حفوة[2] وذكر أيضاً أن الصيف في البلاد الواقعة شمال خط الإستواء يقابله شتاء بسائر أرض الأحابيش من النوبة والزغاوة والزنج إلى جبل القمر وراء خط الإستواء، ومبدأ منبع النيل منه[3]. وأن الزنج اتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة، وهي أقاصي بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب

(1) التنبيه والإشراف 22.

(2) التنبيه والإشراف 51.

(3) التنبيه والإشراف 191. وانظر مروج الذهب 1/ 436-441.

العمانيين والسيرافيين، وهي غاية مقاصدهم وأساس كل بحر الزنج[4]، وأن جزيرة قنبلة من بحر الزنج وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار والزنج[5].

وذكر الجاحظ في رسالته «فخر السودان على البيضان» «الزنج والحبشة والنوبة»[6] و«الحبشة والنوبة ومرد زغاوة وغيرهم» وأن الزنج ضربان قنبلة والبحرية وذكر «أنتم رأيتم السبي يجيء من سواحل قنبلة وغياضها وأوديتها، ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا»[7]. وذكر ابن عبد البر «من ولد حام البربر الزنج والحبشة والنوبة والزنج وأجناس لا يحيطها إلا الذي خلقها» وقال «الزنج أجناس أيضاً، وأكثر هؤلاء يعبدون الأصنام والخشب والدواب والطيور الغريبة[8].

وفصل ابن سعيد في كتابه «الجغرافيا» في هذه المنطقة. ومما قاله أن مطندة من مدن الزنج المشهورة. وفي غربيها خور كبير ينزل إليه نهر من جبل القمر، وعلى شطي هذا الخور عمائر كثيرة للزنج، وذكر أن في فلزنة سحرة الزنج، وأن سكنى ملوكهم في مدينة ممبصة. وذكر أن الأسفالة مدينته بتينة، وأن عمائر السافليين في صبوة وفيها مقام ملك السافليين وهم الزنج الذين يعبدون الأوثان والحجارة ويصبون عليها دهن السمك الكبير، ومعادنهم من الذهب والحديد ولباسهم جلود النمور والخيل تعيش عندهم على البقر، وذكر أن الزنج تقاتل على البقر كما تقاتل النوبة على المهارى[9].

وذكر البيروني سفالة الزنج والجزائر التي في هذه المواضع كالزابج

(4) مروج الذهب 1/ 424.
(5) مروج الذهب 1/ 221.
(6) فخر السودان على البيضان 210 ضمن «رسائل الجاحظ» للسندوبي.
(7) فخر السودان على البيضان 211.
(8) القصد والأمم 24.
(9) الجغرافيا 82-83 (طبعة إسماعيل العربي). وفيها معلومات وتعليقات أوفر.

والدبيبات وقمر والواق واق والإنج. . . ويسكن سودان المغرب ويجاورون فيه خط الإستواء إلى جبال القمر التي فيها ينابيع نيل مصر(١٠).

يتميز الزنج بلغتهم الخاصة البانتو، وهم عموماً في داخل أفريقيا وزنجبار، ولم يتوغل العرب في بلادهم، بل أقاموا في المدن الساحلية التي يجلب إليها أهل البلاد الزنج ممن يخطفونهم أو يشترونهم(١١).

تظهر المعلومات التي ذكرناها أن الزنج كانوا ممن يجلبون من أقاليم محددة في أفريقية، ولم ترد تفاصيل عن فروعهم وأحوالهم الاجتماعية والسياسية أو طريقة جلبهم، والمرجح أن ذلك يتم بالقهر، وليس برغبة ذاتية منهم، وأن جلبهم يعتمد على أساليب من يجلبهم، وهو من المرجح «الصيد والخطف» وأن عدداً من مواطنهم قريبة من السواحل أكثر ممن مواطنهم موغلة في الداخل، وأن قنبلو هي المركز الرئيس لتجارتهم، وأن للعمانيين والسيرافيين دوراً كبيراً إن لم يكن رئيساً أو متفرداً في هذه التجارة التي تفتقر إلى معلومات عن تنظيمات ونشاط المنظمات التي تقوم بهذا العمل ولا شك أنها ترجع إلى ما قبل الإسلام، غير أن هذا النشاط لا يمتد إلى جلب الزنوج إلى الحجاز، وهو الإقليم الوحيد بعد جنوب العراق، الذي ذكرت المصادر وجودهم فيه.

إن كثيراً من المصادر لا تدقق في التعابير، فتسمى الزنوج السودان ولعلها تسمي السودانيين زنوجاً، مع فارق كبير بينهما في العرق والعادات وكثير من الخصائص، وتظهر آثار هذا الخلط في استخدام «السود» في الجيش، في اليمن والحجاز، ثم في العراق.

(١٠) القانون المسعودي.

(١١) الجغرافية البشرية ل دار الإسلام لميجيل 2-1/ 228 .

سماتهم العامة

يتميز الزنج عن أقوام أخرى ممن بشرتهم سوداء وبلادهم شرق وأواسط أفريقية كالسودان والبربر والأحباش وزغاوة.

فصل الجاحظ في ما اتصف به الزنج وارتباطاتهم بالعربية، وما تميزوا به في المكانة الاجتماعية والحرب. وذكر ابن أبي الحديد أن «الزنج كانوا عبيد الدهاقين بالبصرة، ولم يكونوا ذوي زوجات وأولاد، بل كانوا على هيئة الشطار عرايا»(12). وذكر الجاحظ من أصناف الزنج «قنبلة ولغيوية، والنحل، والكلاب، وتنبو»(13). وذكر أنهم «مع القذارة، ومع فرط الغباوة ومع كلال الجد وغلظ الحس» فإنها تطيل الخطب وتفوق عند ذلك جميع العجم وإن كانت معانيها من الحظ وألفاظها أبعد وأجهل(14). وذكر رسالته في «فخر السودان على البيضان» أسماء عدد غير قليل من البارزين في الشجاعة والشعر، ممن كانت بشرتهم سوداء ورثوها في الغالب عن أمهاتهم. وذكر عدداً من شجعان السودان، وخص رباح بن شارزنجي وثورته في زمن خلافة أبي جعفر، وأورد في كتاب الحيوان قصيدة عربية سليمة لابن رباح الشارزنجي(15). وذكر في كتابه الضخم «الحيوان» الزنج في سبعة عشر موضعاً، وذكر الحبشان في تسعة مواضع، والسودان في أربعة مواضع، والنوبة في أربعة مواضع مقرونين بالسودان(16) وأشار إلى براعتهم في ركوب الخيل وقال «أراد يحيى بن خالد أن يحول أجرار الخيل عن صبيان الحبشان والنوبة إلى صبيان السند فلم يفلحوا»(17). وذكر «الزنج شرار الناس وأردأ

(12) شرح نهج البلاغة. 2/ 312

(13) البيان والتبيين 3/ 51.

(14) البيان والتبيين 3/ 42.

(15) الحيوان 7/ 205.

(16) الحيوان 2/ 103، 3/ 435، 4/ 119، 7/ 138، 251.

(17) الحيوان 3/ 435.

الخلق تركيباً ومزاجاً»[18]. و«الرجل يتنجس من بيع الزنج وابتياعهم شهراً»[19]. وأنهم نوعان: أحدهما يفخر بالعدد وهم يسمون النمل[20] والآخر يفخر بالصبر وعظم الأبدان وهم يسمون الكلاب، والكلاب تنبو والنمل تنبو[21].

وذكر التوحيدي «للزنج الصبر والكداد والفرح»[22]. وأن «الزنج والسودان غلبت عليهم الفسولة، وشاكلت البهائم الضعيفة كما شاكلت الترك السباع القوية»[23]. ونقل عن ابن المقفع أن الزنج بهائم حاملة[24] وذكر ابن سعيد «سحرة الزنج[25] وسكن ملوكهم مدينة ممباسة[26] وأنهم جنوب النوبة[27] وأن المسعودي قال إنهم يقاتلون على البقر كما تقاتل النوبة على المهارى[28].

وذكر الطبري ملكاً للزنج أراد ابنه اللحاق بالموفق فقتله صاحب الزنج[29] ولم يذكر اسم هذا الملك وسلطانه ومكانته ولعله هو «أنكلويه» الذي أراد مع زريق وأبي الخنجر دخول البصرة[30] قبل أن يأذن له صاحب الزنج بذلك[31]. رغم توجه مع علي ابن أبان مسلمة على المسرقان ثم قتل

(18) الحيوان 2/ 314.
(19) الحيوان 4/ 289.
(20) الحيوان 7/ 135.
(21) الحيوان 4/ 35.
(22) الإمتاع والمؤانسة 1/ 74.
(23) الإمتاع والمؤانسة 1/ 212.
(24) الإمتاع والمؤانسة 1/ 163.
(25) جغرافية ابن سعيد 96.
(26) جغرافية ابن سعيد 83.
(27) جغرافية ابن سعيد 96.
(28) جغرافية ابن سعيد 83.
(29) تاريخ الطبري 1/ 2025.
(30) تاريخ الطبري 3/ 1710.
(31) تاريخ الطبري 3/ 1914.

من تستر[32]، ويقول ابن أنكلويه استسلم للموفق فخلع عليه[33].

ثوراتهم الأولى

ذكر وكيع نقلاً عن الأصمعي «أن الزنج ثاروا في دوما بفرات البصرة في أيام الحجاج وزياد بن عمرو العتكي على البصرة خليفة الحجاج»[34]. وقال البلاذري إن كرز بن مالك السلمي كان على الإبلة زمن الحجاج حين خرج شيرزنجي في زمن الحجاج وزياد بن عمر العتكي وهو على شط البصرة فقتلوا»[35]. إن هذه الثورة هي أول حركة للزنج ذكرت في صدر الإسلام، وقد قاموا بحركتهم في الجانب الغربي من دجلة البصرة وبالقرب من فرات البصرة وهي أكبر المدن في المنطقة، وإن الانتصارات الأولية التي أحرزوها تدل على كثرة عددهم، ولعل شخصية القائم بالثورة «شيرزنجي» ومعناه «الأسد الزنجي» كان له أثر في إثارتهم وتجمعهم حوله وأنهم كانوا في هذه المنطقة منذ قبل الإسلام، وأن زعيم الثورة استغلال الاضطرابات التي حدثت بعد الفتح الإسلامي والتي تتجلى في القلق الذي ذكره البلاذري في ملكيات أراضي هذه المنطقة، ولعله استغل المشاكل التي كان يواجهها الحجاج، علماً بأن المصادر لم تحدد زمن ثورته، ولا يوجد دليل على أن الثورة كانت بتحريض من الثوار العرب من الخوارج أو ابن الأشعث أو بتأثير الحسن البصري الذي كان الحجاج يتهمه بتحريض سقاط الإبلة، ويبدو أن شيرزنجي أحرز انتصارات أولية ملحوظة كانت من عوامل تسجيل أخبارها والثورة الثانية التي قام بها الزنج كانت سنة 143، ذكر عنها وكيع «ثم خرج الزنج في خلافة أبي جعفر وسوار بن عبد الله على قضاء البصرة، وتجمعوا

(32) تاريخ الطبري 3/ 1924.

(33) تاريخ الطبري 3/ 1999.

(34) أنساب الأشراف 305 طبعة اهلورت.

(35)

عند دار عقبة ونهر سليمان، فوجه لهم سوار شهاب بن عبد الملك. وقال بعض أخرجهم الجوع، ولو تركوا قليلاً تفرقوا، فدعا سوار الحسن بن علي الباهلي وكلثوم بن عبد الله بن يحيى بن الحضين الرقاشي في جماعة من الجند فتلقوهم عند دار عقبة بن سلم فقتل من الزنج دون العشرة وحملت رؤوسهم إلى سوار، وذلك في سنة 143[36]. وذكر أنهم نحو من عشرين عبداً وركبوا مواليهم وهو على الشرف فقتل في حوض داوود، وأجلبوا وأظهروا الخلع، وإنما أرادوا. . . وأن يخلطوا طمعاً في ذلك.

وذكر خليفة بن خياط أن العبيد خرجوا بالبصرة سنة 140 فخرج إليهم حفص بن النضر السلمي[37].

وذكر الحاجظ في فخر السودان قولهم: ومنا الأربعون الذين خرجوا بالفرات أيام سوار بن عبد الله القاضي، فغلبوا أهل الفرات عن منازلهم وقتلوا من أهل الإبلة مقتلة كبيرة[38].

إن رواية الجاحظ تظهر أن حركتهم كانت في الجانب الشرقي من دجلة، وأنها بدأت في فرات البصرة ثم امتدت إلى الإبلة، وأحرزت انتصارات أولية، إذ هيمنوا على منازل أهل الفرات، وقتلوا من أهل الإبلة مقتلة كبيرة. أما رواية وكيع فتظهر أن الثورة حدثت في الجانب الغربي من دجلة البصرة، وقرب البصرة، وأن الدافع للثورة هو الجوع، وأن عددهم كان قليلاً، غير أن مجمل الأخبار عنهم تظهر أن الثورة كانت أكبر مما تذكره النصوص.

إن إبراز دور الزنج في الثورات الثلاث التي حدثت في أطراف البصرة يؤكد على وجودهم وربما انصهارهم بعد استقرارهم في العراق، ولا توجد

---

(36) أخبار القضاة 2/ 571.

(37) تاريخ خليفة 446.

(38) فخر السودان 1/ 127.

إشارة إلى أن الثوار والمعارضين المسلمين كالخوارج والعلويين اتصلوا، فلم يكن للدين أثر في إثارتهم وتكتلهم، كما أنه لا يوجد دليل على عقيدة سياسية أو دينية، أو طموح سياسي، فحركاتهم هي انتفاضات تعبّر عن سوء أحوال عملهم الشاق، دون أن تكون لهم روابط تجمعهم أو أهداف سياسية يريدون تحقيقها.

إن إطلاق المصادر على حركتهم اسم الزنج يوحي بأنهم وحدهم الذين قاموا بها، وكان التذمر مقصوراً عليهم، غير أن منطق الأمور يقتضي أن عمالاً آخرين من أجناس أخرى كانوا يقومون بهذه الأعمال، ولعل بعضهم أحرار، غير أن الزنج كانوا أبرز من غيرهم.

ذكر الطبري في ما كتبه معلومات كثيرة متفرقة عن الزنج، فذكر أن لهم رؤساء وقواد[39] وذكر من رؤساء الزنج[40] أبا صالح القصير[41]، ورباح القندلي[42] وذكر من قادتهم أنكلويه وحسين الحمامي ومفرج أبا صالح[43]. فأما أنكلويه فقد قتل في قنطرة فارس[44]، وظل ابنه يقاتل مع أحمد البردعي في صف صاحب الزنج ثم استسلم للموفق أما حسين الحمامي فقد قاتل في كمين في نهر شيطان[45] وفي الهجوم على تستر[46].

وذكر الطبري مشاركاتهم في القتال، وعدد من شارك في بعض المعارك. فذكر أنه في بدء حركته في فرات البصرة «جمع إليه الزنج الذين

(39) الطبري 3/ 1751.
(40) الطبري 9/ 1933، 1981
(41) الطبري 3/ 1751.
(42) الطبري 3/ 1906.
(43) الطبري 3/ 1934.
(44) الطبري 3/ 1934.
(45) الطبري 3/ 1734.
(46) الطبري 3/ 1934.

يكسحون السباخ، ثم عبر الديناري[47]، وأنه ميّز الزنج من الفراتية[48]. وذكر أنه عبر دجلة في ثلاثمائة من الزنج، وأنه وجد في منذران جمعاً من الزنج، عرفهم إلى قدادية[49] وصار عنده ثلاثمائة من الزنج[50]. وفي دبيران تراجع الزنج[51] وفي القندل خمسمائة رجل من الزنج[52]، وفي دبا ثلاثمائة من الزنج[53].

وفي معركة قتل من البيضان والزنج خلق كثير[54] ولما استسلم أهل عبادان أخذ مماليكهم وضمهم إلى أصحابه من الزنج[55]. وعندما أذن للدخول إلى البصرة كان علي بن أبان في جماعة من الزنج. والأعراب[56]. وفي جبى كان علي بن أبان في جمع كثير من الزنج عظيم هائل لم يرَ مثله[57].

وعندما أغار على معسكر أبي أحمد في بيان روذان كان إبراهيم بن جعفر الهمداني في أربعة آلاف من الزنج، ومحمد بن أبان في ثلاثمائة والداورداني في ألف وخمسمائة من الزنج والجبائيين[58].

وقاتل الزنج الموفق عندما انسحب في حملته الأولى[59] وعندما

(47) الطبري 3/ 1742.
(48) الطبري 3/ 1756.
(49) الطبري 3/ 1753-4.
(50) الطبري 3/ 1754.
(51) الطبري 3/ 1762.
(52) الطبري 3/ 1772.
(53) الطبري 3/ 1773.
(54) الطبري 3/ 1802.
(55) الطبري 3/ 1837.
(56) تاريخ الطبري 3/ 1850، 1853.
(57) ....
(58) تاريخ الطبري 3/ 1940.
(59) تاريخ الطبري 3/ 1872.

تقدمت قوات علي بن محمد نحو واسط، كان الزنج عماد الجيش ووصلوا إلى جنبلاء وجبل، غير أنه لما قامت قوات السلطان باسترجاع منطقة شمال واسط، انهزم الزنج إلى طهيثا. وكمن زهاء عشرة آلاف من الزنج في برتمرتا، ومثل هذا العدد في طهيثا[60]، ودافعوا عن سوق الخميس فأسر عدد منهم[61].

ولما تقدم الموفق للقضاء على حركة الزنج خرج على قواته في «خلق كثير من الزنج»[62] فأرسل صاحب الزنج قوة لمهاجمة جيش الموفق وكانوا عدة الزنج، غير أنهم انسحبوا إلى جويث باروبا[63] ثم أمر شبل بالخروج في عشرة آلاف من الزنج وغيرهم[64].

واستسلم في هذه المعارك خلق كثير من الزنج وغيرهم، بلغ عددهم خمسة آلاف ما بين أبيض وأسود، وبلغ عددهم خمسة آلاف رجل أكثرهم من الزنج وفيهم مائتي قائد[65]. وكان المهلبي قائد صاحب الزنج في جمع كثير من الزنج وإبراهيم بن جعفر الهمذاني في أربعة آلاف من الزنج ومحمد بن أبان في ثلاثة آلاف، وفي الدواردان في ألف وخمسمائة من الزنج والجبائيين[66]. وأمر صاحب الزنج المهلبي وسليمان بن جامع في جمع كثير من الزنج[67].

وأمر صاحب الزنج شبلاً وأبا النداء بالخروج في عشرة آلاف من الزنج

---

(60) تاريخ الطبري 3/ 1956.
(61) تاريخ الطبري 3/ 1959.
(62) تاريخ الطبري 3/ 1929.
(63) تاريخ الطبري 3/ 1994.
(64) تاريخ الطبري 3/ 1999.
(65) تاريخ الطبري 3/ 1990، 1992.
(66) تاريخ الطبري 3/ 1990.
(67) تاريخ الطبري 3/ 2000.

وغيرهم إلى نهر أبي الأسد وأنهار البطيحة للغارة على المسلمين[68].

إن المقاومة الأخيرة للزنج قد ترجع إلى أنهم كانوا يقاتلون لفقدانهم الأمل بمكانة يحصلون عليها بعد انهيار حركة صاحب الزنج.

السودان

ذكرنا عند كلامنا عن ديار الزنج في أفريقيا، أن السودان كانت ديارهم شمال ديار الزنوج ومتميزة عنها. وقد تكرر ذكرهم عند الكلام عن الحركات العسكرية والمعارك التي خاضها صاحب الزنج منذ أوائل قيامه بالثورة إلى أن انتهى باستسلام معقله الأخير ومقتله والقضاء على حركته. وهذا يظهر أنه كان لهم دور كبير في انتصاراته وصموده، وأن مرجع ذلك كثرتهم العددية وتمرسهم في القتال، علماً بأن المصادر كثيراً ما لا تدقق في التعابير، فيشمل تعبيرها (السودان) كتلاً مختلفة بمن فيهم الزنج، وإن لم تكن تشمل (البيض).

إن استخدام السودان في الجيش العباسي في العراق قديم، فقد ذكروا في الحرب بين الأمين والمأمون[69] وذكر تواجدهم في سامراء، وفي وصف القوات الخاصة لعدد من القادة الذين سيطروا على مقاليد الحكم في بغداد إلى أن جاء البويهيون، ومن أبرز ذلك غلمان الموفق الذين سنفرد لهم كلاماً خاصاً.

ذكر الطبري عدداً من الأحداث نص على مشاركة السودان فيها فكان ريحان في موافقته لأبي هلال في زهاء أربعة آلاف من السودان[70]. وفي إحدى المعارك الأولى هرب السودان وعلى إثرها جمعهم صاحب الزنج،

---

(68) تاريخ الطبري 3/ 1993.

(69) انظر كتابنا «بغداد مدينة السلام» 1/ 20، 1-21.

(70) ....

وميّز الزنج من الفراتية والقرماطيين من النوبة[71] وفي معركة أخرى كان «رماة من السودان خمسمائة رجل[72] وفي فوهة بيان حمل السودان على قوات السلطان، وكان منهم كمين في زهاء مائة من أبطال السودان[73]. وفي سليمانان شارك من السودان خمسون رجلاً[74] وفي الرياحي أتاه قوم من السودان[75] وفي الجعفري حمل السودان على قوات العباسيين[76] وقاتل عدد منهم في نهر كثير حيث غرق عدد من كبار رجالهم[77] ولما أراد علي بن أبان الاستيلاء على السوس وجه أخاه الخليل بن أبان في جمع كبير من السودان وغيرهم. غير أن أصحاب السلطان دحروهم وقتلوا عدداً كبيراً من أنجادهم وأبطالهم[78] وفي طهيثا اعترض جماعة من السودان أصحاب جعلان[79].

أشار الطبري إلى الدور المتميز لأنجاد السودان[80] وأبطالهم كما ذكر إشارات عامة إلى قواد السودان[81] وذكر في عدة أماكن دور بعضهم.

كان أبرز رجال السودان المنضمين إلى صاحب الزنج ريحان بن صالح وهو أحد غلمان الشورجيين، وكان أول من صحبه منهم، وكان قبل ذلك موكلاً بغلمان تنقل الرقيق إليهم من البصرة ويفرقه فيهم[82] وشارك في

(71) الطبري 3/ 1761.
(72) الطبري 3/ 1770.
(73) الطبري 3/ 1771.
(74) الطبري 3/ 1772.
(75) الطبري 3/ 1775.
(76) الطبري 3/ 1778.
(77) الطبري 3/ 1779.
(78) الطبري 3/ 1909، 1911.
(79) الطبري 3/ 1911.
(80) الطبري 3/ 1900، 1911، 1991.
(81) الطبري 3/ 1864، 1905، 1906.
(82) الطبري 3/ 1748، 1752.

المعارك الأولى[83] والتقى بصاحب الزنج في برنخل فقدم له معلومات عن أحوال البصرة والبلالية والسعدية ومن انضم إليه[84]. وصد في المحمدية هجوماً على صاحب الزنج وشاركه في عمله مفرج النوبي المكنى بأبي صالح وفتح الحجام، ثم شارك في قتال سلطات الدولة وخصوصاً في قتال أبي هلال حيث قتل السودان من أصحابه زهاء 1500[85]. وشارك في المعارك في نهر حرب[86]. وكانت له عند صاحب الزنج رياسة وقيادة وكان يتولى حجبه ابنه ثم استسلم لأبي العباس، فأكرمه الموفق[87]. وانضم معه عدد من قواد السودان إلى الجيش العباسي[88] وقاتلوا صاحب الزنج بضراوة[89] وأنخب هروبه صاحب الزنج.

ومن أبرز قواد السودان شبل، وهو أحد من غلمان الدباسيين ومن أوائل من أتى مع أبي النداء من قواد السودان المشهورين بالبلاء[90] والغناء[91]. ونقل عنه الطبري عدداً من أخبار صاحب الزنج[92] وهو من أوائل من أتى صاحب الزنج[93]، وكان مع أبي النداء، «من قدماء أصحاب الفاسق الذين استنبطهم من بدء مخرجها[94]، وهما «من رؤساء قواده وقدماء أصحابه» الذين كان يعتمد عليهم ويثق بمناصحتهم[95].

---

(83) 3/ 1756، 1776، 1778.

(84) الطبري 3/ 1785.

(85) الطبري 3/ 1752.

(86) الطبري 3/ 1781.

(87) الطبري 3/ 1910.

(88) الطبري 3/ 1905.

(89) الطبري 3/ 2008.

(90) الطبري 3/ 1966.

(91) الطبري 3/ 2070.

(92) الطبري 3/ 1177، 1771، 1849، 1856، 1899، 1958.

(93) الطبري 3/ 1749.

(94) الطبري 3/ 1966.

(95) الطبري 3/ 1993، 2070.

كان شبل في الطليعة عند الهجوم على نهر بامداد[96] وشارك في القتال عند نهر شيطان وهرب[97] ثم عاد، وفي التقدم كان على الجانب الغربي مع حسين بن الحمامي، وكان على الجانب الشرقي زريق وأبو الليث الأصفهاني[98] وشارك في الهجوم على البصرة[99]، وأمر صاحب الزنج علي ابن أبان بإظهار استخلافه على البصرة ليسكن الناس[100] وفي الهجوم على واسط وجهه سليمان بن جامع في خيل من خيله، وضم إليه جمعاً من الرجال إلى الصحراء[101] وكان ممن يحرسون الغلات في الحوانيت[102] وخرج مع أبي النداء في عشرة آلاف من الزنج وغيرهم لقصد نهر الدير ونهر المرأة ونهر أبي الأسد لقطع الميرة عن أهل البصرة[103] ثم استسلم فيمن يصحبه من قواده ورجاله إلى الموفق، فسرّ الموفق باستسلامه ووصله بصلة جزيلة وخلع عليه خلعاً كثيرة وحمله على عدة أفراس بسروجها ولجومها وكان الموفق يقدر مناصحة شبل وجودة فهمه، وكان يستكفيه بعض الأمور التي يأتي بها الجيشان، كما وصل أصحابه وخلع عليهم وأسنى له ولهم الأرزاق والأنزال وضموا جميعاً إلى قائد من قواد غلمان الموفق[104]. وأخص شبل للموفق، فأوقع بصاحب الزنج[105]، وشارك في الهجوم على النهر الغربي[106].

---

(96) الطبري 3/ 1755.
(97) الطبري 3/ 1782.
(98) الطبري 3/ 1784.
(99) الطبري 3/ 1849.
(100) الطبري 3/ 1856.
(101) الطبري 3/ 1929.
(102) الطبري 3/ 1966.
(103) الطبري 3/ 1993.
(104) الطبري 3/ 2870.
(105) الطبري 3/ 2087.
(106) الطبري 3/ 2087.

ومن قواد السودان أبو النداء ذكر مقروناً بشبل في عدة حوادث[107] لشهرتهما بالبأس والنجدة، ومن قدماء أصحاب صاحب الزنج وكان ممن أنقذ جيش صاحب الزنج في طهيثا، وقتل في معركة نهر منكي[108].

ومن قواد السودان أبو دلف ذكر الطبري أنه عندما كان في القندل «أتاه من السودان خمسون رجلاً فسار إلى دبى، فوجد ثلاثمائة من الزنج[109] وفي إحدى المعارك كان يقيم عند نهر معقل[110] ومن قوادهم قاقويه الذي أبدى في برد الخيار بسالة قام صاحب الزنج يحيى بن محمد أن يقوده على مائة من السودان[111] وفي وقعة أخرى تبعه جمع من قواد السودان[112].

الفراتية والشورجيون والنوبة والقرماطيون والجوخانيون

لم يكن الزنج والسودان الوحيدين الذين اتصل بهم وانضموا إليه فيذكر الطبري أن صاحب الزنج «ميز الزنج من الفراتية» ثم جمع الباقين وهم الفراتية والنوبة والقرماطيون وغيرهم ممن يفصح لسان العرب[113]. إن هذا النص يصف قواته في المراحل الأولى ابتداء من حركته فيهم ممن يفصح لسان العربية، ومن المعلوم أن العربية لم تكن «لغة الأم» في أصولهم، بل تعلموها بعد قدومهم المنطقة إفصاحهم فيها يدل على أنهم ممن كان مقيماً بين العرب أمداً قبل إعلان الثورة، وأن اختياره هؤلاء المفصحين بالعربية يرجع إلى أن ذلك ييسر له توضيح دعوته لهم فيفهمونها، وليس لأي سبب آخر.

(107) الطبري 3/ 1906، 1965.
(108) الطبري 3/ 2033.
(109) الطبري 3/ 1773.
(110) الطبري 3/ 1864.
(111) الطبري 3/ 1764.
(112) الطبري 3/ 1905.
(113) الطبري 3/ 1756-7.

إن النوبة مجموعة عرقية، أما الفراتية فمجموعة أخذت اسمها من مكان عملها وليس لتميزهم دلالة عرقية أو حرفية.

ذكر الطبري ممن انضم إلى صاحب الزنج الشورجيين وهم منسوبون إلى الشورج، ولعل المقصود بها الذين يعملون بكسح الأملاح البيضاء التي تغطي التربة، واستعمالها في العراق، إذ إنها تختلف عن السباخ من حيث إن الأملاح تطفو على سطح التربة، فهي تختلف عن السباخ التي تمزج فيها إلى صلاح بالتربة التي تكون في الغالب رطبة دكناء في حين أن الشورة بيضاء تطفو على السطح، وإن كانت تربتها في الغالب سبخة.

يذكر الطبري أن صاحب الزنج لما عاد من بغداد لم يذهب إلى البصرة، بل ذهب إلى برنخل عند قصر القرشي ونهر عمود ابن المنجم فوجدوا ريحان بن صالح أحد غلمان الشورجيين. . وهو أول من صحبه منهم «وكان بغلمان مطوعة، يوزع عليهم الدقيق والسويق والتمر وغيره كما ذكر أنه كان يعمل في الشورج من الأحرار والعبيد وأن شبويه كان من غلمان الدباسين[114].

وذكر أن رجلاً من الشورجيين يعرف بالعطاء، أخذ منهم خمسمائة غلام، منهم المعروف بابن أبي حديد، وكانوا بنهر مكاثر، وفي موضع السيراقي ألف وخمسمائة منهم، إسماعيل المعروف بغلام سهل الطحان، وأخذ من موضع ابن عطا طريف، وصبح الأعسر وراشد المغربي وراشد القرماطي[115]. . ، وذكر أنه اجتمع إليه بشر كثير من غلمان الشورجيين، وعبر دجيل في خمسة عشر ألف شورجي غلام[116]. وذكر أن أبا منارة من

(114) الطبري 3/ 1747.

(115) الطبري 3/ 1784.

(116) الطبري 3/ 1750.

الشورجيين الدباسين[117]، وأن شبل بن سالم من غلمان الدباسين[118] ضمن له أن يعطيه خمسة دنانير عن كل غلام يرده من غلمان الشورجيين[119]. وذكر أن من «غلمان الشورجيين رجل يقال له الزغاوي[120] ووجد داراً سعتها أربعة عشر غلاماً للشورجيين[121] وذكر أن شهاب العنبري معه قوم من الخول ستمائة غلام من غلمان الشورجيين[122]. وأنه «صير أصحاب الزنج ستمائة غلام من غلمان الشورجيين هناك فأخذوهم وقتلوا وكلاءهم»[123].

أما القرماطيون فهو تعبير غير واضح المعنى، وقد جرت دراسات عن أصل الكلمة وأصل القرامطة الذين ظهروا في البحرين وامتدت سيطرتهم إلى أطراف الكوفة، وهددوا بغداد وأمنها وتجارتها. ولم تذكر المصادر مجموعة عرقية اسمها «قرامطة» سواء في العرب أو غيرهم، كما أنها لم تأخذ اسمها من منطقة جغرافية، حيث إن المصادر ذكرت عدداً كبيراً من المواقع الجغرافية وليس فيها مكان اسمه «قرمط»، كما أنها ليست اسم حرفة، ولا نعلم أي مكان شاع فيه هذا الاسم.

ذكر الطبري ممن انضم إليه «الجوخانيون»[124] ويدل اسمهم على أنهم من أهل جوخي وهي الواقعة بين دجلة والنهروان في أسفله[125]. ولا تتوافر معلومات عنهم، والمرجح أنهم من أهل تلك المنطقة من الفلاحين.

---

(117) الطبري 3/ 1757

(118) الطبري 3/ 1748.

(119) الطبري 3/ 1759.

(120) الطبري 3/ 1758.

(121) الطبري 3/ 1762.

(122) الطبري 3/ 1775.

(123) الطبري 3/ 1776.

(124) الطبري 3/ 1611.

(125) انظر عن جوخي بحثنا «منطقة واسط» المنشور في مجلة سومر وأعيد نشره في كتاب ومعالم العراق العمرانية.

إن المجموعات السكانية التي ذكرناها هي التي أشارت المصادر إلى اتصال صاحب الزنج بها عندما بدأ حركته في مرحلتها الجديدة التي تتابعت أعمالها إلى أن قضى عليها الموفق بعد جهود دامت خمس عشرة سنة، ويتبين مما ذكرناه أنها كانت متعددة، ومنوعة، ولم ترد معلومات عن روابط عرقية أو عقائدية تجمعهم قبل اتصاله بهم، وكل ما ذكر أن الذين جمعهم وتحدث إليهم من أول مرة كانوا «ممن يفصح العربية» أي إن إقامتهم في هذه المناطق امتدت زمناً كافياً لتعلمهم العربية والتحدث فيها وفهمها، علماً بأن المصادر لم تذكر أن صاحب الدعوة كان يعرف لغاتهم الأصلية التي يتحدثون بها وأن الذي كان يجمعهم هو احترافهم بأثقل جانب مما تتطلبه الزراعة وهو كسح السباخ وما يتصل به من عمل مضن يقضي تعرقهم في العمل، وعدم تجمعهم كتجمع الصناع في المعامل، كما أن أعدادهم الأولى توحي بانتشارهم في رقعة واسعة من الأرض. غير أن أخبار حوادث الحركة لم تميزهم أو تشير إلى احتفاظ من شارك فيها بخصائصهم المميزة الأولى. ومن الواضح أن انضمامهم لحركته اقتضى أن يتركوا أعمالهم المضنية الأولى، ولم يرد ذكر لمن حل محلهم في تلك الأعمال والتي هي ضرورية لإحياء الأرض ومتابعة إعمارها، وأن تركهم تلك الأعمال دون إحلال من يحل محلهم فيها يعني أن أعمال الأراضي تعرضت إبان حركته إلى تدهور زاد من سعته أن كثيراً من تلك الأراضي أصبحت مسرحاً للأعمال العسكرية التي تؤثر في عرقلة الزراعة والعمل فيها.

إن انضمام هذه المجموعات إلى دعوة صاحب الزنج لم يقتصر أثره على تدهور الزراعة بل امتد إلى تحول عملهم إلى الخدمة في جيشه والمشاركة في القتال والمعارك علماً بأنهم لم يكونوا مدربين على ذلك، ولا يتوافر فيهم ما تتطلبه الحياة العسكرية من تدريب وانضباط مما يجعل مشاركتهم «هشة» قد تفلح مؤقتاً ثم سرعان ما تنهار وخصوصاً أنهم لم يتشبعوا بالعقائد التي يدعو إليها وإذا كانت حركته قد حررتهم من أعمالهم

السابقة المضنية، فإنها لم تعوضهم بالرفاه المادي الذي وعدهم به من جعلهم سادة «يتملكون العبيد» وهي وعود مغرية لهم قد تثير فيهم الحماس في المراحل الأولى، ثم تخفت بعدما يتبين زيفها وعدم تحقيقها، علماً بأنه لم يذكر مصدر «العبيد الذين وعد بتمليكهم لهم».

ومع أن ترك الأعمال المضنية السابقة يوفر لهم بعض الحرية، فإنها ليست حرية مطلقة فإنه ينقلهم من العمل في الأرض، إلى العمل في القتال الذي ليس يسيراً كما أنه يعرضهم للقتل.

ولا توجد أي إشارة إلى مبادىء أخلاقية جديدة عني بنشرها فيمن انضم إليه، ولا أفكاراً واسعة دعا إليها، كما أن المصادر لم تذكر لأي من هذه المجموعات من ولي مراكز عالية، واحتفظ بخصائصه وميزاته، ولم يتردد سوى ذكر «الزنج» و«السودان»، علماً بأن هذين الصنفين متمايزان في أصولهما ومظاهر خلقهم غير أن المعلومات كثيراً ما تخلف بينهم ولا تدقق في التمييز.

الفصل السابع

الأعراب والعرب الممالئين لصاحب الزنج

الأعراب

للأعراب سمات عامة يتميزون بها هي اللغة العربية والحياة البدوية، لكنهم متفرقون في روابطهم السياسية، فالروابط العشائرية التي تربطهم تجعلهم مجموعات متفرقة من عشائر لكل منها رئيس وشيخ يتبعه عدد محدود من الأفراد، وتفكيرهم السياسي ضحل يقودهم إلى عدم الثبات على مواقف سياسية تخدم مصالحهم الدائمية، وإنما كانت تسيرهم المصالح الآتية التي قد تناقض المصالح الدائمية، ولذلك فإنهم كانوا متفرقين في وجهاتهم ومتقلبين في مواقفهم، ويوضح هذا مواقفهم من حركة صاحب الزنج. غير أن المصادر ذكرت حالات محدودة سميت فيها المجموعات الصغيرة التي قاتل بعضها صاحب الزنج مع قوات السلطان.

احتفظ الأعراب من أهل البوادي بصلات دائمية متواصلة بالبصرة ومنطقتها، فكانوا ينقلون إليها بعض منتوجات الصحراء وما فيها من ثروة حيوانية، كذلك بعض سلع مناطق الخليج وقد دربتهم حياتهم في الصحراء على تحمل صعوباتها وشظفها مما يؤهلهم إلى التدرب على «العراك» وليس القتال المنظم الذي تتسم به القوات العسكرية من الجيوش، علماً بأن لهم خبرة في استعمال الخيل في التنقل والقتال.

غير أن للأعراب أمزجة خاصة في الحياة العامة فهم يتسمون بالعاطفية وضحالة التفكير والتأثر بالغيبيات بغضّ النظر عن انسجامها مع «العقل»، وقد أحرز بعض مستغلي هذه السمات نجاحاً كبيراً تجلى في حركات الخوارج، ولكنه كان نجاحاً موقتاً لا يثبت إلا إذا تحول بجهد ووقت إلى النظام الثابت الذي تتميز به الدول.

كانت لصاحب الزنج صلة بالأعراب منذ أن قدم البحرين لنشر دعوته الأولى، إذ إنه لما فشل في دعوته الأولى في هجر «تحول عنهم إلى البادية» وكان ينتقل في البادية من حي إلى حي «وإن اختدع بذلك قوماً منهم حتى اجتمع بها منهم جماعة كبيرة. وزحف بهم إلى البحرين ولكنه اندحر في الردم فنظرت عنه العرب وكرهته وتجنبت صحبته، فلما نفرت منه العرب ونبت البادية شخص عنها إلى البصرة[1].

لا شك في أن هذا الاتصال الأول لصاحب الزنج يسر له اطلاعاً مباشراً على خصائص البدو ومدى الإفادة منهم وحدود ذلك الاتصال. فهم يتميزون بتحمل المشاق، والقدرة على التنقل وركوب الخيل، والقتال فيه، وهو ما لم يبرع به الزنج، كما أنهم يتسمون بسطحية التفكير والاستعداد لسرعة التصديق وتأييد من يتبعونه ثم التخلي عنه، علماً بأن لرابطة النسب المحدودة النطاق أثراً في تماسكهم، فتجمعهم حول العشيرة المحدودة أقوى من ارتباطهم بالقبيلة الواسعة وللمنافع المادية أثراً في تماسكهم، فمع أنهم ذوو صلة وثيقة بالعرب في دمهم ولغتهم إلا أنهم يختلفون عنهم في توجههم الحضاري.

استجاب «الأعراب» إلى ما طلبه منهم صاحب الزنج، وسماهم «الأعراب» دون أن يذكر اسم رئيس منهم أو العشائر التي ينتمون إليها، ومن المعلوم أن البادية تتصل بالمنطقة المعمرة التي لا يزيد عرضها على عشرة

---

(1) الطبري 3/ 1744

أميال ووراءها صحراء كانت فيها ديار عشائر بكر ولا سيما سدوس وشيبان وبعض عشائرهم تميم، وقد ازداد بنو أسد الذين نقلوا سنة 206 من الجزيرة الفراتية إلى هذه المنطقة، وتردد ذكر الباهليين في منطقة البطائح. كما ذكرت خفاجة في القرون التالية ولعل بعضهم هاجر إلى هذه المنطقة في القرن الثاني الهجري.

وذكر الطبري دور باهلة في البطائح، ولم يذكر أسماء العشائر التي ينتمي إليها غيرهم، ولعل كثيراً منهم من بكر وتميم، ولا صلة لهم بمن كان يسكن البصرة من هذه العشائر.

تميز الأعراب بالحركة والتحمل ولم يكن لهم تدريب عسكري، ولما أراد صاحب الزنوج إشراكهم في غزو البصرة، قام قواده بتدريبهم على القتال المنظم الذي لم يكونوا آلفيه. وأدرك صاحب الزنج خصائص الأعراب، بما فيها من ميزات وعيوب، فلم يتردد في قبول من ينضمُّ إلى حركته منهم ولم ترد معلومات وافية عن مراحل تطور انضمام الأعراب إلى صاحب الزنج بل وردت إشارات إلى استئمان عدد ممن انضمَّ إليه في وقت مبكر إلى قوات السلطان[2]. ولعل من هؤلاء الأعراب الفضل بن عدي الداري، وكان من أصحاب صاحب الزنج، وانضمَّ إلى محمد بن أبان قائد صاحب الزنج في مهاجمة تستر[3] وكان مع السعدية عندما أراد صاحب الزنج استمالتهم[4] ونقل عنه محمد بن الحسن رواية عبور محمد بن سليم إلى أهل البصرة يدعوهم إلى عدم مقاومة صاحب الزنج عندما كانوا مجتمعين في أرض الفضل بن ميمون[5].

---

(2) الطبري 3/ 1761
(3) الطبري 3/ 1711
(4) الطبري 3/ 1777
(5) الطبري 3/ 1782

ذكر الطبري مشاركات كثيرة للأعراب مع صاحب الزنج ونص على عشائر القائمين ببعض هذه الحركات. ففي الجعفرية شاركوا في قتاله. «وقتل من الجند والأعراب وأهل البصرة البلالية والسعدية»[6].

وفي الداورداني جاءه «قوم من الأعراب منهم عنترة بن حجبا وثمال»، ولكنه شك في إخلاصهم بالانضمام إليه، وفي هذه الحادثة عرض بنو عجل، وهم من أهل قرية الحسن بن محمد القاضي أنفسهم وبذلوا ما لديهم وكان مع سليمان ابن أخي الزينبي قوم من الأعراب قاتلهم السود[7].

وفي الجعفرية قاتلوا مع السلطان «وقتل من الجند والأعراب وأهل البصرة البلالية والسعدية»[8] وقتل من الأعراب خمسمائة منهم فتح غلام أبي شبث، وقاتل فتح حتى لم يبق أحد يقاتل[9].

وكان بريه العباسي في العرب محبباً إليهم وقال لشهاب العنبري «أن العرب لا تقدم عليّ بمساعدة»[10] وقد قاتل شهاب قوات صاحب الزنج في دبا[11].

ولما عزم علي بن محمد على دخوله البصرة أدرك أن قواته لا تكفي لدخول البصرة فندب محمد بن يزيد الدارمي وهو أحد من كان صحبه من البحرين للخروج إلى الأعراب، فأنفذه فأتاه منهم خلق كثير فأناخوه بالقندل[12] ووجه إليهم الخبيث سليمان بن موسى الشعراني وأمرهم بتطويق البصرة والإيقاع بها، وتقدم إلى سليمان بن موسى في تمرين الأعراب على

(6) الطبري 3/ 1772
(7) الطبري 3/ 1775
(8) الطبري 3/ 1775
(9) الطبري 3/ 1777
(10) الطبري 3/ 1777
(11) الطبري 3/ 1775
(12) الطبري 3/ 1848

ذلك[13] ولعل اختيار محمد بن يزيد الدارمي لجلب الأعراب، راجع إلى وثوقه من إخلاصه، وأنه من بني دارم وهي عشيرة مرموقة من بني تميم. وكانت تقيم في الأصل في البحرين، وهاجر بعضها إلى البصرة فكانوا يسمون فيها الهجريين، ولم يحدد النص عدد «الخلق الكثير الذي استجاب محمد بن يزيد، والعشائر التي ينتمون إليها، والمرجح أنهم أو أكثرهم من تميم، ولعل محمد بن يزيد النصري وهو الذي وجهه صاحب الزنج إلى سليمان بن جامع لمساعدته في تقدمه إلى جنبلاء[14].

وكان صاحب الزنج قد وجه إلى البادية ليعرض بها رجال العرب، فجمع جمعاً من الخيل ولم يكن من جند السلطان إلا نيف وخمسون فارساً مع بغراج. علماً بأن أكثر من قاتل الزنج رجاله[15]. وكان الحصار عض أهل البصرة وكثر الوباء بها، واستمرت الحرب بين الحزبين المعروفين بالبلالية والسعدية، فأضعف أهل البصرة الذين عضهم الجوع والحصار[16].

وكان جماعة من بني تميم وبني سعد زعموا أنهم أصحاب العلوي المضمومين إلى علي بن أبان الذي كان في جماعة من الزنج والأعراب على متون الخيل[17].

ولما شرع علي بن محمد في تنفيذ خطة الهجوم على البصرة، وزع قواته على ثلاثة محاور وضم الأعراب إلى قادة محورين فكان «علي بن أبان في طائفة من الأعراب مما يلي بني سعد والأعراب على متون الخيل وكان من المضمومين جماعة من بني تميم[18]، ويحيى البحراني مما يلي نهر عدي

---

(13) الطبري 3/ 1851

(14) الطبري 3/ 1926

(15) الطبري 3/ 1851

(16) الطبري 3/ 1852

(17) الطبري 3/ 1850

(18) الطبري 3/ 1848-9

وضم سائر الأعراب إليه، أما القوات الثالثة فكانت مع يحيى وتقدمت مما يلي قصر أنس، ولم تذكر قوات من الأعراب.

غير أن أهل البصرة العرب قاوموهم ولم ييسروا تقدمهم و«خرجت عامة جماعة من بني تميم وبني أسد» فزعموا أنهم أصحاب العلوي المضمومين إلى علي بن أبان المتقدم من بني سعد ويحيى بن محمد المتقدم من المهالبة وقاتل من يرد من ناحية بني سعد جماعة من مقاتلة السعدية خيلاً من الأعراب ورجاله الزنج بقيادة علي بن أبان ثم دخلت تميم في سلم صاحب الزنج[19].

ثم إن بريه تقدم فيمن كان بقي من الخول وجماعة الجند فساروا حتى انتهوا إلى خندق يعرف ببني حمان، ووافاهم بنو تميم ومقاتلة السعدية، إلا أنهم اندحروا[20].

وذكر الطبري أن رشيق «أوقع بقوم من بني تميم كانوا أعانوا الزنج على دخول البصرة وإباحتها[21]. ولما انسحب الموفق من قتال صاحب الزنج في تقدمه الأول، استغل صاحب الزنج ذلك فأمر قواته بالتقدم إلى واسط، وشارك الأعراب معه في المعركة التي نشبت عند الشديدية ولما انسحبت قوات صاحب الزنج من جنبلاء تخلص المذوب بالأعراب» غير أن بعض الأعراب وقفوا بوجه تقدمه، فلما تقدم إلى جنبلاء قاتله بنو شيبان وقتلوا عمير بن عامر[22] ومن قبل هذا قاتل الأعراب الزنج مع سليمان ابن أخي الزينبي. واستأمن إلى ابن ليثويه جماعة من الأعراب الذين كانوا مع علي بن أبان واستأمن من وجوههم محمد بن الحارث العمى[23] وجماعة

(19) الطبري3/ 1853

(20) الطبري 3/ 1855

(21) الطبري 3/ 2015

(22) الطبري 3/ 1921-1922

(23) الطبري 3/ 1910

كانوا في عسكر صاحب الزنج[24] وفي قرية عبد الله استأمن منهم قوم[25].

ذكر الطبري أن القلوص الذي ولاه صاحب الزنج البصرة كان يحمل إلى البصرة ما يجلبه الأعراب من التجارات وما يأتونه من الميرة، وذكر مما يجلبون سمك البطليحة[26]، والأغنام[27] وأشار إلى رجل من الأعراب كان يسير بين الزنج والأعراب في جلب الميرة[28].

وذكر أن شهاب بن العلاء العنبري كان «محبباً» إلى العرب، فوجهه بريه لقتال قوات صاحب الزنج[29]، ثم وجهه الموفق مع محمد بن الحسن العنبري من خيل لمنع الأعراب، من حمل الميرة إلى عسكر صاحب الزنج[30].

وذكر «هرب جماعة من العرب من معسكر الغاسق إلى البصرة، وبعثوا يطلبون الأمان فأمنهم أبو أحمد[31] ولا شك أنه قصد «العرب» لا الأعراب.

كان الأعراب يأتون إلى البصرة بالتجارات لعسكره من البادية[32] وأكثر ما يجلبه الأعراب الإبل والغنم والطعام[33] وأمر صاحب الزنج أحمد بن موسى القلوص وأمره بأن يأخذ ما يورده إلى البصرة الأعراب والتجار وما يأتون بها من الميرة وأنواع التجارات[34]، ووجه الموفق شهاب بن العلاء

---

(24) الطبري 3/ 1998
(25) الطبري 3/ 1943
(26) الطبري 3/ 2014
(27) الطبري3/ 2015
(28) الطبري 3/ 2019
(29) الطبري 3/ 1851
(30) الطبري 3/ 2011
(31) الطبري 3/ 2006
(32) الطبري 3/ 2013
(33) الطبري 3/ 2014، 2015
(34) الطبري 3/ 2023

ومحمد بن الحسن العنبريين في خيل لمنع الأعراب من حمل المير إلى عسكر صاحب الزنج[35]. غير أن الميرة ظلت تقدم، ونقلت السلع إلى سوق القلوص ثم سيطر الموفق عليه ومنع جلب الميرة إليه فاشتد عليه الحصار وبلغ الرطل من خبر البر عشرة دراهم فأكلوا الشعير ثم أكلوا سائر الحبوب[36] وظل أبو أحمد بعد ذلك ينفذ السرايا ويحول بينهم وبين طلبهم[37].

اعتمد علي بن محمد في ثورته على من في منطقة البصرة وريفها من عمال الأرض وأكثر من يقوم بالأعمال الشاقة منهم أجانب استوردوا من أفريقية خصوصاً، من العبيد والمحررين وهم من مجموعات متعددة لها أصول لغوية وثقافية منوعة مستواها غير عال، والمرجح أن كثيراً منهم اعتنق الإسلام وتعلم العربية، وقل من شارك منهم في النشاط الفكري والحركات النشيطة ومرجع كثير من ذلك طبيعة عملهم الذي يفرقهم وينشرهم على الأرض ويعطل مغادرتهم لها، أو توسيع آفاقهم الفكرية. فأعمالهم رتيبة ومشاغلهم الفكرية محدودة، وصلتهم بأصولهم أو بمن حولهم محدودة. ولهم طاقة بدنية على تحمل المشاق، تيسر لهم العمل والمشاركة في حرب العصابات، وقل من كان منهم له تدريب عسكري على فنون القتال المنتظم الذي للجند، وأبقى صاحب الزنج سماة من انضمَّ إليهم، فكانوا عند كالعصابات المتفرقة التي تنجز أعمالاً كبيرة محدود نطاقها ولا تشارك في معركة كبيرة تتطلب جيشاً منضبطاً مدرباً عليها.

(35) الطبري 3/ 2015

(36) الطبري 3/ 2053

(37) الطبري 3/ 2072

أهل البصرة

تميزت البصرة ومنطقتها وما يجاورها من كور دجلة والأهواز بالهدوء السياسي، منذ أن قضى الحجاج على حركات الخوارج في أطرافها ولا سيما الأهواز، وعبّر عن ذلك إبراهيم الإمام في وصف المشهور للتيارات السياسية التي تميزت بها الأمصار في أواخر الدولة الأموية فقال عن أهل البصرة: إنها عثمانية تدين بالكف والواقع أنه لم تحدث فيها انتفاضات سياسية عنيفة منذ ولي العباسيون الخلافة، سوى الحركة التي قام بها إبراهيم بن الحسن الذي قام بحركته فيها باسم أخيه محمد النفس الزكية، وظفر بتأييد الزيدية ومن يواليهم خصوصاً، وحظيت حركته بنجاح مؤقت انتهى بمقتله، ولم تظهر بعده انتفاضة غير ما قام به الزط وأهل البطائح من موالي باهلة ثم قضى عليهم المعتصم.

ولم تظهر في البصرة تيارات سياسية ثورية، وكان الفكر فيها متوجهاً إلى اللغة العربية والزهد والاعتزال، وكلها لا تولي الأمور السياسية اهتماماً كبيراً.

ولعل من أبرز عوامل الهدوء السياسي في البصرة وما يجاورها ازدهار الصناعة والمنسوجات في الأهواز، والزجاج في البصرة وتجارة البحر وما تتطلب من اهتمام بالسفن وصناعتها وملاحتها وما تجلبه من أرباح وتوفير العمل في المراكز الرئيسية.

استقرت في البصرة وما حولها نظم تدل على عدم حدوث الانتفاضات والأفكار الثورية فيها وعلى رضى الناس عنها وقناعتهم بسلامتها، بغضّ النظر عن أحكامنا المعاصرة عليها، ومن أبرز سمات هذه النظم هي قلة المدن الكبيرة، ففي منطقة البصرة لم توجد غير البصرة ثم الإبلة والفرات القريبتين منها، وفي الأهواز عدد من المدن في جهاتها الشرقية، وأبرزها سوق الأهواز وتستر والسوس وعسكر مكرم، أما المواضع الكثيرة الأخرى فيبدو أنها كانت

بلداناً وقرى غير كبيرة، ومتفرقة، ومن حيث العموم فإن المنطقة عموماً زراعية، وهي سهلة مستوية قليلة التضاريس، كثيرة الأنهار، وافرة بالمياه، لكن الملوحة الكثيرة فيها، تجعل من كثير من أرضها سباخاً تتطلب معالجتها جهوداً ونفقات لا يقوى عليها إلا ذوو القوة بالمال والجاه، ولا بد لهم من استخدام مكانتهم في تيسير العمل فيها وجعلها صالحة للإنتاج الزراعي المريح. ولم تذكر المصادر معلومات وافية عن تنظيم العمل في هذه الزراعات سوى أن حركة صاحب الزنج تظهر استخدام الزنج والعبيد من الرقيق والمحررين فيها، دون أي منطقة أخرى من العالم الإسلامي عدا الحجاز وربما بعض مناطق اليمن.

لم تنص المصادر على أن صاحب الزنج هيمن على أي مدينة بل ذكرت أن القوات دخلت عدة مدن دون أن يبقوا في أي منها سوى مدة قصيرة، مما يجعل دخولهم أقرب إلى الغزو منه إلى الفتح المستقر وذكروا المذابح التي أنزلوها بعدد من أهل تلك المدن، ولم يشيروا إلى تبديلات أدخلوها في تنظيمها.

ففي 25 رجب سنة 256 دخل الإبلة، وفضل الابتداء بها على عبادان لأنها «أقرب العدو داراً وأولاه بألا يتشاغل بغيرها ثم دخل الإبلة وأضرمت فيها النار، وكانت مبنية بالساج محفوفة بناءً متكاثفاً، فأسرعت فيها النار، ونشأت ريح عاصفة، فأطارت شرر ذلك الحريق حتى وصلت شاطىء عثمان فاحترق، وقتل بالإبلة خلق كثير، وغرق خلق كثير وحويت الأسلاب فكان ما احترق من الأمتعة أكثر مما انتهب[38].

ثم تقدمت قوات صاحب الزنج إلى عبادان، وكان أهلها لما سمعوا بما فعل بالإبلة ضعفت قلوبهم وخافوا على أنفسهم وحرمهم، فأعطوا ما

(38) الطبري 3/ 1836-7

بأيديهم، وسلموا إليه بلدهم فدخلها أصحابه فأخذوا من كان فيها من العبيد، وحملوا ما كان فيها من السلاح إليه، ففرقه على جماعته[39]. ثم تقدمت قوات أصحابه إلى جبى فلم يثبت لهم أهلها، وهربوا منها، فدخلوا فقتلوا، ونهبوا وأخرجوا ما وراءها[40]. ثم تقدموا إلى الأهواز وبها يومئذٍ سعيد بن يكسين وإليه حربها، وإبراهيم بن محمد بن الحسن وإليه الخراج والضياع، فهرب الناس منهم أيضاً فلم يقاتلهم من الجيش أحد، وانحاز سعيد بن يكسين فيمن معه من الجند فدخل الزنج المدينة فاحتلوها.. وكان ذلك في 12 رمضان سنة 256.

كان لهذه الأحداث وقع سيّئ على أهل البصرة فرعبوا رعباً شديداً وانتقل كثير من أهلها عنها، وتفرقوا في بلدان شتى، وكثرت الأراجيف من عوامها[41].

وفي شوال من تلك السنة هاجم صاحب الزنج البصرة، وقتل عدداً من أهلها وأحرق المسجد الجامع وراح إلى الكلأ فأحرقه من الحبل إلى الجسر، والنار في كل ذلك تأخذ كل شيء مرت به من إنسان وبهيمة وأثاث ومتاع وكانوا يقتلون من كان محلقاً، ويأخذون المال من كل ذي مال[42].

وتقدمت قوة من الزنج «إلى الحوانيت والجامدة فأوقعت بأهلها وانتهبت ما كان في تلك القرى وسفك على ما قدر على سفكه من الدماء، ثم عسكر بالحالة فأقام هناك مدة ثم عاد إلى نهر معقل»[43].

وفي السادس من رجب سنة 256 دخل قواد الزنج سوق الأهواز فقتلوا

(39) الطبري 3/ 1537

(40) الطبري 3/ 1835

(41) الطبري 3/ 1838

(42) الطبري 3/ 1847

(43) الطبري 3/ 1858

بها خلقاً كثيراً وقتلوا صاحب المعونة فيها[44].

ولما تقدم الزنج في أواخر سنة 264 إلى واسط هاجم قائدهم سليمان بن جامع الرصافة «فغنم غنائم كثيرة وأحرق الرصافة، ثم أسر جماعة من أهل الحجاجية[45]، ثم تقدم الزنج إلى واسط ودخلوها» فقتل بها خلق كثير وانتهبت وأحرقت[46]. ثم تقدموا إلى جبل، ودخلوا النعمانية فأحرقوا سوقها وأكثر منازل أهلها، وصاروا إلى جرجرايا، ودخل أهل السواد بغداد[47]. وفي الأهواز كرر الزنج الهجوم على رامهرمز واستباحوها[48]. ثم تلا ذلك تقدم أبي العباس وتتابع انسحاب الزنج واندحارهم.

يتبين مما تقدم أن قوات صاحب الزنج دخلت في منطقة البصرة والأهواز وكور دجلة وواسط وعدة مدن كانت مراكز حضرية وإدارية، فهي تسير على وفق نظم مستقرة قد تكون فيها تنوعات جزئية تقتضيها الأحوال المحلية التي قد تستلزم تعديلات موقتة أو دائمية لكنها من حيث العموم تتابع الخطوط العامة التي تسير عليها الإدارة في أرجاء الدولة.

وهذه المدن دخلتها قوات صاحب الزنج بإمرة قواده، ولم تذكر المصادر مدينة دخلتها هذه القوات بإمرته شخصياً، أو أنها استقرت في أي مدينة دخلتها، فعملها أقرب إلى الغزو المؤقت منه إلى الفتح المنظم المستقر. وقامت القوات الغازية بالسلب والنهب والقتل الواسع مما أرهب من بقي ممن لم يكن لجأ إلى الفرار. ولا شك أن هذا أحدث رجة عنيفة في مجتمع هذه المدن ونظمها، ومع أن صاحب الزنج لم يفرض على أي من هذه المدن نظماً جديدة أو موظفين من أنصاره، فإن قصر مدة بقائه في

(44) الطبري 3/ 1875
(45) الطبري 3/ 1924
(46) الطبري 3/ 1925
(47) الطبري 3/ 1932
(48) الطبري 3/ 143

أي من هذه المدن أدى إلى عودة النظم القديمة إلى العمل. وإن كان ذلك بكفاءة أقل وأحوال نفسية يغطي عليها الخوف والقلق.

امتد القلق الذي أصاب المدن إلى أهل الريف، فقد أعلن صاحب الزنج منذ بدايات حركته في الخطبة التي ألقاها يوم الفطر في نهر ميمون منهاج عمله فذكر «ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملكهم العبيد والأموال والمنازل، ويبلغ بهم أعلى الأمور، ثم حلف لهم على ذلك» ولا شك أن المكانة التي وعدهم بها محدودة بالمنطقة التي سيطر عليها، وأن تنفيذها لا يتطلب تبديل أسس النظام القائم، بل يقتصر على تبديل القائمين عليه برفع جماعة جديدة ممن كانوا محرومين، وأن تمليكهم العبيد والمنازل لن يتم في مكان خاص، بل في المناطق كافة التي كانت معمرة من قبل، وتطبيق ذلك يعني إقصاء المتنفذين السابقين أو أكثرهم والإخلال بمن كان يعينهم على السيطرة ممن لهم خبرات واسعة في العمل. وهذا يسهل هدم النظام السابق ولكن لا يمكن أن يحل محله النظام الجديد بيسر وسرعة فلا شك أن الريف أصابته رجة لا تقل عما أصاب المدن لأن كثيراً من رجاله انضموا إلى «جيش» صاحب الزنج أو هربوا، وهو ما أدى إلى تدهور الإعمار وتعطله وهو لا يكلف موارد صاحب الزنج، لأنه سيحصل عليه من منتوجات الملاكين السابقين.

وجّه صاحب الزنج جل اهتمامه إلى المقاتلة الذين انضموا إليه واتبعوا تنفيذ أوامره، لأنهم الأداة الأساسية في تثبيت سلطانه وتوسيع رقعة «دولته» وحمايتها من تهديدات قوات «السلطان» التي لها موارد واسعة وإمكانات بشرية ومالية كبيرة، بالإضافة إلى ميل كثير من الجماهير لها.

وجمع صاحب الزنج أعداداً كبيرة متزايدة من الأتباع المستقدمين للمشاركة في القتال لإسناده، إلا أن هذه الكثرة كانت تتطلب تدبير إعاشتهم، وتنظيمهم لأداء واجب القتال الذي لا يؤدي غرضه دون تنظيم.

أدرك صاحب الزنج منذ وقت مبكر أهمية تنظيم القوات العسكرية في تحقيق أهدافها فيذكر الطبري أنه «لما كثر من اجتمع إليه من الزنج قود قواده، وقال لهم كل من أتى منكم برجل فهو مضموم إليه، وقيل إنه لم يقود قواده إلا بعد انتصاره في بيان وسبخة القندل.

القواد

أشار الطبري في كثير من المواضع إلى «القواد»، كما ذكر الأنجاد وميز بينهما ما يدل على أن أصحاب النجدة وهم الشجعان لا يستلزم أن يكونوا قواداً وأنه يقتضي أن تتوافر في القواد متطلبات القيادة من حسن الإدارة والحزم والتصرف لحفظ التماسك والقدرة على أداء الواجب.

لم يرد ذكر إلى تنظيم مقاتلة علي بن محمد، ولعله تابع فيه تنظيم الجيش العباسي في السنوات الأولى من ثورته، وفي ذلك يذكر الطبري «أن المهتدي أقر للمحتجين» أن ترد الأمور إلى أمير المؤمنين في الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض. وأن ترد رسومهم إلى ما كانت عليه أيام المستعين بالله، وهو أن يكون على كل تسعة منهم عريف، وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد وأن تسقط النساء والزيادات والمعاون ولا يدخل مولى في قبالة ولا غيرها وأن يوضع لهم العطاء في كل شهرين على ما لم يزل وأن تبطل الإقطاعات وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من يشاء، ويرفع من يشاء»[49].

أفاض الطبري في ذكر الحركات العسكرية لقوات صاحب الزنج وهي حركات كثيرة العدد، متعددة الجبهات تطلبتها الأحوال وكثير منها في أكثر من حركة في جهة واحدة، وكانت منوعة فبعضها حركات نهرية وبعضها في الأدغال والبطائح وبعضها في أراضٍ مكشوفة وعدد المشاركين فيها متباين فبعضها غارات صغيرة شاركت فيها قوات قليلة العدد، وبعضها اشتباكات

---

(49) الطبري 3/ 1799

واسعة شاركت في كل منها أعداد كبيرة، وهي من حيث العموم أقرب إلى حركات العصابات التي لا تحتفظ بتوجه واحد غير أن بعضها كانت تسير إلى جهات واحدة، كالذي حدث في التقدم إلى جنوب الأهواز نحو عبادان ورامهرمز أو إلى سوق الأهواز والسوس وتستر وكذلك التي توجهت إلى الشمال فاحتلت واسط وجنبلاء، ووصلت إلى جبل.

لم يرد ذكر لمركز رئيسي لصاحب الزنج وقواته، تتحرك منه القوات إلى المناطق التي توجه إليها، ولعله لم يكن لصاحب الزنج مركز واحد ثابت يقيم فيه ويجمع قواته حوله، بل كانت لقواته مراكز متعددة وقتية يساعدها تنقلها على تجنب معركة واسعة قد تستند إليها قوات السلطان.

ثم شيد صاحب الزنج المختارة في السنوات الأخيرة من حركته عندما انسحبت قواته من المناطق الشمالية في واسط ومن الأهواز، وتعرض للحصار الذي فرضه عليه الموفق بما حشده من قوات كبيرة، ولا شك في أن صاحب الزنج جمع في المختارة كل قواته التي دافعت عنها بعناد طويل وبالرغم من استسلام عدد من قادة صاحب الزنج وقواته. ولا شك في أن هذه القوات التي تجمعت في المختارة كانت قبل ذلك موزعة في أماكن متعددة لم تذكرها المصادر التي اقتصرت على ذكر التحركات دون الإشارة إلى المراكز التي انطلقت منها أو عادت إليها واستقرت فيها مع أسرها وعوائلها.

اقتضى تزايد عدد المنضمين إليه أن يضع لهم تنظيماً ييسر القيام بالمتطلبات العسكرية وذكر الطبري تاريخين للتنظيم أحدهما عندما دحر قوات السلطان في نهر بور واستأمن إليه أبو صالح القصير في ثلاثمائة من الزنج «فلما كثر من اجتمع إليه من الزنج قود قواده، وقال لهم كل من أتى منكم برجل فهو مضموم إليه، وقيل إنه لم يقود قواده إلا بعد موافقة الخول ببيان ومصيره إلى سبخة القندل»[50].

(50) الطبري 3/ 1751 وانظر 1774

احتفظ صاحب الزنج بعدد من الرجال الذين تمسكوا بولائهم له منذ حركاته في منطقة البحرين، وذكر الطبري أن صاحب الزنج «لما انتقل إلى البادية لحقه رجل كيال من أهل الأحساء يقال له يحيى بن محمد الأزرق المعروف بالكيال، ويحيى بن أبي ثعلب، وكان تاجراً من أهل هجر.. وسليمان بن جامع، وهو من بعض موالي بني حنظلة وكان قائد جيشه»[51]. ولا شك في أن هؤلاء هم بعض، وليس كل من لحق به من أنصاره الأولين فقد ذكر الطبري في مكان آخر أن رجاله محمد بن يزيد الدارمي أحد من صحبه بالبحرين[52].

ومما يتصل به في المرحلة المبكرة من دعوته من كان معه في البصرة عندما أعلن حركته، فذكر الطبري أنه لما أعلن دعوته في مسجد ضبيعة «خرج بمسجد عباد محمد بن سليم القصاب الهجري وبريش القريعي، وعلي الضراب، والحسين الصيدناني[53]. وذكر الطبري أن رجاء والي البصرة حبس من أنصاره يحيى بن أبي مصلح ومحمد بن الحسن الإيادي، وأنه لما انتقل إلى بغداد كان معه يحيى بن محمد (الأزرق) وسليمان بن جامع، وبريش القريعي[54].

وذكر أن صاحب الزنج لما ذهب إلى بغداد انضم إليه في دعوته علي بن أباد، ويحيى بن محمد، ومحمد بن سلم، وسليمان بن جامع، ومشرق رقيق غلاماً ويحيى بن عبد الرحمن بن خاقان، ورجل من الجنة يكنى أبا يعقوب، ولقب نفسه بعد ذلك بجربان. وذكر أنه استمال أيضاً جعفر بن محمد الصوحاني ومحمد بن القاسم، وأنه سمى مشرقاً حمزة وكناه أبا أحمد، وسمى رقيقاً جعفر وكناه أبا الفضل[55].

---

(51) الطبري 3/ 1744
(52) الطبري 3/ 1749
(53) الطبري 3/ 1745
(54) الطبري 3/ 1746
(55) الطبري 3/ 6471-7

لم يرد من الأسماء المذكورة في هذه الأحداث المبكرة، لكنه ذكر في الأحداث التالية. ذكر كل من يحيى بن أبي ثعلب، وبريش القريعي وعلي الضراب، ومحمد بن الحسن الإيادي، وهذا الإغفال لذكرهم راجع إلى أنهم لم يشاركوا في أعمال القتال والمعارك التي أبرز الطبري دور الأفراد فيها ولعل عدم مشاركتهم راجعة إلى أنهم لم يكونوا «مقاتلة» وأنهم تابعوا نشاطاتهم في ميادين النشر السلمي للدعوة ولم يعن الطبري بذكر من أسهم فيها. وليس في الأخبار ما يدل على أنهم تخلوا عن الدعوة، أو جمدوا نشاطهم فيها.

ولم يرد لجعفر بن محمد ذكر في أخبار حوادث صاحب الزنج، ولا بد أنه غير أن جعفر بن أحمد خال ابنه أنكلا[56].

بعد أن اتخذ صاحب الزنج مقامه في برنخل أخذ يعمل على نشر دعوته سلمياً، ولم ينظم في هذه المرحلة المبكرة عدداً كبيراً من المقاتلة، وذكر الطبري أنه بعد انتصاره في نهر جطي ولم يكن عنده إلا ثلاثة أسياف: سيفه وسيف علي بن أبي أبان، وسيف محمد بن سليمان[57]. إلا أن توسع المنطقة التي يهيمن عليها والمقاومة المتنامية التي تزايدت مواجهته لها اقتضت أن يولي اهتمامه بتنظيم المقاتلة الذين تبعوه وفي هذا يقول الطبري أنه بعد انتصاره في نهر ميمون سنة 255 وكثر من اجتمع إليه من الزنج قود قواده وقال لهم كل من أتى برجل فهو مضموم إليه، غير أنه يذكر وقيل إنه لم يقود قواده إلا بعد الوقعة[58].

وذكر الطبري أن بعض أصحابه ذكروا أنه بعد القندل سنة 255 ها هنا

---

(56) الطبري 3/ 1923

(57) الطبري 3/ 1751

(58) الطبري 3/ 1751

قود القواد وأنكر أنه أن يكون قود قبل ذلك، والفرق الزمني ضئيل بين شاسة الروايتين[59].

ويذكر الطبري أن صاحب الزنج كان إذا أرسل اعتزل عسكره بأصحابه الستة، ولم يسم أياً من هؤلاء الستة، سوى أنه ذكر أن محمد بن سليم كان يحفظ عسكره[60]. وتكرر في الأخبار ذكر علي بن أبان ومحمد بن سليم وسليمان بن جامع فقد وجهه إليهم رسالة[61] فلعلهم من القواد الستة.

إن محمد بن سليم القصاب الهجري هو أحد من خرج معه في مسجد عباد وذهب معه إلى بغداد[62].

علي بن أبان المهلبي

كان أبرز القادة في حركة صاحب الزنج علي بن أبان المهلبي، وتشير نسبته إلى أنه كان من المهالبة وهي أسرة انتقلت من عمان إلى البصرة في أوائل تأسيسها، وبرز منها رجال كان لهم دور كبير في الإدارة وقيادة الجيوش في البصرة وخراسان ومن أبرزهم المهلب بن أبي صفرة وأولاده، وكانت علاقتهم قد ساءت مع الخلفاء الأمويين وتزَعَّم ابن المهلب ثورة في منطقة البصرة في زمن خلافة عمر بن عبد العزيز الذي قضى عليها فتضعضعت مكانة الأسرة، ولما ولي العباسيون الخلافة قربوا بعض رجالهم وولوا أحدهم المغرب، ولم يذكر من أشغل منصباً بارزاً غيره لكن الأسرة احتفظت بمكانتها المرموقة في الأزد بالبصرة.

التحق علي بن أبان بصاحب الزنج عندما حاول نشر دعوته الأولى في

---

(59) الطبري 3/ 1771

(60) الطبري 3/ 1760

(61) الطبري3/ 1755

(62) الطبري 3/ 91745

البصرة[63] وانتقل معه إلى بغداد ثم عودته منها واتخاذ مقره في برنخل[64]. وكان أحد السيوف الثلاثة الوحيدة معه، والأحزاب سيفه وسيف[65] ثم كان أحد أصحابه الستة[66]. وشارك في أكبر العمليات الأولى شرقي منطقة البصرة فقد ذهب محمد مع محمد سليم وسليمان بن جامع لقتال رميس وهاجم الجعفرية[67]، وقاتل مع الزنج في برد الخيار[68]، ثم شارك في الهجوم على أطراف البصرة في نهر شيطان[69] وفي منطقة قنطرة أربك وجبى[70]. وشارك في غزو البصرة، وهجم عليها مع الأعراب الذين ضمهم إليه صاحب الزنج، وتقدم إليها من جانبها الغربي مما يلي بني سعد، وكان أول من أوقع بأهل البصرة وكانت رايته صفراء، وتابع هجومه على البصرة وأوقع بأهلها مذابح ثم انسحب[71]. ثم عاد يتابع نشاطه في الأهواز ومقاتلة[72] قوات الخلافة العباسية في جين[73] واشتركت في معركة بدولاب[74] وكانت أكثر قواته من السودان[75] وأحرز بعض الانتصارات التي قادته إلى الاحتكاك بالصفارين[76] والأكراد[77] وكان الغالب عليه محمد بن

(63) الطبري 3/ 1745
(64) الطبري 3/ 1747
(65) الطبري 3/ 1751
(66) الطبري 3/ 1751
(67) الطبري 3/ 1767
(68) الطبري 3/ 1763
(69) الطبري 3/ 1784
(70) الطبري / 1845-6
(71) الطبري 3/ 1849، 1851
(72) الطبري 3/ 1854
(73) الطبري 1865
(74) الطبري 3/ 1877
(75) الطبري 3/ 1909
(76) الطبري 3/ 1914
(77) الطبري 13/ 1943

يحيى[78] ثم سار لتعزيز سليمان إلى أبي الخصيب[79].

ولما تقدم الموفق لحصار صاحب الزنج في مدينته المختارة، كان علي بن أبان مع صاحب الزنج يدافع عنها مع سليمان بن جامع وإبراهيم بن جعفر[80] وقاتل عند القنطرة وعند الجسر[81]، وعند دار داره[82]، وظل يقاتل مع صاحب الزنج إلى الأخير وقتل معه[83].

قاتل مع علي بن أبان أخواه الخليل ومحمد اللذان انضما معه إلى صاحب الزنج عندما قام في حركته الأولى في البصرة[84]، وكان الخليل يقاتل بإمرة أخيه علي الذي وجهه في جمع كثير من السودان وغيرهم إلى السوس لكنهم اندحروا[85] ثم وجهه إلى ابن ليثويه، فقاتله في الشديدية[86]، وأرسله صاحب الزنج مدداً لسليمان بن جامع في الشديدة[87]، وقاد قوة من الفرسان إلى جنبلاء[88] ثم عاد إلى الأهواز فقاتل في المسرقان[89] وكان في مقدمة القوات التي هاجمت قنطرة أربك، ثم في قتال الأكراد[90].

وقاتل مع علي بن أبان ابن أخيه محمد بن صالح أبي سهل في معركة

---

(78) الطبري 3/ 1945
(79) الطبري 3/ 1976
(80) الطبري 3/ 1203
(81) الطبري 3/ 2050، 2060
(82) الطبري 3/ 2074، 2088
(83) الطبري 3/ 2092، 2093
(84) الطبري 3/ 1745
(85) الطبري 3/ 1908
(86) الطبري 3/ 1925
(87) الطبري 3/ 1925
(88) الطبري 3/ 1926
(89) الطبري 3/ 1934
(90) الطبري3/ 1937

عند قنطرة أربك بالأهواز(91). وتجدر الإشارة إلى الحسن بن عثمان المهلبي، الملقب بمندلقة الذي قاتل مع يحيى بن محمد في هجومه على البصرة(92)، ولم يذكر له دور آخر، وذكر الطبري له رواية رواها محمد بن الحسن، ما يدل على أنه سلم وظل حياً بعدها.

كان الغالب على علي بن أبان والمصرف له برأيه محمد بن يحيى الكرماني(93) وكان خليفته(94). وقد ضمن له محمد بن عبيد الله مالاً(95)، ولما تقدم الموفق إلى الأهواز تركها علي بن أبان واستخلف عليها محمد بن يحيى الكرنبائي (ولا بد أنه هو الكرماني) قد حل عليه الكرب والوجل فأخلى ما استخلف عليه(96). ولم يذكر لمحمد هذا دور في الحوادث إلا أنه تردد ذكر داره في المختارة، وكانت بصف دار صاحب الزنج في شرقي (شمال) نهر أبي الخصيب(97)، تشرع على نهر دجلة، وهي في فوهة نهر أبي الخصيب(98) وكانت مركز مقاومة جيش الموفق عندما تقدم للسيطرة على المختارة وقد أحرقت هذه الدار في القتال(99).

أما سليمان بن جامع فهو من موالي بني حنظلة، انضم إليه في البحرين وانتقل معه إلى البادية(100)، وظل معه عندما انتقل إلى بغداد بعد

(91) الطبري 3/ 1944، 1945
(92) الطبري 3/ 1910
(93) الطبري 3/ 1946
(94) الطبري 3/ 1900
(95) الطبري 3/ 1946
(96) الطبري3/ 1975
(97) الطبري 3/ 2044
(98) الطبري 3/ 1086
(99) الطبري 3/ 1045، 2053، 2074
(100) الطبري 3/ 1745

فشل دعوته من البصرة[101] وكان قائد جيشه[102] وقاتل في المسيب[103] وفي قنطرة أربك[104] وقاد جيشاً قوامه ألف رجل فدحروا جيش سعيد[105] ثم تقدم مقدمة لجيش يحيى بن محمد من البطيحة[106] وهاجم سوق الأهواز مع علي بن أبان ويحيى البحراني[107]، وقاتل موسى بن أحمد في الباذاورد، وتقدم إلى البطيحة فعسكر بالمطوعة[108] وسار إلى الحوانيت وتعاون مع الباهليين[109]. وكان الجبائي تابعاً له[110] ثم تقدم إلى الحجاجية ومعه عدد من السودان ورجالتهم[111] ثم تقدم إلى الشريطية، وتحصن في المنصورة عند طهيثا[112]، ولكنه اندحر وهرب وأسر عدة من نسائه وأولاده[113] وأمر صاحب الزنج بمداد المهلبي بجمع من الزنج كثير، إلا أن الزنج استسلموا. وكان له قصر في المختارة[114] وقاتل عند قصر صاحب الزنج[115]، وعند القنطرة، وحامى عن الجسر[116] وكان من أكثر صاحب الزنج غناء[117] ثم أسر وصلب.

(101) الطبري 3/ 1947
(102) الطبري 3/ 1745
(103) الطبري 17543
(104) الطبري 3/ 1782
(105) الطبري 3/ 1843
(106) الطبري 3/ 1867
(107) الطبري 3/ 1876
(108) الطبري 3/ 1899
(109) الطبري 3/ 1902
(110) الطبري 3/ 1904
(111) الطبري 3/ 1926
(112) الطبري 3/ 1966
(113) الطبري 3/ 1917
(114) الطبري 3/ 2032
(115) الطبري 3/ 2050
(116) الطبري 3/ 2066
(117) الطبري 3/ 2085

ومن قواده الخليل بن أبان المهلبي وكان له دور منذ الأيام الأولى من حركة صاحب الزنج، فقد كتب له محمد بن عبيد الذي كان على السوس يطعمه في الميل إلى صاحب الزنج وأراد صاحب الزنج أن يكون علي بن أبان المتولي لها ويخلفه محمد بن عبد الله «وجَّهَ علي بن أبان أخاه الخليل بن أبان في جمع كثير من السودان وغيرهم» ولكنهم اندحروا[118]، ثم وجهه مع ابن أخيه ابن صالح المعروف بأبي سهل في جيش كثيف إلى تستر، وشارك في كمين نصب لقوات ابن الليث، ولما تقدمت قوات صاحب الزنج إلى الشديدية كتب قائده سليمان بن جامع يستمده» فوجه إليه الخليل بن أبان في زهاء ألف وخمسمائة فارس فدخل واسط وكان يقود الخيل[119] وفي قنطرة فارس قدم علي بن أبان أخاه الخليل وجعله في الجانب الغربي[120] وكانت له داره في المختارة[121].

أما محمد بن أبان فهو المعروف بأبي الحسن فقد شارك في القتال برمساور[122] وكان في منذران جمع من الزنج[123]، وكانت له دار في المختارة انتهبت عندما دخلها الموفق[124].

يحيى بن محمد الأزرق

ومن قواد صاحب الزنج يحيى بن محمد الأزرق المعروف بالبحراني، وهو كيال من أهل الأحساء[125] رافقه إلى البصرة وكان ممن حبسهم أبو

---

(118) الطبري 3/ 1909

(119) الطبري 3/ 1925

(120) الطبري 3/ 1993

(121) الطبري 3/ 2088

(122) الطبري 3/ 1990

(123) الطبري 3/ 1774

(124) الطبري 1080

(125) الطبري 3/ 1754

رجاء والي البصرة[126]. وشارك في الهجوم على الجعفرية[127]، ولحق محمد بن سليم في برد الخيار[128] ثم وجه إلى سنداذان[129] ثم شارك في الهجوم على قنطرة حرب[130]، وتقدم بعد ذلك بجيش لمقاتلة شاهين بن بسطام، ولكنه لم يظفر[131]. ثم توجه سعيد[132]، وشارك في حصار أهل البصرة وكان في جهة من نهر عدي والخريبة[133]، وأسهم في قتل أهل البصرة[134] ثم أسر عند نهر العباسي، وتحاسد مع علي بن أبان، وكان على مقدمة جيش سليمان بن جامع[135] ثم أسر وأمر أبو أحمد بقتله[136].

ومندلقة الذي لم يذكر في غير هذا النص هو الحسن بن عثمان المهلبي.

محمد بن سليم

من القواد الأولين البارزين لصاحب الزنج محمد بن سليم القصاب الهجري ولعله ممن قدم معه من البحرين كما تدل عليه نسبته إلى هجر، وكان ممن خرج من مسجد ضبيعة في حركته الأولى بالبصرة، فقبض عليه ابن رجاء والي البصرة وحبسه[137] ولا بد أنه خرج من السجن، وأول ذكر

---

(126) الطبري 3/ 1746
(127) الطبري 3، 1755
(128) الطبري3/ 1763
(129) الطبري 3/ 1782
(130) الطبري 3/ 769
(131) الطبري 3/ 1838
(132) الطبري 3/ 1843
(133) الطبري 3/ 1849
(134) الطبري 3/ 1854
(135) الطبري 3/ 1998
(136) الطبري 3/ 1871
(137) الطبري 3/ 1750

له هو إشارة الطبري إلى أن سيفه كان مع سيفه أبان الوحيد مع صاحب الزنج في أول الحركة[138] وقاتل في برد الخيار مع علي بن أبان ويحيى بن محمد[139].

شارك محمد بن سليم في حصار الجعفرية، ودفعت إليه غنائمها[140]، وكان واحداً من ثلاثة وجه إليهم والي الأهواز العباسي رسالة إلى صاحب الزنج، والآخران هما علي بن أبان وسليمان بن جامع[141] وشارك في معارك نهر ميمون[142]، والشيفيا[143] والدراورد، وخرج مع علي بن أبان إلى سنداران[144] وشارك في القتال على قنطرة نهر كثير[145]، وقتل في المعركة[146].

سليمان بن موسى الشعراني

ومن قادة صاحب الزنج سليمان بن موسى الشعراني، وتسميته نسبة إلى الشعر الكثيف ولا توجد إشارة إلى أهله أو خلفيته. وقد أصبح من رؤوس صاحب الزنج.

وأول ذكر له في أخبار حصار البصرة حين وجهه صاحب الزنج إلى القندل لتدريب الأعراب، ثم هاجم بقواته البصرة من جهة بني سعد غربي البصرة[147]. ولما تقدمت قوات صاحب الزنج إلى سوق الأهواز بقيادة علي بن أبان المهلبي، كان هو ويحيى بن محمد البحراني ممن سار معه، ثم

(138) الطبري 3/ 1763
(139) الطبري 3/ 1752
(140) الطبري 3/ 1767
(141) الطبري 3/ 1752
(142) الطبري 3/ 1762
(143) الطبري 3/ 1762
(144) الطبري 3/ 1769
(145) الطبري 3/ 2069
(146) الطبري 3/ 1818
(147) الطبري 3/ 1849

تقدم إلى فوهة نهر اليهودي[148]، فالقادسية فالحوانيت، فنهر أبان[149] واتخذ له في سوق الخميس مدينة سماها المنصورة[150] ثم هاجمه أبو العباس فدحره. ثم استسلم للموفق مع أخويه محمد وعيسى اللذين كانا يلازمانه ويحضران بحضوره ويغيبان بغيابه[151] ويقاتلان معه في خيله ورجله، واختل باستسلامهم ما كان صاحب الزنج يضبط به مؤخر الجيش[152].

الجبائي

ومن قواد صاحب الزنج أحمد بن مهدي الجبائي، وهو من أهل جبى[153] ذكر لأول مرة في تقدم قوات صاحب الزنج إلى الحوانيت حيث كان في السميريات أمام جيش سليمان بن جامع فتقدم إلى الحوانيت، ثم هزم رميس. عند نهر سنداد[154]، ووصل بسميرياته إلى النهر العتيق[155]، ثم إلى براطق[156] ووصل إلى جنبلاء ثم انسحب إلى برتمرتا. وكان في مقدمة جيش سليمان في تقدمه إلى نهر أبان[157]. وكانت السميريات فيها أربعين مجدافاً، في كل سميرية مقاتلان، ومع ملاحيها السيوف والرماح والتراس[158]، ثم قتل في طهيثا[159].

وارتفعت حال أحمد بن مهدي الجبائي عند صاحب الزنج فولاه أكثر

---

(148) الطبري 3/ 1899
(149) الطبري 3/ 1948
(150) الطبري 3/ 1959
(151) الطبري 3/ 2007
(152) الطبري 3/ 2069
(153) الطبري 3/ 1899
(154) الطبري 3/ 1899
(155) الطبري 3/ 1905
(156) الطبري 3/ 1910
(157) الطبري 3/ 1925
(158) الطبري 3/ 1948
(159) الطبري 3/ 1953

عمال وهم إليه محمد بن إبراهيم، ثم صار مكانه[160]. ثم قتل وهو يدافع عن طهيثا مدينة سليمان بن جامع[161].

لم يذكر الطبري في أخباره عن حوادث صاحب الزنج دور كل من بني الشماس وبريش القريعي، وبسر الخادم، ورقيق، وعلي بن محمد الأزرق البحراني، وعلي الضراب، وغانم الشطرنجي، ومحمد بن القاسم، ويحيى بن عبد الرحمن، ومحمد بن الحسن الإيادي، ويحيى بن أبي ثعلبة وكلهم ممن انضم إليه في دعوته الأولى في البحرين. وذكر مشرف في مكان واحد حيث قال إنه أعطاه أحد السيوف الثلاثة التي تجمع في الجعفرية[162]. ذكر الحسن الصيدناني وهو أحد الأربعة الذين ظهروا بمسجد عباد عند دعوته الأولى في البصرة، وشارك في معركة عند نهر بيان[163]. ولم يذكروا في غير هذين الموضوعين، ما يدل على أنه لم يكن لأي منهما دور كبير في الأحداث التالية.

ومن البارزين المنضمين إلى صاحب الزنج محمد بن عبد الله المكنى أبا الليث وهو من أهل أصبهان فقدم إلى صاحب الزنج معلناً رغبته في صحبته فقبله[164] ووجهه مع زريق لمقاتلة أهل البصرة في نهر شيطان[165]، ثم كان مع سليمان بن جامع في جيش كثيف، وشارك في غزو البصرة وحرض الزنج على قتل ابن المهلب[166]، وأرسل مع الشذا إلى نهراو[167]، وقاتل في الخيزرانية[168] حيث اندحر الزنج، ولكنه أفلت. وكان

(160) الطبري3/ 1968
(161) الطبري 3/ 1963
(162) الطبري 3/ 1754
(163) الطبري 3/ 1769
(164) الطبري 3/ 1771
(165) الطبري 3/ 1783
(166) الطبري 3/ 1855
(167) الطبري 3/ 1808
(168) الطبري 3/ 1865

على الخيل[169].

ومن قواد البحريين الزنجي بن مهران، وكان في الشذوات عندما تقدم سليمان بن جامع إلى جنبلاء[170]، والحوانيت وهواشتيام[171] وقد أقام في الشديدة[172]، ولم يرد له ذكر في الأحداث بعد ذلك.

الوظائف الإدارية

ذكر في أخبار حركة صاحب الزنج عدد من الوظائف الإدارية وبعض شاغليها.

فذكر الطبري «دواوين الخبيث، وخزائنه[173]، وكان محمد بن سمعان كاتب الخبيث ووزيره[174] وعلى الشرط يسار بن يحيى[175] وكان محمد بن إبراهيم أبو عيسى يكتب إيسار فلما ارتفعت حال أحمد بن مهدي ضم إبراهيم إليه[176]، وفي حصار الموفق المختارة ضم إلى محمد بن جارية لحفظ عسكر منكي والسور الذي يليه[177]، وكان لصاحب الزنج منبر وقاض في المختارة[178] لم تذكر المصادر من شغله. وذكر أن قاضيه بالحجاجية سعيد بن راسب العدوي[179]، وولي عبد الله بن محمد بن هشام الكرماني القضاء والصلاة بطهيثا[180].

---

(169) الطبري 3/ 1861

(170) الطبري 3/ 1925-1926

(171) الطبري 3، 1928

(172) الطبري 3/ 1928

(173) الطبري 3/ 2035

(174) الطبري 3/ 12043

(175) الطبري 3/ 1979

(176) الطبري 3/ 1979

(177) الطبري 3/ 1998

(178) الطبري 3/ 2063

(179) الطبري3/ 1924، وانظر عن

(180) الطبري 3/ 974.

لم ترد إشارة إلى تاريخ تعيين من ذكرناهم. ومدة بقائهم في أعمالهم، ومن عين غيرهم في هذه الأماكن وغيرها وهي في أي حال تضمن اهتمامه بأمان جهاز إداري واضح المعالم.

الفصل الثامن

التنظيمات المالية

الموارد المالية: الجبايات

كانت موارد الدولة في البصرة عند أول توسع الدولة مما يجبى فيها ومن الأقاليم التي فتحها المقاتلة المقيمون فيها ويوزع أكثرها على عطاء ورزق المقاتلة. فلما ولي العباسيون الخلافة توقف توزيع العطاء والرزق في زمن مبكر لم تذكره المصادر وأصبحت جبايات الأقاليم تذهب إلى بغداد، وهي مقر الخلافة وأكثر الجيش، فلم يعد يصرف من الجبايات على البصرة إلا مقادير محدودة بنفقات الوالي وأهل الدواوين القليلة العدد، والقوات المسؤولة عن حفظ الأمن من الشرطة ورجال المعونة والأحداث، وبعض نفقات المتطلبات المحدودة، ولم تكن في جملتها كبيرة بالنظر إلى الاستقرار الذي ساد البصرة ومناطقها وأطرافها ما قلل الحاجة إلى إقامة دائمية لجيش كانت النفقات عليه أكبر أبواب الصرف. ويظهر من أخبار حركات صاحب الزنج أن البصرة لم تكن تقيم فيها قوات عسكرية كبيرة لأنها لم تكن مهددة، وكانت مراكب البحر يبذر منها رجال يدفع نفقاتهم أصحاب السفن.

كان المصدر الرئيسي لموارد الدولة ما يجبى من الأراضي المزروعة،

وكانت أرض البصرة وبعض أراضي كور دجلة عشرية[1] لأنها «أحياء موات»، أي إنها كانت قبل الفتح جرداء، فأحياها العرب المسلمون. وفي الكتب إشارات إلى بعض حدود هذه الأراضي العشرية، فذكر البلاذري أن السلطات اعتبرت بعد اعتراضات أراضي فرات ميسان، وهي من كور دجلة في غربي دجلة البصرة، أراضي عشرية[2] ومما شملته الفرات هطمة[3] ونهر المبارك[4] والشعيبة[5].

ذكرت بعض المصادر أن جباية كل من البصرة وكور دجلة والأهواز. فذكر اليعقوبي أن جباية كور دجلة كانت في زمن خلافة معاوية عشرة آلاف درهم[6]، وقدر ابن المطرف في أول زمن خلافة هارون الرشيد جباية كور دجلة 20800000 درهم، وجباية الأهواز 25.000.000 درهم وثلاثين ألف رطل من السكر[7]، ولم يذكر تقدير جباية البصرة.

وذكر ابن خرداذبة أن كور دجلة في سنة 204 تشمل بهمس أردشير (الفرات)، وميسان ودست ميسان. وأبر قباذ (الإبلة) وتقدير جبايتها 8.500.000 درهم[8]، ولم يذكر صدقات البصرة.

وذكر قدامة أن طساسيج كور دجلة وهي يهمشير وميسان ودست ميسان وأبر قباذ رمح دجلة[9]، وأن ارتفاع كور دجلة على عبرة سنة 260

---

(1) الخراج لأبي يوسف 59، الخراج ليحيى بن آدم 209، «البلدان» لابن الفقيه 16

(2) فتوح البلدان 267.

(3) معجم البلدان 3/ 242

(4) معجم البلدان 3/ 978

(5) فتوح البلدان 270

(6) التاريخ 2/ 272

(7) الوزراء والكتاب 282

(8) المسالك 76

(9) الخراج وصنعة الكتاب 235

كانت 900 كر حنطة، 4000 كر شعير 4300 ورق[10]. وذكر طساسيج كور دجلة الأربعة مضافة إلى أعمال البصرة، ومنها ما دخل في البطائح[11]، وأن صدقة البصرة كانت ترتفع في السنة 6.000.000[12] وأن جباية الأهواز على التقريب والتوسط 18.000.000[13]، غير أنه ذكر في مكان آخر أن جباية الأهواز 24.000.000[14]. وذكر أن صدقة البصرة كانت ترتفع في السنة 6.000.000 درهم[15]، وأن جباية الأهواز على التقريب والتوسط 1.800.000 درهم[16]، ويلاحظ أن التباين كبير بين رقمي جباية الأهواز، ونرجح أن الرقم الأول من خطأ النساخ.

ادعى قدامة أن التقدير الذي كتبه هو ما كان قائماً سنة 248، إلا أن تطابقه مع تقدير ابن خرداذبة لسنة 204 قد يدل على أن تقدير سنة 204 ظل معمولاً به، أو أن قدامة ذكر سنة 248 أو عن إستان معين.

ومن المفيد أن نذكر أن ابن أبي البغل كتب إلى الوزير العباس بن الحسن أن صدقات أرض العرب بالبصرة لسنة 293 كانت 110.000 دينار، وكانت قبلها 960.000 دينار ثم تبين من تدقيق السجلات أن جباية البصرة كانت تبلغ تسعاً وتسعين ألفاً وأن ابن أبي البغل أضاف ستة آلاف دينار عن ارتفاع الشعيبي والولد[17].

وقدر علي بن عيسى في سنة 306 صدقات أراضي العرب بالبصرة

(10) الخراج وصنعة الكتاب 239
(11) الخراج وصنعة الكتاب 237
(12) الخراج وصنعة الكتاب 239
(13) الخراج وصنعة الكتاب 242
(14) الخراج وصنعة الكتاب 249
(15) الخراج وصنعة الكتاب 239
(16) الخراج وصنعة الكتاب 242
(17) «الوزراء» الصابي 185

والمراكب بها وسائر ما ينتسب إليها ويجري من مرافقها 1847734 ديناراً[18]. وفي سنة 319 ضمن البريدي الأهواز والبصرة بأكثر 18.000.000 درهم خراجية[19]. وفي سنة 385 كان ارتفاع البصرة من وجوه أموالها وجبايتها من أعشارها وجماجمها وضمان البحر بلوازم المراكب 6.000.000 درهم. وذكرت جبايات البصرة عن سنوات متفرقة تالية بحوالى 300.000 دينار.

إن أرقام جبايات كل من البصرة، وكور دجلة والأهواز متقاربة، والاختلافات فيها ترجع إلى تبدل عبراتها في بعض السنين بسبب أحوال خاصة يخرج بحثها عن نطاق دراستنا، علماً بأن سعر صرف الدينار كان من حيث العموم يساوي خمسة وعشرين درهماً.

لم تذكر المصادر من أبواب جبايات كل من الأقاليم الثلاثة غير ما ذكر قدامة عن جباية كور دجلة من الشعير والحنطة والدراهم[20] التي يرجح أن أغلبها مما يفرض على منتوجاتها الزراعية من الأرز والحنطة والشعير والسكر وربما مما يفرض على المنسوجات التي اشتهرت الأهواز بكثرة مراكزها فيها.

أما جباية البصرة فقد أشارت عدة مصادر إلى أنها من عشور المزروعات ومن مراكب البحر ومن التجارة البحرية، ولم تذكر المصادر مقدار الجباية من كل من هذين المصدرين أو أصناف المنتوجات الزراعية في منطقة البصرة سوى ما ذكره مسكويه من تذمر أهل البصرة من كبر المقدار الذي فرض على أهلها في زمن البريدي على تقدير ما يفرض على الكر المعدل من الحنطة ومقداره مائتي دينار، ثم تناقضت العمارة فألزم أهل

---

(18) «الوزراء» للصابي 9

(19) تجارب الأمم لمسكويه 10/ 381

(20) الخراج وصنعة الكتاب 239

البصرة أن يزرعوا تحت النخيل الحنطة والشعير[21] ويدل هذا النص على أن النخيل هو المنتوج الأكبر بالبصرة، وأن الناس لم تكن ملزمة بزراعة الحنطة والشعير.

يتبين من الأرقام المتفرقة في زمنها أن معدل جباية منطقة البصرة رغم تذبذبه، كان بين 3 ـ 6 آلاف درهم، علماً بأن الضريبة عشرية، وأن قسطاً غير قليل يأتي من جباية تجارة البحرية، وهي عشرية كذلك، إلا أنها لم تكن قليلة، وإن لم تذكر المصادر مقدارها الإجمالي في أي سنة وهي في أي حال لا تفوق ما يجبى من عشور المزروعات.

كانت معظم العشور تجبى من التمور ويدل قرار البريدي بإلزام أهل البصرة زراعة الحنطة والشعير تحت النخيل على أن هذين المنتوجين لم يكونا مما تكثر زراعته في منطقة البصرة، وقد يؤيد هذا الجهود الكبيرة التي بذلها صاحب الزنج والسلطان لتأمين توفير الحاجات المعاشية الأساسية لأهل البصرة، ما يدل على قلة منتوجاتها في المنطقة التي كانت قائمة على النخيل، وربما بعض الخضر التي لا تجبى عليها الضرائب.

تكشف الأحوال إبان حركة صاحب الزنج أخبار حركات صاحب الزنج أن منطقة البصرة لم تكن تسد الحاجات المعاشية لأهلها، علماً بأنه لم تكن فيها من المدن الكبيرة غير البصرة، وقد نضيف إليها الإبلة، وأن أكثرية السكان فلاحون متفرقون في مساكنهم ويعتمدون في معاشهم على المنتوج المحدود من أراضيهم وأن أهل البصرة كانوا يعتمدون في معاشهم وحاجاتهم الأخرى، على ما يستورد من المناطق المجاورة في غربيها والصحراء أو من شرقيها (الأهواز) وربما من كسكر، وما يلفت النظر اعتماد أهل البصرة في حاجاتهم من الأسماك على البطيحة، وليس على شبكة الأنهار التي تمون البصرة اليوم بأكثر ما تحتاجه من السمك بالإضافة إلى أسماك دجلة البصرة.

---

(21) تجارب الأمم 5/ 127-129

تظهر أخبار حوادث صاحب الزنج أن الإقليمين اللذين في شرقي منطقة البصرة كانا أغنى بالمنتوج الزراعي، فكور دجلة كانت تنتج الشعير والحنطة وربما الأرز، وجبايتها غير قليلة. أما الأهواز فكانت أكبر إقليم ينتج في القرون الإسلامية الأولى السكر، وربما الشعير والحنطة، والمنسوجات[22] علماً بأن أراضيها القريبة من دجلة البصرة فيها كثير من الأملاح والشورج والسباخ أما المناطق الشرقية منها فأرضها مرتفعة نسبياً، تخترقها أنهار لا تكون في أطرافها العليا سباخاً، فهي عموماً أغنى في منتوجاتها من البصرة وكور دجلة، ومظهر ذلك جبايتها العالية نسبياً (تزيد على عشرين ألف درهم)، واهتمام السلطان بوضع حامية عسكرية فيها دون البصرة وكور دجلة. وقد يفسر هذا الوضع توجيه صاحب الزنج حركاته الأولى في توسيع سلطانه إلى كور دجلة والأهواز وليس إلى منطقة البصرة التي أدرك اعتمادها المعاشي على الإقليمين الشرقيين مدركاً أن حرمانها من الاستيراد من هذين الإقليمين سيضعفها ويجبرها على الاستسلام إليه دون قتال، والواقع أنه بقدر ما ظفر بنجاح في هذين الإقليمين في أول مراحل حركته، فإنه لقي مقاومة من قوات السلطان، ومن يعقوب بن الليث الصفار الذي كان يسعى إلى السيطرة على الأهواز، وظفر بنجاح أوسع بكثير مما ظفر به صاحب الزنج، ولم يكن معتمداً في جيشه على الزنوج أو عمال الأرض كما فعل صاحب الزنج ولا بد أن صاحب الزنج استفاد مما سيطر عليه من أصحاب الأراضي وملاكيها، وربما من غيرهم من أصحاب الثروات والتجار، وفي المصادر ولا سيما البلاذري أشارت إلى بعض ثروات بعضهم وما تملكوه من أراضٍ وعقار، كما أن المصادر أشارت إلى ما حصل عليه وجنوده من منهوبات وإلى ما تملكه عدد من كبار أنصاره من ثروات. وقد أشارت بعض المصادر إلى الثروات التي جمعها سليمان بن علي عندما ولي

(22) انظر كتابنا الأهواز في العهود الإسلامية الأولى ففيه تفاصيل أوفى

البصرة، وإلى أملاك الهاشميين ونهب صاحب الزنج وجنده لها، وكانت هذه المنهوبات غنائم غير منتظمة أو وفق قانون، ولكنها أضعفتهم ولم تيسر تقويتهم للمقاومة، فهي مقاومة سلبية لا تدعمها قوات عسكرية خاصة كما أن مصالحهم المشتركة كانت أضعف من أن تكون قوة جامعة تمكنهم من إبداء مقاومة فعالة.

النفقات العسكرية

اعتمد صاحب الزنج على تحشيد أكبر ما يستطيع من الطاقات البشرية الميالة إلى اتباعه ولم يكن لها الانضباط والتدريب العسكري المطلوب لتحقيق نصر حاسم، فكانت أعماله العسكرية أقرب إلى حرب عصابات تعتمد على حركات جزئية نشيطة ومتفرقة ومباغتة منها إلى استعدادات واسعة لمعارك كبيرة حاسمة، فهو معرض إلى كثير من الانتصارات والانتكاسات الجزئية المتفرقة في زمانها ومكانها مما أتعبت قوات السلطان ولم تيسر لهم القضاء عليها إلا في مراحلها الأخيرة، ولعل هذه بعض العوامل التي دفعته إلى أن يغزو ولا يستقر في الإقامة في أي منها، ومن هنا يمكن تحديد ميدان حركاته وليس المكان الثابت الذي استقرت فيه دولته.

كانت المتطلبات العسكرية الباب الأكبر للنفقات التي على صاحب الزنج تأمينها للأعداد المتزايدة من المنضمين إليه وتكريس أوقاتهم للقتال الذي أشغل معظم أيام سلطانه. وتشمل هذه المتطلبات توفير موارد لسد نفقات معيشتهم وتجهيزاتهم والصرف على أسرهم، ولا بد أنه اتبع الأسس التي كانت تسير عليها الدولة بدفع «عطاء» بالنقود للمقاتلة على وفق أسس متعددة ومتبدلة. إذ قد تكون شهرية أو كل عدة أشهر، وإن كانت تقوم على تقدير إجمالي سنوي، لا نعلم أياً منها اتبع، إلا أن كثرة المعارك التي خاضها، والعتاد الذي أبدوه، كان من دوافعه ليس مجرد الآمال التي مناهم بها، بل أيضاً توفيره الحد الأدنى لمتطلباتهم المعيشية ومتطلبات أسرهم التي

وإن كانت بسيطة، فهي قائمة لا تسدها ما ينهبونه من أهل المدن التي غزوها أو المزارع التي اجتاحوها. ولا شك أن موارده المالية في الأدوار، الأولى من حركته كانت شحيحة، وكان يعتمد على القليل من المغانم والمنهوبات التي يحصل عليها في غزواته ولم تكن كبيرة في المراحل الأولى، فقد انبهر عندما غنم ثلاثة سيوف(23) وكانت أكبر ما غنمه آنذاك مائتين وخمسين ديناراً وألف درهم(24).

لقي علي بن محمد إبان إقامته في برنخل نجاحاً سريعاً متتابعاً في ضم أعداد متزايدة إليه بطرق لم توضحها المصادر، وإن كانت سمتها الواضحة دعوة دنيوية بين عمال الأرض من أرقاء أو محررين يقومون بأعمال مضنية، ولم تذكر الأخبار اهتمامه بنشر أفكار عقائدية في الدين والمذاهب، وكانت السمة الجامعة للمنضمين إليه شعورهم بسوء أحوالهم المادية في المعيشة والعمل ورغبة كامنة لا شعورية بالتخلص منها، كما أن لهم كفاءة بدنية تيسر لهم تحمل المشاق برغبة ما دامت السبيل لتحسين أوضاعهم، ولم يكن لهم تدريب عسكري على القتال أو الانضباط العسكري الذي يتطلب منهم تنفيذ الأوامر حتى ولو كانت مخالفة لرغباتهم الشخصية ومصالحهم. ولم يكن له أو للمقربين إليه تدريب عسكري سابق أو ألفة لمتطلباته. وكان لا بد من إحداث تنظيم ييسر تحقيق أهدافه عن طريق القتال ومع أنه لم تكن له أو للمقربين إليه خبرات شخصية مسبقة في ذلك، إلا أنها لم تكن غريبة عليهم مما كانوا يشهدونه من تنظيم الجيش.

وردت في ثنايا أخبار حركات صاحب الزنج معلومات تظهر أحواله المالية المزرية في أوائل قيامه بحركته، فذكر الطبري أنه لما أغار على جبى «أهدى له رجل من أهل جبى فرساً كميتاً، فلم يجد له سرجاً ولا لجاماً،

(23) الطبري 3/ 1755

(24) الطبري 3/ 1754

فركبه بحبل وسنقه بليف[25]. وأنه لما قدم الجعفرية أتاه رجل منهم بمائتي دينار وخمسين ديناراً وألف درهم، فكان هذا أول مال وصل إليه، وأنه غنم ثلاثة براذين كميت وزعها على ثلاثة من أصحابه[26] كما ذكر أنه انتهب في سفينة مالاً عظيماً عيناً وورقاً وجوهراً وحلياً وأواني من ذهب وفضة وسبى منها يومئذٍ غلماناً ونسوة، وذلك أول سبي[27]. وشارك في نهب دبا ويذكر ريحان وهو من أصحابه المقربين« فلقد رأيت صاحب الزنج يومئذٍ ينتهب معنا، وقد وقعت يدي ويده على جبة صوف مضربه، فصار بعضها في يده وبعضها في يدي فجعل يجاذبني عليها حتى تركتها له[28] وذكر الطبري الثروات التي اكتنزها بعض كبار أتباعه والمنازل والقصور الفخمة التي شيدوها في المختارة، ولا بد أن ذلك رافقه أثاث فاخر تيسر لهم من موارد نفيسة في تلك المنهوبات.

ذكر الطبري أن بهبوذ كان أكثر أصحاب الفاسق تعرضاً لقطع السبيل وأخذ الأموال، وأنه كان قد جمع من ذلك مالاً جليلاً يقطع السبيل ويعبث في أموال السابلة ودمائهم[29]. وذكر أن أصحاب الموفق لما استولوا على مقر صاحب الزنج في المختارة أحرقوه وظفروا بما لم تأت به النار من الأمتعة الفاخرة والذهب والفضة والجوهر والحلي وغير ذلك[30]. وذكر قصور الفسقة عند نهر منكي، وقصور الفاسق وقصور أصحابه، ودواوين الخبيث[31]، وخزائن من خزائنه[32].

(25) الطبري 3/ 1752
(26) الطبري 3/ 1754
(27) الطبري 3/ 1762
(28) الطبري 3/ 1773
(29) الطبري 3/ 2021
(30) الطبري 3/ 2045
(31) الطبري 3/ 2041، 2067
(32) الطبري 3/ 1971

وظهرت آثار هذا الثراء في وقت مبكر، فلما استولى الموفق على المنصورة، وهي المدينة التي شيدها صاحب الزنج في أطراف البطيحة عند تقدمه إلى واسط»، احتوى أحمد وأصحابه كل من كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والمواشي، وكان ذلك شيئاً جليل القدر. فإذا كانت في النظام السائد عند ظهوره ثغرات ومساوىء أعانت على نشر دعوته وجلب الأتباع له، فإن ما طبقه لم يتجنب العيوب السابقة، بل عمل مثلها، وربما أكثر مما شد تابعيه إلا أنه خلق ما يوجب تذمراً أوسع واستياءة أعمق، وإلى عزلته عن أكثرية السكان المتوطنين الذين كانوا الأكثرية، بالرغم من هرب الأعداد الكبيرة منها، والرعب المذل الذي أصاب من بقي، فأنبت في نفوسهم الكره له، والحقد عليه، والتعاطف مع من يعمل على إزاحته فلم يكن غريباً عندما قدم الموفق للقضاء عليه، ألا يجد له متعاطفاً.

وكانت لوسائل النقل النهرية من سميريات والشذوات أهمية أساسية في معارك صاحب الزنج، ولا شك أنه حصل على عدد منها من غنائم من أصحابها أو مما كانت تمتلكه الدولة، غير أن الحركات الكثيرة لصاحب الزنج تطلبت صنع أعداد إضافية. وقد أشارت المصادر إلى «الحضيرة» التي كانت تصنع فيها الشذوات في المختارة التي كانت مقره في السنوات الأخيرة من حركته، ولا شك أنه كان ينفق على المواد اللازمة لصنعها، والصناع الذين يصنعونها، غير أن المصادر لم تنص على مكان صنعها. كانت حركاته كافة مقصورة إلى منطقة البصرة وكور دجلة والأهواز، وسيطرة مدة قصيرة على كسكر ومنطقة واسط، وكل منها غني بثرواته تجبي منه الدولة جبايات كبيرة وفيه عدد غير قليل من ذوي الملكيات الواسعة والثروات الكبيرة، غير أنه لم يثبت سلطانه في أي من هذه الأقاليم مدة طويلة، كما أن سيطرته في الأهواز اقتصرت على المناطق الغربية، ولم تمتد إلى مناطقها الشمالية والشرقية الغنية بمراكز منسوجات الحرير وكانت قوات السلطان تهدد هيمنته على المناطق الغربية. ولا شك أن هذه الأحوال لم تيسر له الحصول على

موارد ثابتة كبيرة إلا بالتعسف الذي يؤدي إلى تزايد نقمة الأغنياء ودافعي الضريبة عليه، فيحرمه من تأييدهم ويحمله على زيادة التقرب من أتباعه وإرضائهم بالإغداق عليهم.

الفصل التاسع

مقر الحكم

المراكز الأولى

لما عاد علي بن محمد من بغداد إلى منطقة البصرة اتخذ مركز حركته في برنخل، وهي مكان غير مشهور ومتميز وتقع قرب المفتح وغير بعيدة عن الجعفرية أي إنها كانت من كور دجلة، وهي أقرب إلى الأهواز منها إلى البصرة. ولا شك أن اختياره لها راجع لإدراكه أهمية موقعها غير أنه لم يتردد ذكرها في أخبار حركاته التالية، ما قد يدل على أنه لم يستقر فيها طويلاً. ولم تذكر الأخبار المكان الذي اتخذه لمقره بعد تركه برنخل.

ولا ريب في أن متطلبات الحركات العسكرية الأولى المتشعبة اقتضت تنقله تبعاً لمواضيع تلك الحركات. ولكن كان لا بد له من اتخاذ مقر ثابت يرجع إليه في الحركات التالية التي لم تذكر المصادر مشاركته الشخصية في أي منها أو قيادة أي حملة أو معركة تالية. ولم يشر الطبري وهو مصدرنا الأوسع، إلى ذهابه إلى أي مدينة فتحها ولا إلى مقر اتخذه.

المنصورة

لم تذكر المصادر مدينة شيدها صاحب الزنج أو أي من قادته سوى المنصورة التي شيدها سليمان بن جامع عند تقدمه إلى واسط وهي بـ«الموضع

الذي يعرف بطهيثا التي عند نهر بردودا ويشقها نهر المنذر[1] وكان الزنج قد حصنوها بـ«خمسة خنادق وجعلوا أمام كل خندق سوراً يمتنعون به، فجعلوا يقفون عند كل خندق وسور إذا انتهوا إليه». واستطاع الموفق التغلب على المنصورة «واحتوى على كل ما كان في المدينة من الذخائر والأموال والأطر والمواشي وذلك شيء جليل القدر[2]، ثم هدم سور المدينة ولمّ خنادقها[3].

ولم تذكر الأخبار قدوم صاحب الزنج إلى هذه المناطق أو إقامته بأي من مدنها وبلدانها.

مقر السبخة قرب البصرة

يقول الطبري: إن صاحب الزنج بعد أن دحر أهل البصرة الذين كانوا قد خرجوا لقتاله عند نهر شيطان «انصرف بأصحابه إلى سبخة بمآخير أنهارهم أردب، ويقارب النهر المعروف بالحاجر، وهي سبخة أبي قرة وموقعها بين النهرين نهر أبي قرة والنهر المعروف بالحاجر فأقام هناك وأمر أصحابه باتخاذ الأكواخ، متوسطة النخل والقرى والعمارات، وبث أصحابه يميناً وشمالاً يغير بهم على القرى، ويقتل لهم الأكرة، وينهب أموالهم، ويسوق مواشيهم[4].

ثم يذكر أنه في سنة 256 «تحول صاحب الزنج من السبخة التي كان ينزلها في دالي الجانب الغربي من النهر المعروف بأبي الخصيب[5] ولا شك أنه يشير إلى انتقاله إلى المختارة.

قام قواد صاحب الزنج بغزو البصرة والعبث فيها ولم يرد ذكر أنه

(1) الطبري 3/ 1966، 1970.
(2) الطبري 3/ 1971.
(3) الطبري 1/ 1972.
(4) الطبري 3/ 1786.
(5) الطبري 3/ 1835.

دخلها شخصياً مع قواته التي لم تبق فيها طويلاً، وإنما أخلتها، وتابعت حركاتها للسيطرة على منطقتها، وولى صاحب الزنج البصرة ومنطقتها أحمد بن موسى بن سعيد بن القلوص[6]، ولم يذكر مكان إقامته سوى أنه لما استولى على طهيثا[7] ولى صاحب الزنج مالك بن بشران ابن أخت القلوص البصرة وما يليها وكان نازلاً بسيحان على نهر ابن عتبة، فلما نزل الموفق فرات البصرة خاف صاحب الزنج إيقاع عمر مالك فكتب إليه يأمره بنقل عسكره إلى نهر الديناري، لتأمين وصول السميريات[8] فأرسل الموفق قوة أوقعت به وبمعسكره فأمر صاحب الزنج أن ينتقل إلى موضع من النهر القريب من الفياض عند النهر اليهودي، فطاردته قوات الموفق فاستسلم للموفق، فأقام صاحب الزنج أحمد بن الجنيد وهو من أصحاب القلوص وأمره أن يعسكر بالدهرشير ومؤخر نهر أبي الخصيب[9].

ولما سمع أنصار صاحب الزنج بالقدوم الأول للموفق في حملته الأولى جزعوا جزعاً شديداً وهربوا من منازلهم ولجأوا إلى نهر أبي الخصيب ولا جسر يومئذٍ عليه، خلق كثير من النساء والصبيان علماً بأن الموفق لم يتجاوز الإبلة ثم انتقل منه إلى نهر أبي الأسد فأقام به، واجتاح المنطقة وباء فكثرت العلل في جيشه، فنقل مقره إلى الباذورد[10]، وأنفذ منها جماعة من قواده «بقصد مواضع سماها لهم من نهر أبي الخصيب وغيره ويذكر أن أصحاب أبي أحمد قاتلوا صاحب الزنج عند نهر أبي الخصيب وفي سبخة نهر منكي حيث أحد من أصحاب أبي أحمد قصوراً ومنازل من منازل النساء، واستنفذوا من النساء جمعاً كثيراً، ثم انسحب الموفق إلى الباذاورد

(6) الطبري 3/ 2013.
(7) الطبري 3/ 1974.
(8) الطبري 3/ 2013، 2014.
(9) الطبري 3/ 2015.
(10) الطبري 3/ 1865.

ومنها إلى واسط حيث نفر عنه عامة من كان من أصحابه[11] ثم انتقل إلى المختارة التي اتخذها صاحب الزنج قبيل ذلك فكان إقامة مدينته المختارة. ولعل اختياره هذا المكان هو موقعه الناحي عن مركز قوات السلطان في الأهواز والبصرة.

منطقة المختارة أنهار الأطراف الشمالية

إن المنطقة التي أقام فيها صاحب الزنج مقره الثابت الأخير وجرت فيها الحركات الأخيرة التي انتهت بالقضاء على صاحب الزنج وقواته تقع في الأطراف الجنوبية الغربية من مدينة البصرة، وعلى الجانب الغربي من دجلة البصرة، وأبرز ما فيها من المعالم الجغرافية والعمرانية هي الأنهار التي تأخذ من دجلة البصرة وتجري غرباً وإلى أطراف المنطقة المعمرة التي تقع عليها ولا تمتد أكثر من عشرة كيلومترات، وتتفرع منها نهيرات صغيرة لا يزال عدد منها قائماً محتفظاً باسمه القديم، غير أن عدداً منها اختفى اسمه ولم يعد له ذكر في المصادر التالية، ولكن يمكن تحديد موقعه من المعلومات التي ذكرته وأشارت إلى موقعه من الأنهار المعروفة والحركات التي جرت عنده.

قدم الطبري أشمل وصف لهذه الأنهار وما عليها من المعالم في كلامه عن توزيع قوات الموفق في الجانب الشرقي الذي كان يخضع لسيطرته والجانب الغربي الذي كان يسيطر عليه صاحب الزنج.

مقر الموفق في الجانب الشرقي

ذكر الطبري أن الموفق استقر على تحديد معسكره في منتصف شعبان لسنة 267 وأوطن هذا المعسكر وأقام به ورتب قواده ورؤساء أصحابه مراتبهم فيه فجعل نصيراً صاحب الشذا والسميريات في جيشه في أول المعسكر وآخره بالموضع الموازي للنهر المعروف بجوى كور.

(11) الطبري 3/ 1871.

وجعل زيرك التركي صاحب مقدمة أبي العباس في أصحابه موازياً ما بين نهر أبي الخصيب وهو النهر المعروف بنهر الأتراك والنهر المعروف بالمغيرة.

ثم تلاه علي بن جهشيار صاحبه في جيشه.

وكانت مضارب بني أحمد وابنيه حيال الموضع المعروف بدير حابيل.

وأنزل راشداً مولاه في مواليه وغلمانه.. على النهر المعروف بهطمة.

وجعل صاحب بن مخلد وزيره في جيش الموالي والغلمان فويق عسكر راشد.

وأنزل مسروراً البلخي في جيشه على النهر المعروف بسنداداان.

وأنزل الفضل ومحمد ابني موسى بن بغا في جيشهما على النهر المعروف بهالة.

وتلاهما موسى دالجويه في جيشه وأصحابه.

جعل بغراج التركي على ساقته نازلاً علة نهر جطى[12].

إن الشطر الأول من هذا النص يذكر تتابع منازل القوات من جوى كور إلى مضارب أبي أحمد وولديه حيال دير جابيل، ويلاحظ في رواية هذا النص بعض الاضطراب فهو يذكر أن زيرك نزل في أصحابه ما بين نهر أبي الخصيب وهو النهر الموسوم بنهر الأتراك والنهر المعروف بالمغيرة، ولا تؤيد المعلومات الواردة في الحوادث أن نهر أبي الخصيب هو بين نهر الأتراك ونهر المغيرة، والأصح أن تكون «وبين» مكان «وهو»، ثم إن النص لا يذكر المواضع المقابلة لنزول جيش علي بن جهشيار.

إن النهر الرئيسي الشمالي في الجانب الغربي هو نهر الإبلة، ومع

(12) الطبري 3/ 1988.

أهميته الكبرى فإنه لم يتردد ذكره في حوادث القضاء على حركة صاحب الزنج لأنه ناح شمالاً عن ميدان الحركات ويتلو نهر الإبلة جنوباً نهر نافذ الذي يجري قريباً من الإبلة[13] ولم يرد ذكره في الحركات العسكرية للقضاء على صاحب الزنج، بل ذكر سلوك قوات صاحب الزنج له في نقل المير.

ويتلو نهر نافذ جنوباً نهر اليهود الذي يقابل نهر جطى الواقع شرقي دجلة البصرة[14]. وكان النهر اليهودي مما أقامت عليه قوات الموفق[15]، ويتصل به معترض يسلك منه إلى نهر الإبلة[16]. وتقع بقربه المطوعة[17]، وعند آخره الفياض[18].

يجري في هذه المنطقة نهر المغيرة في جنوبي دير حابيل حيث إن الموفق عندما وزع قواته، جعل مقدمته في أقصى الجنوب مقابل جوى كور، ثم نهر أبي الخصيب، ثم نهر الأتراك ثم نهر المغيرة، ثم دير حابيل، ثم هطمة، ثم سنداذان، ثم هالة، ثم جطى[19]. ولما تقدم الموفق للقضاء على حركة صاحب الزنج، وقبل استقراره على إنشاء الموفقية في الجانب اتخذ موقعاً في الجانب الغربي يعسكر فيه فيما بين دير حابيل ونهر المغيرة، وأمر بقطع النخيل وإصلاح موضع الخندق وأن يحف بالخنادق عند السور لياً من بيات الفجار وقتالهم[20]، فلما هاجمه الزنج أدرك أن المكان غير ملائم فتركه وجعل مقره الموفقية التي شيدها على الجانب الشرقي من دجلة البصرة[21].

(13) الطبري 3/ 2022، وانظر 3/ 1778.
(14) الطبري 3/ 1986.
(15) الطبري 3/ 2094.
(16) الطبري 3/ 2033.
(17) الطبري 3/ 900، 2008.
(18) الطبري 3/ 2015.
(19) الطبري 3/ 1988.
(20) الطبري 3/ 2229.
(21) الطبري 3/ 2032.

ذكر الطبري «نهر أبي الخصيب وهو النهر الموسوم بنهر الأتراك والنهر المعروف بالمغيرة»[22] وهذا النص مضطرب لا تؤيده المعلومات الأخرى التي ذكرها نفسه.

وعند نهر المغيرة يقع معسكر ريحان فإن الطبري يذكر أن الموفق أمر أبا العباس بالقصد إلى الموضع الذي لجأ إليه، وأن يكون سلوكه بجيشه في النهر المعروف بنهر المغيرة حتى يخرج فيوافي عسكر ريحان من ذلك الوجه[23]. وبعد سيطرة الموفق على الجانب الشرقي لجأ صاحب الزنج إلى نهر السفياني، ثم انسحب إلى نهر الأمير حيث واصل قتاله[24].

نهر أبي الخصيب والمعالم العمرانية عليه

يخترق نهر أبي الخصيب المختارة فيشطرها شطرين جنوبي، وهو الأهم والأكبر وشمالي. والنهر قديم سمي بأبي الخصيب مولى أبي جعفر المنصور، فهو الذي حفره، وجد حفره وتوسيعه، ولا يزال قائماً ومن أكبر الأنهار الآخذة من دجلة، ويبعد قرابة خمسة كيلومترات جنوبي العشار، وهي الإبلة القديمة ويبلغ طوله حالياً بضعة كيلومترات منتهياً بالمنطقة الصحراوية.

كان النهر عريضاً تسلكه الشذا والسميريات والقوارب ومراكب البحر[25] كانت عند الجسر الأول، فلما أحرق الموفق ذلك الجسر، جمع صاحب الزنج ما بقي له من السفن البحرية فجعلها عند الجسر الثاني، فأمر الموفق بالدنو من الجسر وأحرق ما قدر على إحراقه من المراكب البحرية وأخذ ما أمكن أخذه[26].

---

(22) الطبري 3/ 1988.

(23) الطبري 3/ 2091.

(24) الطبري 3/ 2088.

(25) الطبري 3/ 2094.

(26) الطبري 3/ 2064.

كان النهر عريضاً تسلكه الشذا والسميريات ومراكب البحر[27]. وبالنظر إلى أهميته كمنفذ للمختارة فقد اهتم صاحب الزنج بتحصينه وتنظيم الإفادة منه والدفاع عنه، فوضع في مدخله سلسلة حديد عريضة تقطعه وتمنع الشذا من دخوله[28]، وأقام في مدخله برجين من الحجارة ليضيق المدخل وتحتد الجرية فإذا دخلت الشذا النهر فيه لم يسهل إخراجها منه[29]. وأنشأ عليه بعد البرجين قنطرة بالسياج دون الجسرين الذين اتخذهما عليه[30]. هدمهما الموفق عند تقربه الأول نحو الجسر، إلا أن صاحب الزنج أعادهما وزاد في إحكامهما ووضع أدقال ساج، ووصل بعضها ببعض وألبسها الحديد وسكر أمام ذلك سكراً بالحجارة ليضيق المدخل على الشذا وتشتد جرية الماء في النهر[31]. وعند القنطرة باب كان قد اقتلعه من حصن أورخ بالبصرة[32]، ولعله كان مقاماً عند البرج، فلما قلعه الموفق أرسله إلى مدينة السلام، وتيسر له الوصول إلى الجسر الأول[33].

كان على النهر بعد القنطرة جسران ممتدان، فأما الجسر الأول فكانت عنده الحضيرة التي كان يعمل فيها صاحب الزنج الشذا والسميريات وجمع الآلات التي كان يحارب بها[34]، وبذلت قوات الموفق جهوداً كبيرة في إحراق الجسر المتقن البناء، وفي دحر من كان يدافع عنه[35] فانتقل صاحب الزنج وجميع أصحابه إلى الجانب الشرقي وأخلوا الجانب الغربي، فاحتوى

(27) الطبري 3/ 2099.
(28) الطبري 3/ 2064.
(29) الطبري 3/ 2052.
(30) الطبري 3/ 2046.
(31) الطبري 3/ 2094.
(32) الطبري 3/ 2052.
(33) الطبري 3/ 2061.
(34) الطبري 3/ 2062.
(35) الطبري 3/ 2067، 3063.

عليه أصحاب الموفق، وعلى ما كان يعوق عن محاربة الفجرة من قصور الفاسق وقصور أصحابه ووسعوا مخترقات ضيقة كانت على نهر أبي الخصيب، وأمر الموفق بإحراق ما على حافتيه من منازل الفجرة وما في بطنه من السفن.

أما الجسر الثاني فكانت له أهميته في العبور إلى الجانب الغربي، وكانت فيه منازل لأصحاب صاحب الزنج ومنها مسجده الجامع، وشارع يؤدي إلى مصلى الأعياد وهو صحراء وراء جبل أبي عمرو أخي المهلبي، يليه جبل أبي مقاتل الزنجي، وعمل الموفق على احتواء هذه المعالم قبل التقدم إلى الجسر الثاني[36]. وكان صاحب الزنج جمع عنده المراكب الحربية[37]. ونشب قتال ضار بين أصحاب الموفق والمدافعين عنه من أصحاب صاحب الزنج، ثم قطعه وأحرقه[38]، وتفرق الجيش في نواحي مدينة الخبيث من الجانبين جميعاً فأحرقوا دورهم وقصورهم وأسواقهم شيئاً كثيراً واستنقذوا من النساء المأسورات والأطفال ما لا يحصى عدده[39].

وفي مؤخر نهر أبي الخصيب يقع الدهرشير[40] وكان النهر السعيدي يؤدي إلى نهر أبي الخصيب.

نهر الغربي

تردد ذكر نهر الغربي في أحداث حصار الموفق صاحب الزنج، ففي أواخر ذي الحجة من سنة 266 أمر الموفق أبا العباس بالمسير في جماعة من أصحابه إلى الموضع المعروف بنهر الغربي فلما وصله لقي مقاومة عنيفة

---

(36) الطبري 3/ 2056.

(37) الطبري 3/ 2063.

(38) الطبري 3/ 2067.

(39) الطبري 3/ 2065.

(40) الطبري 3/ 2022.

اضطرته إلى الانسحاب، فاجتاز في منصرفة مدينة صاحب الزنج حتى انتهى إلى الموضع المعروف بنهر الأتراك حيث لاقى قوة من الزنج تغلب عليها حتى وصل نهر عبد الله ولكنه اندحر[41] ولما هاجم الموفق مدينة صاحب الزنج لقي مقاومة وأوقع بهبوذ من وراء البلخي من نهر الغربي[42].

ولما أعاد الموفق الهجوم على مدينة صاحب الزنج وزع قواته، فكان أبو العباس موجهاً إلى ركن مدينة صاحب الزنج، وأبو أحمد إلى نهر منكي ونهر ابن سمعان، وصاعد بالقصد لفوهة نهر جوى كور ومسرور البلخي بالقصد لنهر الغربي[43]، ولما جدد الموفق هجومه على معقل صاحب الزنج كان هذا قد حصن الجانب الشرقي من حفر الخنادق وتعوير الطرق، واحتفر خندقاً عريضاً من حد جوى كور إلى نهر الغربي، وكان أكثر عنايته بتحصين ما بين دار الكرنباني إلى النهر المعروف بجوى كور، لأنه كان في هذا الموضع جل منازل أصحابه ومساكنهم. وكان من حد جوى كور إلى نهر الغربي بساتين ومواقع قد أخلوها والسور والخندق محيطان بها وكانت الحرب إذا وقعت في هذا الموضع قصدوا من موضعهم إليه للمحاماة عنه والمنع منه، فرأى الموفق عند ذلك أن يخرب باقي السور إلى نهر الغربي ففعل ذلك بعد حرب طويلة ومدة بعيدة.

وكان صاحب الزنج في الجانب الشرقي من نهر الغربي في عسكر فيه جمع من الزنج وغيرهم متحصنين بسور منيع وخنادق، وهم أجلد أصحابه وشجعانهم، فكانوا يحامون عما قرب من سور نهر الغربي، وكانوا يخرجون في ظهور أصحاب الموفق في وقت الحرب على جوى كور وما يليه، فصمم الموفق على التغلب عليها وصار بمن أعده إلى نهر الغربي وأمر الشذا

---

(41) الطبري 3/ 2001-2.

(42) الطبري 3/ 2007.

(43) الطبري 3/ 2012.

فنظمت من حد النهر المعروف بجوى كور إلى الموضع المعروف بالدباسين. خرج المقاتلة على جنبيّ الغربي وهدم السور ولم يفلح في دحر من كان يقاومهم.

وكانت لصاحب الزنج وأصحابه أرضون من ناحية نهر الغربي، كان فيها مزارع وقنطرتان على نهر الغربي، يعبرون عليها إلى هذه الأرضين فجرد الموفق حملة نحو نهر الغربي، وجعل زيرك كميناً في غربي النهر، وأن يقصد رشيق نهر العميسين ليخرج منه في ظهور الزنج وهم يغارون فيوقع بهم في هذه الأرضين[44]، وأقام أبو العباس في عدة شذوات في فوهة نهر الغربي وقطع القنطرتين «وأمر بإخراج ما كان فيها من البدود والخشب إلى دجلة وانقطع عن الزنج ما كانوا يرتفقون به من المزارع التي كانت بنهر الغربي[45].

نهر منكي

وفي هذه المنطقة يمتد نهر منكي، وعليه قنطرتان[46]، وبقربه سبخة[47] وعنده سور مدينة صاحب الزنج[48]. وورد ذكره في عدد من حملات الموفق على المختارة، أولها عندما هاجمها في قدومه الأول حيث تقدمت بعض قواته إلى سبخة نهر منكي ولكن الهجوم لم يحظ بالظفر[49] ولما جدد الموفق حملته على المختارة أمر أبا العباس أن يأتي الفجرة من مؤخر نهر منكي ومسرور من نهر الغربي، ونصير من فوهة نهر أبي الخصيب، ويتقدم الموفق إلى ركن محصن من أركان المختارة، وتابع أبو العباس تقدمه في

---

(44) الطبري 3/ 2082.

(45) الطبري 3/ 2083.

(46) الطبري 3/ 3033.

(47) الطبري 3/ 1871.

(48) الطبري 3/ 2011، 2032.

(49) الطبري 3/ 1871.

الخيل من نهر منكي واقترب من الخندق الذي عنده فوجده عريضاً سميكاً ممتنعاً[50]. وفي هجوم تالٍ قصد أبي العباس ركناً من المختارة وتوجه أبو أحمد إلى موضع من السور فيما بين نهر منكي ونهر ابن سمعان، وتوجه صاعد إلى فوهة نهر جوى كور، ومسرور إلى النهر الغربي[51]. وفي محاولة أخرى قصد الموفق هدم السور مما يلي نهر منكي[52].

نهر سمعان ونهر الأتراك

وبالقرب من نهر منكي يقع نهر ابن سمعان، بينهما الجامع[53]، وعنده يمتد السور[54]، نشبت عنده معركة انتصر فيها الموفق[55]، وكانت عنده دار سليمان بن جامع، وهي طرف الميدان[56].

وبالقرب من سور المختارة يجري نهر الأتراك وهو نهر عريض غزير الماء قرب سور المختارة[57]، ويوحي كلام الطبري عن توزيع قوات الموفق أنه قرب نهر أبي الخصيب ونهر المغيرة إذ يذكر أن أبا العباس انحرف من نهر المغيرة فاجتاز بمنحرفه بمدينة صاحب الزنج «حتى انتهت إلى الموضع المعروف بنهر الأتراك ونشبت معركة اندحر فيها أبو العباس[58].

(50) الطبري 3/ 2013-205.
(51) الطبري 3/ 2011.
(52) الطبري 3/ 2033.
(53) الطبري 3/ 2034.
(54) الطبري 3/ 2011، 2034.
(55) الطبري 3/ 2055.
(56) الطبري 3/ 2025.
(57) الطبري 3/ 2004.
(58) الطبري 3/ 2001

نهر أبي شاكر

من الأنهار القريبة من جوى كور نهر أبي شاكر الذي ذكر في عدد من أحداث القتال عند جوى كور، وفوهته أسفل نهر أبي الخصيب[59]، أي جنوبيه، ولا شك أن فوهته كانت شمال جوى كور. فلما أعد الموفق للهجوم على مدينة صاحب الزنج بالجانب الغربي في ذي القعدة سنة 269 وزع قواته، فوجّه أبا العباس إلى الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب ليهاجم مؤخر عسكر صاحب الزنج حتى يجاوز دار المهلبي، وأمر راشد بالخروج من الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب، وأمر بعضهم بالخروج من ركن دار الكرنباني وهو على قرنة نهر أبي الخصيب في الجانب الشرقي، ثم أمر فريقاً من غلمانه بالخروج على فوهة النهر المعروف بأبي شاكر.. وأمر آخرين منهم بالخروج في أصحابهم على فوهة النهر المعروف بجوى كور[60]، وهو بين نهر جوى كور ودار الكرنباني القريب من نهر أبي الخصيب، وبقربه دار الهمداني[61]. ولما أعد الموفق حملته على الموقع الذي صار إليه صاحب الزنج في الجانب الشرقي بإزاء دار المهلبي وجّه أبا العباس إلى تلك الجهة وأمر صاعد بن مخلد بالخروج على النهر المعروف بأبي شاكر في الجانب الشرقي وتواد ظهر فوهة نهر أبي الخصيب.

جوى كور

جوى كور نهر يأخذ من دجلة أسفل (جنوب) نهر أبي الخصيب[62]، وهو أدنى الأنهار التي يتردد ذكرها في حوادث حركات الموفق للقضاء على حركة صاحب الزنج، فلما وزع قواته بعد إنشائه الموفقية جعل قوات نصير

(59) الطبري 3/ 2051.
(60) الطبري 3/ 2075.
(61) الطبري 3/ 2089.
(62) الطبري 3/ 1041.

في أول العسكر بالوضع الموازي لنهر جوى كور[63]. وكان هذا النهر عند السور الذي ينتهي إلى قصر من قصور رجال صاحب الزنج ماراً بدار أنكلاي ومتصلاً بداره[64]. ولما انتقل صاحب الزنج إلى الجانب الشرقي "حفر في الجانب الشرقي خندقاً عريضاً من حد جوى كور إلى نهر الغربي، فكان أكثر عنايته بتحصين ما بين دار الكرنباني إلى نهر جوى كور، إذ كان في هذا الموضع جل منازل أصحابه ومساكنهم، وكان من حد جوى كور إلى النهر الغربي بساتين ومواضع قد أخلوها والسور والخندق محيطان بها، وكانت الحرب إذا وقعت في هذا الموضع قصدوا من مواضعهم إليه للمحامات عنه والمنع منه ثم خرب الموفق باقي السور إلى نهر الغربي بعد حرب طويلة[65].

المعالم العمرانية في المختارة - الجانب الشرقي

ذكرنا في كلامنا عن المعالم التي على نهر أبي الخصيب أن هذا النهر كان يخترقها وأنه بعد أن هدم الموفق الجسر الأول انحازت الزنج إلى مواضع في الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب وأخلوا غربيه، ولما انحازوا إلى الجانب الشرقي انقطعت عن صاحب الزنج الميرة من كل وجه[66]. ولما انهارت مقاومته في المختارة على الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب وعلى دجلة بين جوى كور[67]. لجأ إلى التحصن في المنازل الواغلة في نهر أبي الخصيب، أي في الأطراف الغربية النائية عن دجلة، فنزل منزلاً كان لأحمد بن موسى المعروف بالقلوص، وجمع عياله وولده حوله هناك ونقل أسواقه إلى السوق القريبة من الموضع الذي اعتصم به،

(63) الطبري 3/ 1988.
(64) الطبري 3/ 2041.
(65) الطبري 3/ 2058.
(66) الطبري 3/ 2062.
(67) الطبري 3/ 2051.

وهي سوق كانت تعرف بسوق الحسين[68].

ونزل بعد حرق قصره ومنازله الدار المعروفة بأحمد بن موسى القلوص والدار المعروفة بمحمد بن إبراهيم بن عيسى[69]، وأسكن ابنه أنكلاي الدار المعروفة بمالك ابن أخت القلوص وحصن الجانب الشرقي «واحتفر خندقاً عريضاً من حد جوى كور إلى نهر الغربي، وكان أكثر عنايته بتحصين ما بين دار الكرنباني إلى النهر المعروف بجوى كور، لأنه كان في هذا الموضع جل منازل أصحابه ومساكنهم، وكان من حد جوى كور إلى النهر الغربي بساتين ومواضع قد أخلوها، والسور والخندق يحيط بها[70].

السور وهدمه

ثم تقدم الموفق حتى انتهى إلى دار ابن سمعان وسليمان بن جامع وهدم السور ثم توجهوا إلى سوق لصاحب الزنج كان اتخذها مطلة على دجلة سماها الميمونة فهدمت تلك السوق، فقصد الموفق الدار التي لابن صاحب الزنج اتخذها للجبائي فهدمها، وانتهب ما كان فيها وكانت متصلة بالمسجد الجامع، فدافع الزنج عن المسجد الجامع[71].

ثم إن الموفق نظم الرجال من حد دار الجبائي إلى الجامع وكان قد وجّه إليه أبا العباس وهو محصن بالسور، فهدم السور ودور أصحابه وهدم الجامع، ثم تابع الهدم من حد دار أنكلاي إلى دار الجبائي، ومضى أصحاب الموفق إلى دواوين من دواوين صاحب الزنج وخزائن من خزائنه، ثم جرح الموفق فتوقفت الحرب أشهراً[72].

---

(68) الطبري 3/ 2053.

(69) الطبري 3/ 2067.

(70) الطبري 3/ 2057.

(71) الطبري 3/ 2043.

(72) الطبري 3/ 2035.

ولما شفي جدد الهجوم، وأمر أبا العباس بإخراج أصحابه على جوى كور ونظم الشذا على هذه المواضع حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالدباسين، وهو أسفل نهر الغربي، وصار الموفق إلى نهر الغربي، ونشب قتال حاد أفلح في نهايته غلمان الموفق في دحر المدافعين فانهزموا وأخلوا حصنهم، فصار في أيدي غلمان الموفق فهدموه وأحرقوا منازلهم وغنموا ما كان فيها واتبعوا المنهزمين منهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة[73].

ثم هاجم الموفق الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب[74]، وسيطر عليه بعد قتال ضار فأخلاه صاحب الزنج، وانتقل إلى الجانب الشرقي، وكثر استسلام أتباعه[75].

وانتقل بعد ذلك الموفق للسيطرة على الجانب الشرقي، وفي الهجوم الأخير على معاقل صاحب الزنج وضع الموفق أبا العباس بإزاء دار صاحب الزنج، وصاحب نهر أبي شاكر وقواد في فوهة نهر أبي الخصيب إلى نهر الغربي، وراشد من حد دار الكرنباني إلى نهر أبي شاكر، وقواد من نهر أبي شاكر إلى جوى كور ومن جوى كور إلى نهر الغربي، ثم زحف حتى وصل دار المهلبي، وانتصر في جوى كور، ثم لاحق الزنج إلى نهر السفياني، ومنه إلى المساوان والجال.

وكان صاحب الزنج قد أعاد بعض الثلم التي ثلمت من السور فأمر الموفق بهدم ذلك وما يتصل به، وكانت المعركة عند نهر منكي فانتصر الموفق وتقدم إلى جوى كور، وهدم السور الذي عنده وانتهوا إلى قصور من قصور صاحب الزنج فانتهبوا ما كان فيها وأحرقوها، واستنفذوا عدداً من

(73) الطبري 3/ 2059-2060.

(74) الطبري 3/ 2064-8.

(75) الطبري 3/ 1670، 1678.

النساء اللواتي كن فيها[76]، ثم تابع تقدمه وهدم السور حتى وصل دار أنكلاي وهي متصلة بدار صاحب الزنج، وبقرب هذه الدار ميدان كان صاحب الزنج جعله طرقه إلى قريب من داره، فأحرق القصر[77] ولقصر صاحب الزنج باب يلي الميدان، وبالقرب من قصر الكرنباني كان قصر الهمداني الذي كان في ظهره لصاحب الزنج سوق عظيمة متصلة بالجسر الأول المعقود على نهر أبي الخصيب، فأحرقه الموفق ولم يبق لهم سوق[78].

وكان صاحب الزنج في الجانب الشرقي الذي عسكر فيه جمع من الزنج وغيرهم متحصنين بسور منيع وخنادق، وهم أجلد أصحابه، فكانوا يحامون عما قرب من سور نهر الغربي، وكانوا يخرجون في ظهور أصحاب الموفق في وقت الحرب على جوى كور وما يليه[79].

صمم الموفق على هدم السور للقضاء على مقاومة صاحب الزنج عنده، فتقدم بمن أعده إلى نهر الغربي، وأمر بالشذا فنظمت من حد نهر جوى كور إلى الموضع المعروف بالدباسين وأخرج المقاتلة على جنبتي نهر الغربي، ووضعت السلاليم على السور فهدم في عدة مواضع[80].

ثم جدد الهدوم فيما بين نهر الغربي وجوى كور، ولكنه انكسر، ثم جدد المحاولة فكانت القوات التي يقودها موجهة إلى نهر الغربي، ومسرور إلى نهر منكي، وأبو العباس من جوى كور إلى الدباسين، فانتصر على الزنج[81].

(76) الطبري 3/ 2187.
(77) الطبري 3/ 2040.
(78) الطبري 3/ 2042.
(79) الطبري 3/ 2041.
(80) الطبري 3/ 2057-8.
(81) الطبري 3/ 2059.

وكان فيمن خرج من حد دار الكرنباني إلى نهر أبي شاكر راشد ولؤلؤ.. ومن نهر أبي شاكر إلى النهر المعروف بجوى كور جماعة من قواد لؤلؤ، ثم من جوى كور إلى نهر الغربي مثل ذلك، وأمر شبلاً أن يقصد في أصحابه ومن ضم إليه إلى نهر الغربي فيأتي منه موازياً لظهر دار المهلبي فيخرج من ورائها[82].

كان الهجوم على السوق مما يلي الجسر الأول ومما يلي دار الهمداني ومن نهر أبي شاكر ومنه يتم الوصول إلى مسكنه[83].

تظهر هذه النصوص أن نهر أبي شاكر قريب من نهر جوى كور ومن دار المهلبي، غير أن بعضها يذكر أنه شرقي نهر أبي الخصيب، ولا يذكر أي منها مأخذه من دجلة ما يدل على أنه نهر فرعي يأخذ من جوى كور في الأطراف الشمالية منه، وأنه لا يبعد كثيراً عن دار الكرنباني ونهر الغربي.

وعندما عبر الموفق إلى مدينة صاحب الزنج في منتصف ربيع الآخر من سنة 268 أمر ابنه أبا العباس بالقصد للموضع الذي كان قصده من ركن مدينة صاحب الزنج الذي يحوطه بابنه وجلة من أصحابه وقواده.

وقصد أبو أحمد موضعاً من السور فيما بين النهر المعروف بنهر منكي والنهر المعروف بابن سمعان. وأمر صاعداً ووزيره بالقصد لفوهة النهر المعروف بجوى كور وتقدم زيرك في مكانفته، وأمر مسروراً البلخي بالقصد لنهر الغربي، وأمرهم أن يقصروا عملهم على هدم السور دون الدخول إلى مدينة صاحب الزنج، وأسند كل منهم بالشذوات ونشبت معركة اندحرت فيها قوات أبي أحمد[84].

وفي الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب كانت الكرنباني وهو

---

(82) الطبري 3/ 2086-3
(83) الطبري 3/ 2056.
(84) الطبري 3/ 2012.

محمد بن يحيى بن سعيد[85]، وكان قد ولي الأهواز عندما قدمها الموفق[86]، ثم كان كاتب المهلبي[87]، وأسر في عسكر ريحان[88] وداره بفوهة نهر أبي الخصيب، وعلى قرنته في الجانب الشرقي، وتشرع على دجلة[89]، وهي بإزاء دار صاحب الزنج وابنه أنكلاي[90]، وعندها سلسلة وضعها صاحب الزنج لتعطيل دخول السفن نهر أبي الخصيب، وعندها بيوت كانت تشرع على دجلة[91].

ويلصق دار الكرنباني في شرقي نهر أبي الخصيب تقع دار الهمداني، وهو إبراهيم بن جعفر وكان أحد قادة صاحب الزنج وقدماء أصحابه[92]، وسبق له أن أقام في ميان رودان في أربعة آلاف من الزنج حين كان أقام محمد بن أبان في ثلاثة آلاف بالقندل والدور في بر مساور بألف وخمسمائة، ثم كان ممن دافع في نهر الأتراك وممن تناوب على حراسة المختارة عندما أراد الموفق أن يعسكر بدير حابيل[93]، وظل يقاتل مع صاحب الزنج إلى أن أسر في عسكر ريحان.

كانت دار الهمداني محصنة، نصب عليها صاحب الزنج عرادات[94]، ووضع عليها أعلاماً بيضاً، ولها سور عال[95]، وهي واغلة في نهر أبي الخصيب[96].

---

(85) الطبري 3/ 1970.

(86) الطبري 3/ 1975.

(87) الطبري 3/ 2085.

(88) الطبري 3/ 2092.

(89) الطبري 3/ 2054، 2055، 2085، 2087.

(90) الطبري 3/ 2044، 199.

(91) الطبري 3/ 2042، 2030.

(92) الطبري 3/ 2045.

(93) الطبري 3/ 2354.

(94) الطبري 3/ 2077.

(95) الطبري 3/ 2054.

(96) الطبري 3/ 2087.

وفي ظهر دار الهمداني سوق عظيمة متصلة بالجسر الأول المعقود على نهر أبي الخصيب، وكان صاحب الزنج سماها المباركة، وهي غير بعيدة عن نهر أبي شاكر، إذ إن قوات الموفق هاجمت هذه السوق من ثلاث جهات: دار الهمداني، ومما يلي الجسر الأول، ومن نهر أبي شاكر[97].

وفي الجانب الشرقي سجن كان قد اتخذه صاحب الزنج.

تأسيس المختارة

شيد صاحب الزنج المختارة لتكون مقراً له في زمن متأخر من حركته لم تحدده المصادر ولم تذكر ما كان في موقعها قبل تأسيسها، ولعله لم يكن فيها قبل ذلك ما يلفت النظر.

وصف ابن أبي الحديد إنشاء المختارة وازدهارها من صاحب الزنج فقال «عندما أقام بنهر أبي الخصيب كان قد بنى مدينة عظيمة سماها المختارة، وحصنها بالخنادق واجتمع إليه فيها من الناس ما لا ينتهي الحصر والعدد، جاؤوا إليها رغبة ورهبة، وصارت مدينة تضاهي سامراء وتزيد عليها... وقواد البلاد وأعمالها يجبون الخراج على عادة السلطان، كما كانت البصرة في عزها، وكان علي بن أبان المهلبي وهو أكبر أمرائه وقواده قد تولى على الخراج وأعمالها ودوخ بلادها كرامهرمز وتستر وغيرها ودان له الناس وجبى الخراج»[98].

سوّر صاحب الزنج المختارة بأسوار وخنادق، وشيّد فيها له وللبارزين من أتباعه قصوراً وأنشأ فيها جامعاً وسوقاً وساحات، وما تتطلب الإدارة من دواوين وسجون وغيرها.

تقع المختارة في الأطراف الجنوبية الغربية من المنطقة التي هيمن عليها

(97) الطبري 3/ 2067.

(98) شرح نهج البلاغة 2/ 323.

وكانت ميدان حركاته، وكانت تعتمد في كثير من معاشها على ما يرد إليها من البطيحة، وكان مما قام به الموفق لإخضاعها هو قطع الميرة التي كانت الأعراب توردها إليها من البطيحة.

وعندما تقدم الموفق سنة 167 في حملته الأولى على صاحب الزنج كانت «المختارة» قائمة كمركز لصاحب الزنج الذي أمر بجمع قواته فيها من المناطق التي كان قد سيطر عليها[99]، وأمر أن يقدموا إلى أن ينتهي ثم يسير إلى مدينته بنهر أبي الخصيب[100]، ولحق المهلبي ومن اتبعه من أصحابه بنهر أبي الخصيب[101]، وكان بعض أتباعه قد تخلوا عنه في انسحابه ولحقوا بأبي أحمد[102].

ولما حرق الجسر تفرق جيش الموفق في نواحي المدينة من الجانبين جميعاً، فأحرقوا من دورهم وقصورهم وأسواقهم شيئاً كثيراً، واستنفذوا من النساء المأسورات ما لا يحصى عدده[103].

السور

كانت المختارة محوطة بسور تردد ذكره وأثره في تعطيل جهود قوات الدولة في التغلب على مقاومة صاحب الزنج، ووصف الطبري هذا السور كما رآه الموفق عندما تقدم للاستيلاء عليها، فقد أشرف عليها «فرأى من منعتها وحصانتها بالسور والخنادق المحيطة بها، وما عور من الطرق المؤدية إليها وأعد من المجانيق والعرادات والقسي الناوكية وسائر الآلات على سورها ما لم ير مثله ممن تقدم من المنازعين على السلطان، ورأى كثرة عدد

(99) الطبري 3/ 1072.
(100) الطبري 3/ 1973.
(101) الطبري 3/ 1980.
(102) الطبري 3/ 1975.
(103) الطبري 3/ 2047.

مقاتلتهم واجتماعهم واستفاض أمره[104]. ولا ريب في أن هذا الكلام يصف السور على الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب الذي وجه إليه الموفق هجومه الأول، وأشار الطبري إلى أثر هذا السور في عرقلة جهود الموفق في التغلب على دفاع صاحب الزنج عن مدينته.

إن المعلومات التي أوردها الطبري تظهر أن سور المختارة كان متقن التشييد فكوّن عائقاً تطلب التغلب عليه جهوداً كبيرة، ويشير إلى أنه كان بلصقه خندق لعل ترابه مما بني فيه السور علماً بأن الطبري ذكر الأسلحة التي استخدمتها قوات صاحب الزنج للدفاع عن السور، لكنه لم يذكر المواد التي بني منها، وإن كان المرجح أنه لم يكن من الحجارة الصلبة القليلة في المنطقة بل كان من رمال تربة أرض المنطقة التي كومت ودكت لتكون متماسكة كاللبن، وإن لم تذكر المصادر أنه كان كذلك.

اقتصر الطبري على ذكر أقسام متفرقة من السور ولم يقدم وصفاً كاملاً له كالذي فعله في وصف سور المستعين ببغداد، أو ما فعله الخطيب في وصف سور مدينة المنصور المدورة ومن المعلوم أن الأحوال الجغرافية في المنطقة التي شيدت عليها المختارة والمتطلبات العسكرية التي يحققها سور المختارة تختلف عما في بغداد، فهي مشيدة في أرض رخوة تخترقها أنهار تختلف في حجمها واتجاهاتها، والنهر الرئيسي منها هو دجلة البصرة الكبير الذي كان يجري من الشمال إلى الجنوب، وتأخذ منه أنهار متعامدة عليه أكبرها نهر أبي الخصيب وجوى كور، ولعل أنهاراً فرعية أخرى تأخذ منه ولهذه الأنهار دور في الدفاع عن المختارة وعن امتداد السور، إذ إن كثرة الأنهار تمنع إقامة سور واحد محكم عليها، وإنما يكون بين الأنهار التي تكون فتحات فيه فتجعله متقطعاً. وهذه الأنهار منافذ لدخول السفن التي لها دور كبير في الهجوم على المدينة والدفاع عنها. ولم تشر المصادر إلى تنظيم

(104) الطبري 3/ 1982.

العلاقة بين السور وهذه الأنهار أي هل كان السور ممتداً على ضفاف هذه الأنهار الكثيرة المتشابكة. بالإضافة إلى أن عدداً من القصور الضخمة لأبرز رجال صاحب الزنج كانت على ضفاف الأنهار الرئيسية، ولا سيما دجلة وأبي الخصيب، فإقامة سور على هذه الأنهار يحجب عن القصور المناظر الجميلة للأنهار، ويقضي أن تكون الأسوار مؤقتة لصد هجوم الموفق فحسب.

ثم إن الخطر الرئيسي الذي كان يهدد المختارة ويتطلب أسواراً لحمايتها، كان أغلبه يقدم من الشرق (دجلة البصرة) وبعضه من الشمال الشرقي والجنوب الشرقي. ولم يحاول الموفق الهجوم عليها من الغرب، وهذا يبرز عدم إقامة سور على الأطراف الغربية التي كانت منطقة انسحاب لصاحب الزنج، ولم تذكر إقامة سور عليها. ولا بد من الإشارة إلى أن مناعة هذه الأسوار لم تقتصر على إحكامها وارتفاعها، بل تعززت بما وضع عليها من أسلحة من القسي الناوكية والعرادات وعلى الخنادق التي عززتها وأكملت دورها في الدفاع.

تردد ذكر السور في أخبار محاصرة صاحب الزنج، فذكر الطبري أن الموفق أمر أبا العباس بالتقدم إلى سور المدينة، ودنا حتى ألصق الشذوات بمسناة قصر الخائن[105]، وذكر «انحدر عليه الزنج من السور» وأن «محمد بن الحارث العمي كان إليه حفظ عسكر منكي والسور الذي يلي عسكر الموفق»[106]، وذكر «أن غلمان الموفق تمكنوا من تشعيث السور، وأنهم هدموه وثلموه، وأنه كان عليه فريق من الزنج، وأنهم انتهبوه»[107].

وذكر الطبري بعض المواقع التي تقع عند السور، فقال إن «مؤخر نهر منكي الخندق العريض ممتنع» وذكر أن قوات الموفق عبرت نهر الأتراك فلما

(105) الطبري 3/ 1983.

(106) الطبري 3/ 1987.

(107) الطبري 3/ 2003.

جاوزوا النهر انتهوا إلى السور فشعث الغلمان السور بما كان معهم من السلاح وأسلم الفساق سورهم، ثم عبروا الخندق إلى جسر مدّوه عليه حتى انتهوا إلى نهر ابن سمعان(108)، وكانت عليه منجنيقات وعرادات وأسهم ناوكية(109). وذكر أن أبا أحمد قصد موضعاً من السور فيما بين نهر منكي ونهر ابن سمعان، وقام جماعة بهدم السور مما يليه فثلمت فيه ثلماً كبيراً. وفي الهجوم التالي «هدم السور وانتهى منه إلى دار ابن سمعان وسليمان بن جامع»(110). وإن الموفق سارع إلى هدم سور الفاسق ودور أصحابه وهدم الجامع ثم عاد فهدم السور من حد الدار المعروفة بأنكلاي إلى الدار المعروفة بالجبائي(111).

وكان صاحب الزنج قد استغل توقف الحرب عندما جرح الموفق فأعاد بعض الثلم التي انثلمت في السور، فلما شفي الموفق أمر بهدم ذلك وما يتصل به، وكانت الحرب ذلك اليوم متصلة بنهر منكي، فحث الموفق قواته للتقدم إلى جوى كور، وهدموا السور، وانتهوا إلى قصور لأصحاب صاحب الزنج فانتهبوها وتابعوا هدم السور حتى اتصل بدار أنكلاي. ويتابع الطبري كلامه فيقول إن صاحب الزنج كان في الجانب الشرقي من نهر الغربي في عسكر فيه جمع من الزنج وغيرهم متحصنين بسور منيع وخنادق وهم جلة أصحاب الخبيث، فكانوا يحامون عما يقرب من سور نهر الغربي، وكانوا يخرجون من ظهور أصحاب الموفق في وقت الحرب على جوى كور، «فقرر الموفق هدم هذا السور وإزالة المتحصنين فيه، وسار الموفق بمن أعده إلى نهر الغربي، أمر بالشذا فنظمت من حد النهر المعروف بجوى كور إلى الموضع المعروف بالدباسين، خرج المقاتلة على جنبتي نهر الغربي ووضعت

(108) الطبري 3/ 2004.

(109) الطبري 3/ 2013.

(110) الطبري 3/ 2034.

(111) الطبري 3/ 2035.

السلالم على السور»[112]، وأفلح الموفق في هدم بعض السور، ثم عاود المحاولة، «قصد هذا الموضع على مثل قصده له المرة الأولى»[113]. غير أن قوات صاحب الزنج تابعت المقاومة وأسندهم جيشان تقدم بهما المهلبي وسليمان بن جامع، وخرج سليمان كميناً مما يلي جوى كور، فأرسل قوة مع مسرور إلى جوى كور.

(112) الطبري 3/ 2057.
(113) الطبري 3/ 2058.

الفصل العاشر

العرب أهل البصرة

كان مؤسسو البصرة وغالبية سكانها من العرب الذين تطغى عليهم سمات البداوة التي من أبرز صفاتها الفردية والاعتزاز بالنسب، وقد احتفظ العرب بهذه السمات الأساسية التي تميزهم والتي ترجع إلى أصول موغلة في الزمن، ثم عززها الإسلام بما أقر منها، وهي اللغة والاهتمام بما يتصل بحياة الإنسان والحرية في استعمال الفكر، وكان للأعراب دور كبير في انتصارات العرب وتوسيع دولتهم، غير أن توجه المهيمنين على الدولة كانت تثبيت الاستقرار والحياة الحضرية التي كانت تختلف أساساً عن كثير من نظم البدو بما في ذلك التعصب للنسب والاعتزاز به كأساس لمكانة الفرد في المجتمع. وبمرور الأيام نمت هذه المثل الحضرية وما يتصل بها من علاقات اجتماعية ومواضيع من التفكير، وازدهرت حياة حضرية للسمات البدوية فيها مكانة محدودة، من أبرز مظاهرها أن المهيمنين على الجيش وعلى الإدارة والثروات أكثرهم من غير العرب.

تطورت الحياة في البصرة ومنطقتها، فنمت فيها حياة حضرية اجتماعية واقتصادية وفكرية لها سمات تختلف عن البداوة، إلا أن أهل البصرة احتفظوا بالموروث العربي في لغتهم، وأسماء خطط سكناهم، واعتزاز بعضهم بالنسب وبالمثل البدوية التي تمجد الفروسية ولا تحترم الملكية

الفردية. غير أن عدد المحتفظين بالمثل البدوية كانوا «أعراباً ديارهم الصحراء التي تمتد إلى أطراف البصرة ومنطقتها الزراعية، فعمل صاحب الزنج على الاتصال بهم، ويبدو أنه لقي منهم بعض الاستجابة التي اقتصرت على موافقته على مشاركتهم في قطع الميرة عن أهل البصرة وخصوصاً ما يأتون به من صحراء الجزيرة أو من البطائح.

أثرت التوجهات السلمية التي ولدتها الدولة الإسلامية في البحرين، فأنمت فيها حياة حضرية لم تقض كلياً على القبلية البدوية المحصورة بأصول الدم بل سادت عليها، وحسرتها إلى مناطق الريف والصحراء، كما أن موقعها الجغرافي الناحي عن مراكز النشاط الحضري في العراق وبلاد الشام والحجاز، وإفادة كثير من أهلها من النشاط التجاري والملاحي[1] عزز تثبيت الحياة السلمية والعزلة النسبية عن الحركات السياسية القائمة على أساس طموحات الأفراد أو المتسمة. بالطبع العقائدي الديني، فهي بذلك أكثر ملاءمة لتحقيق طموحات علي بن محمد لإقامة كيان مرتبط به دون أن يصطدم بتيارات كان لها مفعول في الحركات التي حدثت خصوصاً في أقاليم الهضبة الإيرانية والمشرق وفي الجزيرة الفراتية والكوفة وكذلك النزاعات القائمة على أسس فردية بالدرجة الأولى كالتي قامت بعد مقتل المتوكل في سامراء وبغداد، فاختيار علي بن محمد البحرين لتكون مركزاً لحركة تحقق طموحاته لا يرجع إلى صلة قبلية أو اقتصادية أو عقائدية تربطه بها، بل إلى كونها منطقة «فراغ» قد تيسر له النجاح أكثر مما تحققه المراكز الأولى التي قد تعرضت لتيارات وحركات بعضها عنيفة.

البلالية والسعدية

إن الحرية التي يعتز بها العرب والتي عززها الإسلام أظهرت تيارات

(1) أسقط الواثق ما كان يؤخذ عن قوم من تجار بحر الصين تاريخ اليعقوبي 3/ 208

فكرية واجتماعية متعددة وأحياناً متناقضة، ولعل من أبرزها انقسام أهل البصرة إلى كتلتين رئيسيتين هما البلالية والسعدية، ولا نعلم أصول نشأتها وتطورها وإنما من المؤكد أنهما كانتا قائمتين على أسس قبلية تعززها الفروق الجغرافية في السكن، ولم ينفرد أهل البصرة في الانقسامات، فكانت مثلها قائمة في كثير من المدن إلا أنها انقسامات هشة غير عميقة، وآثارها سطحية ضعيفة، وفي أي حال فإن حياة أهل البصرة ابتعدت عن البداوة.

إنما ذكرها في عدد من المدن الإسلامية الأخرى، ففي بغداد كان التكتل والمعادات بين الحنابلة والشيعة[2]، وفي الكوفة كان أهلها من الشيعة إلا الكناسة فهي سنّية[3]، وفي الكوفة كان الخلاف بين الجزارين وهم سنّة، وبين الخياطين وهم شيعة، وفي ينبع كان بين السنّة والشيعة[4]، وفي نيسابور بين الشيعة والكرامية، وذكر مدناً بين أهلها خلافات لم يشر إلى أنها قائمة على أسس مذهبية، ففي عدن بين الحماحميين والملاحين، وفي زبيد بين اليجة والحبوش والنوبة وفي اليمامة بين الجزارين والأعراب[5]، ولهذه الخلافات سمات عرقية أو مصالح اقتصادية ولم يشر إلى أنها قائمة على أسس مذهبية. وإن هذه التكتلات هي من حيث العموم «شعبية» يشارك فيها الجمهور من العامة ممن لهم أفكار بسيطة تسيرهم عواطفهم دون النظر إلى عمق توجهاتهم وهي عموماً محلية محصورة في مدنها، وقلما تمتد آثارها إلى ما حولها أو إلى المدن الأخرى كما أنها شعبية لا ترقى إلى أوساط أهل الفكر. فأهملت الكتب المعنية بالأسس العميقة لكتب الفقه والآداب بحثها وتدوين آرائها. وهي قلما تعالج القضايا العامة أو تحمل آراء أو تتخذ مواقف

---

(2) أحسن التقاسيم 126.

(3) أحسن التقاسيم 102.

(4) أحسن التقاسيم 266.

(5) أحسن التقاسيم 102 وانظر «الحركات الشعبية» لكلود شاهين لمنشورة ترجمته في مجلة الاجتهاد.

تجاه أصحاب السلطة من الولاة والحكام والخلفاء، وهي من حيث العموم بسيطة ضحلة ليست لها في نفوس الناس جذور عميقة وقلما تتطور إلى العنف، ولذلك لم تسجل كتب التاريخ إلا حركات محدودة العدد من صراعاتها العنيفة.

أصول البلالية والسعدية

ذكر الجاحظ في كتابه (مناقب الأتراك) «فسل عن ذلك الخليدية والكتفية والبلالية الخريبية»(6) ولم تشر المصادر من هذه المجموعات إلى غير البلالية، علماً بأنه لم يذكر السعدية التي أشارت إليها عدة مصادر وإلى دورها إبان حركة صاحب الزنج كما أن المصادر الأخرى لم تذكر غير البلالية(7) في البصرة، كما أن اسم «الخريبية» يوحي أنها في البصرة، ويصح القول بأن كل هذه الكتل كانت في البصرة في زمنه، ولا شك أن وجودها كان قبل زمنه أي قبيل ثورة صاحب الزنج، وفي النصف الأول من القرن الثالث.

إن ذكر الجاحظ هذه الأصناف في سياق مباهاة الأتراك يعني أن أصولهم تركية، أي من الأقوام التي كانت تسكن بين الصغد والمغول في أواسط آسيا، ومع أنهم امتدوا إلى المناطق المجاورة غربي مواطنهم الأصلية، وصار تعبير «الترك» يشمل أحياناً أهل ما وراء النهر، بدأ امتداد الدولة الإسلامية منذ أوائل العصر الأموي حين جلب سعيد بن العاص عدداً من الصغد إلى المدينة، ثم جلب عبيد الله بن زياد عدداً من البخارية فأوطنهم البصرة، واستخدمهم الولاة وشاركوا في بعض المعارك، ولعل ولاة آخرين جلبوا إلى البصرة من وراء النهر أفراداً أو جماعات لم تشر إليهم المصادر وهم في أي حال يتميزون عن الأساورة الفرس الذين استقروا في

(6) مناقب الأتراك 1/ 27 طبعة عبد السلام هارون.

(7) البخلاء 42-42.

البصرة عند النهر المعروف باسمهم[8].

إن كلام الجاحظ يظهر تنظيم أربعة مجموعات واحدة منها منسوبة إلى مكان «الخريبية» واثنتان إلى أشخاص «الخليدية والبلالية»، ولم تذكر المصادر هوية من نسبوا إليهم وسبب هذه النسبة، أما الكتفية فدلالاتها غامضة.

إن السعدية يدل اسمها على أنها قائمة على بني سعد بن زيد مناة، وهم أكبر عشائر تميم في البصرة. وقد ذكر المقدسي انقسامات بالبصرة بين الربعيين وهم شيعة وبين السعديين وهم سنة[9] وذكر أيضاً بالبصرة عوام السالمية وهم قوم يدّعون الكلام والزهد، وهم منسوبون إلى سالم غلام سهل بن عبد الله التستري، وإن أكثر أهل البصرة قدرية شيعة، وثم حنابلة[10]. ولم تذكر المصادر سعة انتشار كل من المجموعتين من المجموعات الصغرى الأخرى، والمرجح أن هاتين الكتلتين لم تستوعب كل جمهور أهل البصرة، وإن عدداً من المجموعات لم ينضم إليها، ولم تمتد إلى العلية من الناس، ولم تتخذ موقفاً معادياً للسلطات الحاكمة أو مؤثراً على الأمن فيها. ويذكر المسعودي أنه في خلافة المعتز سنة 252 كانت الفتنة بين البلالية والسعدية وأنتج ذلك من ظهور صاحب الزنج[11].

لم يتخذ أي من البلالية والسعدية موقفاً محدداً من الحركات الأولى

---

(8) انظر تفاصيل عن هذه الأحوال المبكرة في كتابنا «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة». .وانظر عن استخدام الترك في الجيش العباسي كتابنا «سامراء وأهلها».

(9) أحسن التقاسيم 180.

(10) أحسن التقاسيم 126. فذكر عبد القاهر متكى الساعية الذين تبعوا الحلاج وعلق ناشر الكتاب بقوله كالبربراهية من الحشوية المندسين بين الحنابلة ينسبون إلى أبي الحسن محمد بن أحمد سالم البصري المتوفى بعد سنة 350 أي بعد سنوات من القضاء على حركة صاحب الزنج. الفرق بين الفرق 157.

(11) مروج الذهب 4/ 95 : وكان أبو أحمد قد نفي إلى البصرة إبان نشوب هذه العصبية فيها فأعيد إلى بغداد. الطبري 3/ 1714

لصاحب الزنج، ومن موقفه المساند لعمال الأرض على حساب ملاكيها، ما يدل على أنهم لم تكن لهم علاقة بالريف والزراعة وملكيات الأراضي فيها، بل كانت حياتهم متركزة على مدينة البصرة، ومواقفهم تتأثر بالأحوال المحلية لأهلها فحسب، فهي محصورة في منطقة محلية محدودة، وليست لها أي صلة بأي حركات وتوجهات المدن الأخرى، والترابط بينهم قائم على أحوال اجتماعية ومعاشية لا صلة لها بالعقائد المذهبية أو التيارات السياسية التي تهتم ببحثها وتوجيهها جماعات المثقفين والعلماء، ولهذا لم يبحثوها في كتبهم.

لم تذكر المصادر على كثرتها ما كان لأصحابها من علماء البصرة دور لأي من هذه المجموعات سوى ما ذكره الطبري عن بعض أحوالهم ومواقفهم من حركة صاحب الزنج ونشاطه في البصرة. فقد ذكر أن صاحب الزنج عندما قدم البصرة سنة 254 وافق ذلك فتنة أهل البصرة بالبلالية والسعدية، فطمع بميل أحد الفريقين إليه فلم يجبه من أهل البلد أحد، فغادر البصرة وذهب إلى بغداد[12]. إن هذا النص يظهر عدم وجود علاقة مسبقة بين المجموعتين وصاحب الزنج، وأنه لم يقصر اتصاله على مجموعة معينة منهما، وأنه لم يلق استجابة من أي منها.

ويذكر الطبري أنه لما عزل محمد بن رجاء الحضاري عن البصرة في السنة التالية «فوثب رؤساء الفتنة من البلالية والسعدية ففتحوا السجون وأطلقوا من كان فيها فتخلصوا فيمن تخلص وكان فتح السجون من مظاهر الشغب، ولا علاقة له بصاحب الزنج الذي استفاد من ذلك لإطلاق أصحابه المسجونين، وشجعته الفتنة على أن يعود إلى منطقة البصرة، حيث أقام في برنخل بعيداً عن البصرة[13].

(12) الطبري3/ 1745-6.

(13) الطبري3/ 1747.

موقف البلالية والسعدية من حركة صاحب الزنج

اهتم صاحب الزنج بأمر البلالية والسعدية، فكان من أول ما سأل عنها عندما كان في برنخل[14]. وأشار الطبري إلى ما يدل على ميل بعض البلالية إليه، فذكر أن صاحب الزنج أراد في أول حركته أن يأتي المذار، وهي في الجهات الشمالية من كور دجلة، غير أن أحد أصحابه أشار عليه أن يتحول إلى الجنوب فقد «بايع لك أهل عبادان وميان روذان وسليمانان وخلفت جمعاً من البلالية بفوهة القندل وابرسان ينتظرونك»[15]. ويذكر أنه بعد تحوله إلى الجنوب وظفره بعدد من المؤيدين، سأل محمد بن جعفر المربدي عن البلالية فقال إنما أتيتك برسالتهم، وهم يسألونك شروطاً إذا أعطيتهم إياها سمعوا لك وأطاعوا. فأعطاه ما سأل لهم، وضمن القيام له بأمرهم حتى يصيروا في حيزه، ولم يذكر الطبري هذه الشروط ولا أشار إلى أنهم أتوه[16]. ويذكر أن علي بن أبان وهو من أبرز قواد صاحب الزنج «وافاه ومعه رأس البلالية المعروف بأبي الليث القواريري، وقال شبل «الذي قتل أبا الليث القواريري وصيف المعروف بالزهري، وهو من مذكوري البلالية، ورأس المعروف بعبدان الكسبي، كان له في البلالية صوت في رؤوس جماعة منهم»[17]. إن هذا النص يظهر أن صاحب الزنج كان يتوقع انضمام البلالية إليه، غير أن توقعاته لم تكن صائبة فقد كان البلالية يقاتلون مع الدولة، وهذا النص ينفرد بذكر رأس البلالية أبي الليث القواريري وأن عبدان الكسبي من كبار رؤوسهم. ومن رؤوسهم زريق وأبو الخنجر وصيرفي الكوفي[18]. أطلق صاحب الزنج القواريري وضمه إلى شبل، وكانت السعدية

---

(14) الطبري3/ 1748.

(15) الطبري3/ 1756.

(16) الطبري3/ 1774.

(17) الطبري3/ 1778.

(18) الطبري3/ 1778.

زهاء ألفين وكان عدد من أعده الزينبي لقتال صاحب الزنج من البلالية[19] ممن شارك في الدفاع عن البصرة[20].

لم يذكر الطبري دوراً بارزاً للبلالية في تأييد صاحب الزنج، بل ذكر ما يشير إلى أنهم كانوا مهتمين بخلافاتهم التي ظلت قائمة مع السعدية في داخل البصرة، فيذكر الطبري أنه قبيل دخول صاحب الزنج البصرة كان الحصار عض أهل البصرة، وكثر الوباء فيها واستعرت الحرب بين الحزبين المعروفين بالبلالية والسعدية، ولم يكن بالبصرة من جند السلطان إلا نيف وخمسون فارساً[21].

انحاز إلى سليمان بن جامع جماعة من مذكوري البلالية وأنجادهم في مائة وخمسين سميرية وشجعوه على التقدم إلى واسط وقالوا له ليس بينك وبين واسط أحد من عمال السلطان من يدافع عنها غير أبي معاذ القرشي الذي قتل، وكتب صاحب الزنج كتاباً إلى البلالية الذين كانوا يستأمنون إليه، وأنفذهم في عشر سميريات انتخبهم للمقاتلة في نهر أبان[22].

ويذكر الطبري أن البلالية والسعدية قاتلوا مع قوات الدولة صاحب الزنج، ويذكر أن الزينبي وهو قائد عباسي قد أعد لصاحب الزنج من الخول والمطوعة والبلالية والسعدية وهم خلق كثير وهم على لقاء بهم في بيان ويقود الجيش أبو منصور[23].

وفي معركة الجعفرية انهزم أهل البصرة وقتل من الجند والأعراب وأهل البصرة البلالية والسعدية خمسمائة رجل[24]. وفي نهر حرب كان

(19) الطبري3/ 1769.

(20) الطبري3/ 1783.

(21) الطبري3/ 1852.

(22) الطبري3/ 1901.

(23) الطبري3/ الطبري3/ 1767.

(24) الطبري3/ 1778.

الفضل بن عدي الدارمي مع السعدية[25].

وفي محاولة صاحب الزنج الهجوم على البصرة «جمع له أهل البصرة بقيادة حماد الساجي وكان من غزاة البحر. فجمع المطوعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن خف معه من البلالية والسعدية، ومن أهل النظر ومن غير هذه الأصناف من الهاشميين والقريشيين وسائر أصناف الناس «وقاتله عند نهر أم حبيب ونهر شيطان[26]. وفي سنة 265 أرسل جعلان الزينبي وما جمع من مقاتلة البلالية والسعدية، ولكنهم اندحروا[27]، وذكر أن السعدية قاوموا غزو صاحب الزنج البصرة لكنهم اندحروا، وكان أحد أرتال صاحب الزنج قد وجه إلى بني سعد[28]. «واستفاض الناس من دخول بني تميم في سلم الخائن[29]، وقد أخرج بني سعد إلى عبادان ثم انسحب[30]. ويظهر هذا النص أن السعدية انضمت إليه ويفهم هذا الانضمام ضمن سياق الأحداث التي انهارت فيها مقاومة أهل البصرة وتدهورت معنوياتهم.

قوات أخرى مع الدولة

لما تقدم صاحب الزنج لدخول البصرة انتدب لحربهم رجل من أهل البصرة يعرف بحجاج الساجي وكان من رجال البحر. فجمع المطوعة ورماة الأهداف وأهل المسجد الجامع ومن قدم إليه من البلالية والسعدية الهاشميين والقريشيين وسائر أصناف الناس[31]، وكل هؤلاء قوات متحمسة لقتال الزنج، خلا المتطوعة ورماة الأهداف، وكان بغراج في البصرة في جماعته،

---

(25) الطبري3/ 1777.
(26) الطبري3/ 1780.
(27) الطبري3/ 1835.
(28) الطبري3/ 1852.
(29) الطبري3/ 1854.
(30) الطبري3/ 1856.
(31) الطبري3/ 1782.

وقد فر الجند فخلت البصرة ولم يكن فيها يومئذٍ من جند السلطان إلا نيف وخمسون فارساً مع بغراج الذي كان يليها[32].

«ولما انكسر أهل البصرة وجه جعلان التركي مدداً لأهل البصرة، وأمر أبم الأحوص الباهلي بالمصير إلى الإبلة والياً وأمده برجل من الأتراك يقال له جريج»[33].

ولما ولي جعلان البصرة سنة 256 أقام ستة أشهر في خندقه ومعه الزينبي وبريه وبنو هاشم ومن خف لحرب صاحب الزنج من أهل البصرة، وجمع الزينبي مقاتلة البلالية والسعدية[34]، ولكن الزنج دحروهم[35]. غير أن إبراهيم بن سيما أوقع بالزنج وقتل منهم خلقاً كثيراً[36].

الخول

ذكر الطبري الخول من أصناف القوات التي جمعها أهل البصرة، فذكر أن الزينبي قد أعاد للقاء صاحب الزنج الخول والبلالية والسعدية وهم خلق كثير[37]. وفي الجعفرية قتل خمسمائة من الخول ومن أصحاب الزينبي ألف ومن البلالية والسعدية ألفين ومن الفرسان مائتين[38]. وذكر حماد الساجي وكان من غزاة البحر «فجمع المطوعة ورماة الأهداف، وأهل المسجد الجامع ومن خف من البلالية والسعدية، ومن أهل النظر ومن غير هذه الأصناف من الهاشميين والقريشيين وسائر أصناف الناس، وقد قاتلوا في نهر أم حبيب

(32) الطبري3/ 1849، 1851.
(33) الطبري3/ 1786.
(34) الطبري3/ 1834.
(35) الطبري3/ 1849
(36) الطبري3/ 1846.
(37) الطبري3/ 1766-1767.
(38) الطبري3/ 1769.

ونهر شيطان واندحروا»[39].

ذكر الخول في عدد من المعارك الأولى، ففي بيان عند دبيران حمل الخول يقدمهم أبو العباس بن اليمن المعروف بأبي الكباش، ويشير الزنجي غير أن السودان حملوا عليهم وقتلوهم أجمعين[40]، وكان القتلى زهاء ألف فيها رؤوس أنجاد الخول ومنهم زهير بن سليمان وكان زهير مع الخول يقاتل عند دبا[41]، وكان شهاب العنبري حين قدم معه من الخول قاتلوا صاحب الزنج في الجعفرية[42] وقال لصاحب الزنج لست آمن عليك الخول في السباخ ومن الخول أبو العباس بن أعين المعروف بأبي الكباش[43] وبشير القيسي، وقد حملوا على الزنج من دبيران ولكنهم اندحروا[44].

المطوعة

أما المطوعة فهم مقاتلة ورد ذكرهم في القرآن الكريم «ومن يطوع خيراً» «الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين»، وعرف ابن منظور المطوعة بأنهم «الذين يتطوعون بجهادهم»[45] وكانوا في البصرة منذ زمن سابق لثورة صاحب الزنج، فذكر خليفة أنه في سنة 231 «كسرت مراكب المطوعة في بحر البصرة بين جنابة وسينيز، ذهب فيها ناس من المطوعة»[46]، وكانت قرب نهر اليهودي بلدة اسمها «المطوعة»[47]. وكان من أبي دلف قوة من

(39) الطبري3/ 1783.
(40) الطبري3/ 1770.
(41) الطبري3/ 1773.
(42) الطبري3/ 1775.
(43) الطبري3/ 1786.
(44) الطبري3/ 1769.
(45) لسان العرب 10/ 14.
(46) تاريخ خليفة 520.
(47) الطبري 3/ 1896، 1900، 2008، 2021.

المطوعة من أهل البصرة[48].

وذكر الطبري أنه في قتال الزينبي «جاءت ألف وتسعمائة سفينة فيها قوم من المطوعة قد احتبسوها»[49]. وعندما اتضح رجحان كفة الموفق على صاحب الزنج في هجومه على المختارة جاءته قوات فكان ممن صار إليه من المطوعة أحمد بن دينار من إيذج ونواحيها من كور الأهواز في جمع كثير من الفرسان والرجالة، فكان يباشر الحرب بنفسه وأصحابه إلى أن قتل. ثم قدم بعده من أهل البحرين فيما ذكر خلق كثير زهاء ألف رجل يقودهم رجل من عبد القيس، فجلس له أبو أحمد ودخل إليه رئيسهم ووجوههم فأمر أن يخلع عليهم واعترض رجالهم أجمعين، وأمر بإقامة الأنزال لهم. وورد بعدهم زهاء ألف رجل من كور فارس رأسهم شيخ من المطوعة يكنى أبا سلمة، ثم تابع المطوعة انضمامهم من بلاد عدة من الفرسان زهاء ألف فارس ومن الرجالة خمسين أو يزيد سوى من غيره من المطوعة وأهل المعسكر من لا ديوان لهم[50].

(48) الطبري 3/ 206

(49) الطبري 3/ 1768.

(50) الطبري 3/ 2086-7.

الفصل الحادي عشر

ولاة الخلافة

ولاة البصرة إبان حركة صاحب الزنج

لما قدم علي بن محمد في أول أمره من البحرين يدعو لنفسه في البصرة كان الوالي عليها محمد بن أبي عون، وهو أحد القواد الذين قاتلوا مع محمد بن عبد الله بن طاهر في النزاع بين المستعين والمعتز[1]. فلما صفت الخلافة للمعتز بعد سنة 252 عقد لمحمد بن أبي عون لواء على البصرة والبحرين واليمامة[2]. فاتخذ مقامه في البصرة. ولما علم بنشاط علي بن محمد وجلبه بعض المؤيدين إليه قام بالقضاء على حركتهم فحبس عدداً ممن كان يميل إليه[3] وهرب علي بن محمد مع عدد من أتباعه إلى بغداد، غير أن الأحوال في البصرة لم تهدأ فقد هاجت الفتنة بين البلالية والسعدية[4] ثم نقل محمد بن أبي عون إلى واسط[5]. فولي البصرة بعده محمد بن رجاء الحضاري وهو قائد عسكري شارك قبل ذلك في قتال الروم

---

(1) الطبري 3/ 1574، 1658.

(2) الطبري 3/ 1658.

(3) الطبري 3/ 1665.

(4) الطبري 3/ 1547.

(5) الطبري 3/ 1746، 1751.

وكان على ساقة الجيش الذي يقوده وصيف[6]، ثم وجهه محمد بن عبد الله بن طاهر والي بغداد لقتال الأعراب في الأنبار[7]، كما شارك في القتال بجانب المستعين ضد المعتز[8].

وفي خلال ولاية محمد بن رجاء عاد صاحب الزنج يتحرش بالبصرة سنة 254، فعمل محمد بن رجاء على صده وحبس من كان يميل إليه[9]. وفي سنة 256 وجّه السلطان جعلان مدداً لأهل البصرة. وكانت إليه جبايتها[10]. فجعل على الإبلة أبا الأحوص الباهلي وأمده برجل من الأتراك يقال له جريح وأقام جعلان ستة أشهر خندق على نفسه على فرسخ من عسكر صاحب الزنج ووجّه من خندقه حملان لقتال صاحب الزنج فهاجمه إلى برمساور[11].

ثم صرف جعلان، وولى البصرة سعيد بن صالح المعروف بالحاجب[12]، وألقى عليه واجب صد تقدم قوات صاحب الزنج غير أنه لم يفلح في صدهم فتخاذل أهل البصرة والقوات التي فيها ولاحتباس الأرزاق التي كانت سببت لهم من مال الأهواز التي أبطأوا في إنفاذها[13]. وفي خلال ذلك نقل صاحب الزنج مقره من السبخة إلى الجانب الغربي من نهر أبي الخصيب[14].

ولما اندحر سعيد بن تكين دخل الزنج جبى فقتلوا ونهبوا وأخربوا،

(6) الطبري 3/ 1481.
(7) الطبري 3/ 1662.
(8) الطبري 3/ 1579، 1662.
(9) الطبري 3/ 1745.
(10) الطبري 3/ 1835.
(11) الطبري 3/ 1873.
(12) الطبري 3/ 1838، 1842.
(13) الطبري 3/ 1853.
(14) الطبري 3/ 1835.

وكان صاحب الزنج قد خرب الإبلة قبل ذلك، فرعب أهل البصرة رعباً شديداً، فانتقل كثير من أهلها وتفرقوا في بلدان شتى، وكثرت الأراجيف في أهلها[15]. واشتبك سعيد في معركة مع صاحب الزنج عند نهر معقل واندحر فيها ومن معه، ودخل أمرهم خلل للبيات الذي تهيأ عليهم ولاحتباس الأرزاق عنهم[16] ولم يبق فيها إلا ضعفاؤهم ومن لا حراك به[17].

ثم عزل يارجوخ سنة 257 سعيد بن منصور وولي منصور بن جعفر بن ديناز البصرة وكور دجلة إلى ما يلي الأهواز والجيش الذي كان معه[18] وكان إلى منصور حرب الأهواز ومنها كانت أرزاق جنده، وجعل بغراج على البصرة فظل منصور مقيماً في الأهواز وعمل على جمع السفن التي تأتي بالميرة ما ضايق صاحب الزنج فأمر علي بن أبان المهلبي بالمصير إلى جبى لحرب منصور بن جعفر فانهزم منصور في المعركة وتفرق أصحابه بعد أن قتل من جيشه حوالى خمسمائة عدا من غرق[19]. فأضعفه هذا الحادث، واقتصر على بذرقة القيروانات واتسع أهل البصرة لوصول الميرة إليهم وكان انقطاعهم قد أضرّ بهم، إلا أن الزنج عسكروا بالخيزرانية وعرقلوا وصول الإمدادات مما أضعف أهلها وفرقهم[20]، ثم قتل في معركة مع الزنج ولم يبق من جند السلطان إلا نيف وخمسون[21].

وكان صاحب الزنج يتجنب الاستيلاء على البصرة ويرى الاقتصار على حصارها ويرى أن يرهب أهلها ويقول «إن البصرة خبزة لك تأكلها من

(15) الطبري 3/ 1838.
(16) الطبري 3/ 1843.
(17) الطبري 3/ 1786.
(18) الطبري 3/ 1843، 1848.
(19) الطبري 3/ 1847.
(20) الطبري 3/ 1847، 1848.
(21) الطبري 3/ 1851.

جوانبها، فإذا انكسر الرغيف خربت البصرة». فلما انهارت قوات جند السلطان في البصرة[22] ولم يعد فيها للسلطان وال أو قائد يدافع عنها تجرأ صاحب الزنج وأخذ يعد العدة لدخولها، وحشد لها أبرز قادته واستعان بالأعراب، ثم هاجمها ودخلها بعد تغلبه على مقاومة العباسيين وأنصارهم ومن انضم إليهم وأنزل في أهلها مذبحة، ولم يمكث فيها أكثر من أيام قليلة ثم غادرها.

ذكر الطبري أن الزنج لما هاجموا البصرة كان بغراج يدافع عنها وحاول الصمود عبثاً في المريد[23]، ثم وجهه السلطان إلى الأهواز لصد تقدم يعقوب بن الليث على رامهرمز[24]، ثم انضم إلى جيش الموفق الذي تقدم من سامراء فأقام في برمساور ثم في بردودامع جعلان[25] ثم ولي البصرة إسحاق بن كنداج بضعة أشهر قطع خلالها الميرة عن صاحب الزنج[26].

وفي سنة 261 ولي موسى بن بغا فارس والأهواز والبصرة والبحرين واليمامة[27]، وفي آخر تلك السنة ضم عمل المشرق إلى الموفق فولى مسروراً البلخي ما كان يتولاه موسى بن بغا مضافاً إليها حرب الزنج[28]. ثم ولى الموفق الترمذي على البصرة، ثم صرفه بعد سنة وولى قيصر بن أرخون أخشاد فرغانة، وهو أحد قواده الفراعنة[29]. ثم ولى الموفق البصرة والإبلة وكور دجلة رجلاً من قواد مواليه اسمه سهل بن تركش[30].

---

(22) الطبري 3/ 1848

(23) الطبري 3/ 1852.

(24) الطبري 3/ 1861.

(25) الطبري 3/ 1965.

(26) الطبري 3/ 1877، 1879

(27) الطبري 3/ 1876، 1887.

(28) الطبري 3/ 1889.

(29) الطبري 3/ 2016.

(30) الطبري 3/ 2096.

عمال المناصب الأخرى

ذكرت المصادر أصحاب عدد من الأعمال السلطانية ولم تذكر لأي منهم دوراً في مقاومة صاحب الزنج، فذكر الطبري أن سيران، وهو أحد أصحاب صاحب الزنج أخبره بأن أهل البصرة قد أعدوا قوات لصدهم، وممن أعدوهم «الشرط لكشف من ظفروا به من السودان»[31] ولم يرد ذكر اسم من كان يليها.

أما المعاون فإن الطبري ذكر أنه في سنة 286، ولي «أحمد بن محمد الواثقي معاون البصرة وكور دجلة»[32]. «وكان على بريد البصرة هارون بن عبد الرحيم الشيعي»[33]. وذكر وكيع قضاة البصرة إبان حوادث صاحب الزنج فقال إنه كان يلي القضاء العباس بن محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، ثم وليها بعده سنة 252 أحمد بن موسى الرازي سنة 256، ثم وقعت الفتنة بالبصرة ودحض صاحب الزنج في سنة 258 وخربت.

ثم خرج إليها الموفق فاستقصى على من رجع من الناس وعلى عسكره رجلاً من أهل البصرة يقال له أحمد بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد، وكان (من قبل) على قضاء واسط وكور دجلة، وكان يلزم الموفق بالله حيث كان يستخلف على البصرة محمد بن أسيد، رجلاً من أهل البصرة. ثم توفي محمد بن حماد في سنة 276، فاستقضي على البصرة أبو محمد يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد، وكان مقيماً ببغداد، واستخلف على البصرة محمد بن جعفر بن أحمد بن العباسي بن عبد الله بن الهيثم بن بسام. وتوفي محمد بن يوسف سنة 292[34].

---

(31) الطبري 3/ 1767.

(32) الطبري 3/ 2188.

(33) الطبري 3/ 1852.

(34) أخبار القضاة 2/ 181.

ولاة الأهواز

عند ظهور حركة صاحب الزنج كان يلي الأهواز سعيد بن تكين واليه حربها[35]، أما الخراج والضياع فكان عليها إبراهيم بن محمد بن المدبر[36]. ثم صرف سعيد بن تكين سنة 257 وولي الأهواز إبراهيم بن سيما[37].

ثم صرف سعيد بن تكين سنة 257 وولى الأهواز إبراهيم بن سيما، ثم عقد المعتمد لأخيه أبي أحمد الموفق على بغداد والسواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس، فعقد أبو أحمد ليارجوخ على البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين فكان سعيد بن صالح[38]، وكانت اليارجوخ وهو تركي خبرة عسكرية[39]، إذ كان قد قاتل قبل ذلك مساور الشاري ولكنه انهزم[40]، ثم شارك في الأحداث التي استعرت زمن المهتدي[41]. ولم يبق يارجوخ طويلاً فقد توفي سنة 258 وصلى عليه أبو عيسى بن المهتدي[42].

وفي أوائل الحركات مع صاحب الزنج كان على ولاية الأهواز منصور بن جعفر الخياط «وكان إليه يومئذٍ حرب الأهواز، وله يد في خراجها[43]، وقاتل علي بن أبان ثم انهزم[44] وكان تأخره في إمداد سعيد بن صالح بن المولد من عوامل تضعضع سلطانه[45].

---

(35) الطبري 3/ 1771.
(36) الطبري 3/ 1838.
(37) الطبري 3/ 1846.
(38) الطبري 3/ 1846.
(39) الطبري 3/ 1808.
(40) الطبري 3/ 1707.
(41) الطبري 3/ 1824.
(42) الطبري 3/ 1873.
(43) الطبري 3/ 1844، 1846.
(44) الطبري 3/ 1860، 1861.
(45) الطبري 3/ 1847.

وفي سنة 258 قتل منصور فولى يارجوخ ما كان إلى منصور من العمل[46]، وقاتل أصفحون الزنج، وكان من أصحابه ثلاثمائة وسبعون فارساً[47] واشتبك مع قوات صاحب الزنج ومعه نيزك في جماعة من القواد، ولكنه لم ينتصر إذ غرق في المعركة عند مسماران[48].

وفي سنة 259، ولي موسى بن بغا حرب صاحب الزنج فوافى عبد الرحمن بن مفلح بالأهواز، وإسحاق بن كنداج البصرة وإبراهيم بن سيما بالباذورد.

ثم صرف عبد الرحمن عن الأهواز، ووليها أبو الساج وأوكل إليه قتال صاحب الزنج[49].

ثم صرف أبو الساج عن عمله، وولي مكانه إبراهيم بن سيما وظل في عمله إلى أن صرف موسى بن بغا عن ما كان إليه من عمل المشرق[50].

وفي سنة 262، صرف الموفق موسى بن بغا عن الأهواز والبصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين وحرب الزنج ووليها مسرور البلخي[51]، وكان مسرور ممن شارك في قتال مساور الشاري[52]، ثم ولاه أبو أحمد الأهواز والبصرة[53]، ثم انسحب فيها إلى واسط ووجه أحمد بن ليثويه[54]؟ إلى قتال الزنج في تستر وانتصر عليهم ولاحقهم إلى الشمال، وأقام بالشديدية[55].

---

(46) الطبري 3/ 1862.
(47) الطبري 3/ 1866.
(48) الطبري 3/ 1876.
(49) الطبري 3/ 1866، 1888.
(50) الطبري 3/ 1877.
(51) الطبري 3/ 1899.
(52) الطبري 3/ 1843.
(53) الطبري 3/ 1889.
(54) الطبري 3/ 1902.
(55) الطبري 3/ 1911.

ولما تقدم الموفق في حملته الثانية على حركة صاحب الزنج أمر بجباية الأموال من الأهواز وأنفذ إلى كل كورة قائداً ليروّج بذلك حمل الأموال، وأمر مسرور البلخي عامله على الأهواز بإحضار من معه من الموالي والغلمان والجند ليعرضهم ويأمر بإعطائهم الأرزاق وينهضهم إلى حرب صاحب الزنج[56].

ولى مسرور كور الأهواز تكين البخاري[57] الذي كان قد قاتل قوات صاحب الزنج عند تقدمها إلى واسط[58] وواقعها عند الشديدية[59]. ولما ولي الأهواز انتصر على قوات صاحب الزنج، وتقدم إلى تستر، وراسل صاحب الزنج ولاطفه، فعزله مسرور وحبسه، وتوفي في سجنه[60].

وولي أغرتمش سنة 266 ما كان تكين يليه من أعمال الأهواز[61]، وكان أغرتمش قدم مع خشيش في الخيل والرجالة والسميريات لمقاتلة سليمان بن جامع في باب طنج، غير أنه اندحر وعبر دجلة، وقتل جشيش[62]. ثم وجهه مسرور مع أبي مطر بن جامع لقتال علي بن أبان في تستر، فانتصر علي بن أبان عليه وألحقه بقنطرة أربك ونهر السدرة، ودحره فيها وأسر مطر ودخل علي بن أبان الأهواز، وانسحب أغرتمش إلى تستر[63].

(56) الطبري 3/ 1976.
(57) الطبري 3/ 1933.
(58) الطبري 3/ 1917.
(59) الطبري 3/ 1922.
(60) الطبري 3/ 1933-4.
(61) الطبري 3/ 1735.
(62) الطبري 3/ 1904.
(63) الطبري 3/ 1935.

ولاة البطيحة

أما البطيحة فكان يليها عمير بن عمار[64]، غير أنه انضم إلى الزنج، فجعله سليمان بن جامع خليفته مع رجل من رؤساء الباهليين اسمه أحمد بن عميم[65] وكان عمير يلي الطف[66].

ثم تغلب على البطائح سعيد بن أحمد بن سعيد الباهلي هو وأصحابه من باهلة وأفسدوا الطريق إلى أن قضى عليه محمد المولد سنة 257[67].

ثم صار جعلان عامل السلطان بالبطائح، وتلاه على ولايتها تكين[68].

أدرك صاحب الزنج أهمية البطيحة في سير تجارة بغداد، واستغل قلة وضعف قوات السلطان التي تدافع عنها وقلق أهلها من موالي باهلة. فأرسل شبلاً وأبا النداء في عشرة آلاف من الزنج وغيرهم إلى نهر أبي الأسد وأنهار البطيحة للغارة عليها ولقطع الميرة عن عسكر الموفق في حملته الأولى، وقطع ما يردها من البطيحة ومدينة السلام وواسط وأطرافها[69].

أما كور دجلة وطساسيجها فلم تذكر المصادر من كان يليها بالرغم من أهميتها في أحداث حركات صاحب الزنج التي ذكرت أخلة مع حركاته في المنطقة.

ولاة واسط

أما واسط فكان عامل السلطان فيها محمد بن عون. ثم شخص السلطان سنة 257 محمد بن المولد إلى البصرة ثم نقله إلى واسط[70]. ولما

(64) الطبري 3/ 1746.
(65) الطبري 3/ 1902.
(66) الطبري 3/ 1920، 1922.
(67) الطبري 3/ 1858
(68) الطبري 3/ 1917-1918.
(69) الطبري 3/ 1999.
(70) الطبري 3/ 1877.

تقدم الزنج إلى واسط كان عليها موسى بن بغا، ثم أخلاها مع عماله[71].

ولما تقدم الموفق سنة 259 لقتال الزنج استخلف على واسط وحرب صاحب الزنج محمداً المولد[72] الذي قاتل الزنج[73] ثم التحق سنة 265 بيعقوب بن الليث الصفار[74].

ثم ولى واسط جعلان بعد صرفه عن البصرة، وأقام بالشديدية[75] ثم صرف عنها ووليها ابن ليثويه فأقام بالشديدية[76] إلا أن سليمان بن جامع هزمه وأوقع بأغرتمش وقتل جيشيش ومن كان معه[77].

ولما تقدم أبو أحمد بعد انسحاب أبي العباس كان جيش بن خوتكين في قرية حسان[78] وكمنجور البخاري والسودان في الصينية[79] وكان طرناج يلي نهر أبان، ومطر بن جامع في الرصافة وإبراهيم بن سيما يلي الباذورد، ولاه إياها موسى بن بغا[80].

وفي سنة 261 أولى أبو أحمد واسط مسرور البلخي، وكان قبل ذلك على مقدمة جيشه[81]. وكان موسى بن بغا وجه مسرور البلخي إلى الباذورد وولى جعلان مكان موسى بن أتامش وكان البخاري مقيماً ببردودا، وأحمد بن ليث عامل أبي أحمد على جنبلاء[82].

(71) الطبري 3/ 1811.
(72) الطبري 3/ 1925.
(73) الطبري 3/ 1929.
(74) الطبري 3/ 1929.
(75) الطبري 3/ 1917.
(76) الطبري 3/ 1924.
(77) الطبري 3/ 1917.
(78) الطبري 3/ 1922.
(79) الطبري 3/ 1920.
(80) الطبري 3/ 1924.
(81) الطبري 3/ 1891.
(82) الطبري 3/ 1937.

وكان مسرور البلخي وتكين البلخي وثابت بن دلف في الأهواز[83]. ووجه مسرور أحمد بن ليثويه لقتال قوات صاحب الزنج في تستر، فانتصر عليهم وتابع مقاتلتهم، فلما صرف جعلان وافى ابن ليثويه وأقام بالشديدية[84].

وممن كان مع السلطان في منطقة واسط أبو معاذ القرشي الذي أخبر رجلان من البلالية صاحب الزنج عندما كان في منطقة الأهواز «ليس بينك وبين واسط من يدافع عنها غير أبي معاذ القرشي الذي قاومهم من نهر أبان وفي الجازرة، وقتل في المعركة»[85].

وكان محمد بن عبيد الله يعاون صاحب الزنج عند تستر[86] وكان بالصينية جيش كثيف يقوده رجل منهم يقال له نصر السندني[87].

---

(83) الطبري 3/ 1960.

(84) الطبري 1/ 1957.

(85) الطبري 3/ 1901.

(86) الطبري 3/ 1929.

(87) الطبري 3/ 1956.

الفصل الثاني عشر

قادة جيش السلطان في الحركات الأولى

كانت الحركات الأولى لصاحب الزنج في كور دجلة وفي الأهواز، وهو الإقليم الغني بموارده وكانت فيه للدولة قوات عسكرية اعتمدت عليها في مقاومة حركات صاحب الزنج. ولم تذكر المصادر عدد هذه القوات وتوزيعها، بل اقتصرت على ذكر أسماء قادتها ونشاطاتهم. وأبرز من ذكر منهم رمسيس والحميري وعقيل الأيلي[1]. وقد توجهوا إلى السيب، ولكنهم اندحروا فيها ثم في قرية اليهود التي انسحبوا إليها[2]، غير أن أهل السوس حرضوهم على متابعة قتال صاحب الزنج. ثم تابع رمسيس حركاته حتى أطراف المفلح والقرى المتصلة بها كما حرضه عقيل وأهل الدبلة، والدبيلا، غير أن أهل الفرات منعوه من عبور نهر ميمون، فانسحب إلى بطن دجيل[3]، وأقام بأقشى والشيفيا[4]. ثم أوقعت به قوات صاحب الزنج في برد الخيار لكنه هرب وتابع مع أصحابه قتال صاحب الزنج وعبر دجلة واتجه إلى نهر الدير[5]. ولما تقدمت قوات صاحب الزنج إلى واسط كان رمسيس

---

(1) الطبري 3/ 1755، 1758، 1761.

(2) الطبري 3/ 1755.

(3) الطبري 3/ 1759، 1760.

(4) الطبري 3/ 1762.

(5) الطبري 3/ 1764، 1765.

ممن قاومهم، غير أن الجبائي انتصر عليه في طريق الماديان، وغنم منه أربعاً وعشرين سميرية ونيفاً وثلاثين صلغة، وأفلت وسار إلى برمساور[6] ولم يرد له ذكر في الأحداث التالية.

أما عقيل فإنه اشتبك مع قوات صاحب الزنج، ولكنه انهزم، ووعد صاحب الزنج أن يدفع له مالاً[7].

وأما الحميري فقد قاوم قوات صاحب الزنج عند نهر بور ولكنه اندحر[8]، وتقدم مع عقيل وخليفة ابن أبي عون، فنزلوا نهر طين عند الزريقية[9]، ثم وافى مع رمسيس إلى السيب، فقاتلا صاحب الزنج[10]، ولكنهما اندحرا فانسحبا إلى المذار[11].

وممن قاتل الزنج في الأهواز طاشتمر الذي وجهه عبد الرحمن في جمع من الموالي لقتال علي بن أبان في عسكر المهدي[12]، ثم قتل في رامهرمز[13].

وممن قاتل الزنج جشيش، وثابت بن أبي دالق، وموسى بن دالجويه، وكان قائداً لإحدى المجموعات الستة التي رتبها الموفق للهجوم على مدينة صاحب الزنج والقضاء عليه[14].

ومن قادة قوات السلطان أبو الهلال التركي وكان معه زهاء أربعة

---

(6) الطبري 3/ 1900.
(7) الطبري 3/ 1764.
(8) الطبري 3/ 1750.
(9) الطبري 3/ 1752.
(10) الطبري 3/ 1758.
(11) الطبري 3/ 1755.
(12) الطبري 3/ 1878.
(13) الطبري 3/ 1886.
(14) الطبري 3/ 1988.

آلاف، اشتبك مع الزنج فدحرهم، وقتل منهم ألفاً وخمسمائة، ثم اشتبك معهم في معركة أخرى ودحرهم فيها[15].

وممن قاتل الزنج موسى بن أنامش، وهو من قواد أبي العباس[16]. كذلك الشاه وكمنجور والفضل بن موسى بن بغا، وأخوه، وقد وجههم إلى الصينية[17]. وكان الفضل بن موسى على أحد جيوش الموفق[18]. وممن قاتل الزنج في سوق الريان رجل من الترك في زهاء أربعة آلاف لكنه اندحر وقتل السودان من أصحابه زهاء ألف وخمسمائة[19]. وممن قاتلهم المغاربة، وكانوا زهاء ألف غير أن السودان نصبوا كميناً، وقتلوهم أجمعين ودمروا قرابة ثمانين علماً[20].

قوات السلطان في مرحلة القضاء على حركة صاحب الزنج

يقول الطبري: إن الموفق عند تقدمه الأخير للقضاء على ثورة صاحب الزنج، كان جميع الفرسان والرجال عشرة آلاف[21]، ويقول في مكان آخر أن الموفق عندما وصل ميدان المعركة الأخيرة كان في أصحابه وأتباعه في زهاء خمسين ألفاً، وكان ذلك بعد وصول جيش صاعد[22]. ويقول إن الناس في زهاء ثلاثمائة ألف[23]، ولا شك أن هذا الرقم الأخير يدخل فيه من كانوا في خدمات الجيش وهم غير المقاتلة.

(15) الطبري 3/ 1765.
(16) الطبري 3/ 1931.
(17) الطبري 3/ 1956.
(18) الطبري 3/ 1987.
(19) الطبري 3/ 1765.
(20) الطبري 3/ 1771.
(21) الطبري 3/ 1947.
(22) الطبري 3/ 1720.
(23) الطبري 3/ 1986.

خرج الموفق من بغداد بقوة تشمل قوات الجيش العباسي المنفذ للمعركة، وعدده كبير بالمقارنة مع عدد من في الحملات التي كانت الدولة تنفذها على الثائرين أو الروم، ما يشير إلى أن الدولة كانت تقدر خطر تفاقم تقدم صاحب الزنج، وأنها حشدت له أقوى ما تستطيع، إلا أن هذا الرقم قد يكون فيه مبالغة.

أما روايته الثانية أن جيشاً زهاء خمسين ألفاً، فإنه يضيف ما انضاف إليه من قوات في المنطقة، والمستأمنة والقوات الخاصة ببعض القادة، ومع هذا فإن في الرقم مبالغة، إذ لم يبرز غير غلمانه في الدور الفعال في قتال صاحب الزنج والقضاء على حركته.

ثم عززت الخلافة العباسية في سامراء الموفق بقوات قتالية أرسلتها له، كما جاءته قوات كانت في المنطقة، ومن المستأمنة الذين استسلموا للموفق فأضافهم إلى قواته. ولا شك في أن الموفق سحب معه القوات التي كانت في منطقة واسط والبطائح بعد ما سيطر عليها وأقصى قوات الزنج منها.

ويذكر الطبري أن الموفق لما تقدم إلى الأهواز اتخذ نهر المبارك نقطة تجمع جيشه للتقدم إلى الجانب الغربي من دجلة البصرة والقضاء على صاحب الزنج، وأنه كتب إلى زيرك بواسط بالمسير بالجيش المتخلف إلى نهر المبارك، وأنه سحب الجيش من نهر المرأة إلى نهر المبارك[24]. وذكر أيضاً أن الموفق أوصى مسروراً البلخي عامله بالأهواز بإحضار من معه من الموالي والغلمان والجند ليعرضهم ويأمر بإعطائهم الأرزاق وينهضهم لحرب الخبيث[25].

ويذكر الطبري أن الموفق بعد هجماته غير الحاسمة على مدينة صاحب

(24) الطبري 3/ 1981.

(25) الطبري 3/ 1976.

الزنج، قدم جيش صاعد عشرة آلاف فارس ورجالة[26]، فكان الجميع زهاء خمسين ألفاً[27].

وبعد انتصارات الموفق غير الحاسمة، جاءته قوات جديدة من أطراف الخليج، ومنها قوات من المطوعة مع أحمد بن دينار عامل إيذج ونواحيها من كور الأهواز، ثم قدم بعده من أهل البحرين فيما ذكر، خلق كثير، زهاء ألف رجل يقودهم رجل من عبد القيس. وقدم بعدهم زهاء ألف رجل من كور فارس يرأسهم شيخ من المطوعة يكنى أبا سلم. ثم تتابعت المطوعة من البلاد.

وكان عدة من تخير من الفرسان زهاء ألفي فارس، ومن الرجال خمسين ألفاً أو يزيد. وكان محمد عبد من المطوعة وأهل العسكر.

القادة والجند في المراحل الأخيرة

ذكر الطبري توزيع الموفق قواته عندما استقر في الجانب الشرقي من دجلة البصرة، رتّب قادة قواته ومراتبهم فوضع:

نصير صاحب الشذا والسميرات في جيشه في أول المعسكر، وحده إلى الموضع الموازي للنهر المعروف بجوى كور (أقصى الجنوب). وجعل زيرك التركي صاحب مقدمة أبي العباس في أصحابه موازياً ما بين نهر أبي الخصيب، وهو النهر الموسوم بنهر الأتراك، والنهر المعروف بالمغيرة. ثم تلاه علي بن جهشيا وحاجبه في جيشه. وكانت مضارب أبي أحمد وابنيه حيال الموضع المعروف بدير جابيل. وأنزل راشداً مولاه في مواليه وغلمانه الأتراك والخزر والروم والديالمة والطبرية والمغاربة والزنج على النهر المعروف بهطمة. وجعل صاعد بن مخلد وزيره في جيشه من الموالي

(26) الطبري 3/ 2079.

(27) الطبري 3/ 1086.

والغلمان فويق عسكر راشد، وأنزل مسروراً البلخي في جيشه على النهر المعروف بنهر سنداذان وأنزل الفضل ومحمد بن موسى ابني بغا في جيشهما على النهر المعروف به. وتلاهما موسى دالجويه في جيشه وأصحابه. وجعل بغراج التركي على ساقته نازلاً على نهر هطمة.. وأقاموا به[28].

لم يكن لبعض هؤلاء القواد دور كبير في الأحداث السابقة، فالفضل بن موسى وأخوه لم يذكرا سوى أن أبا العباس أرسلهما مع الشاه وكمنجور إلى الصينية[29] وكان الفضل قاتل مع المستعين في باب الشماسية[30] وموسى دالجويه لم يذكر إلا مرة واحدة عندما استأذن أبا العباس في التقدم بسفنه وأنه من قواد الموالي[31]. وعلي بن جهشيار كان ممن شارك في حرب المعتز والمستعين ومنع العامة من الهجوم على الجزيرة[32] وكان من القواد[33]. أما صاعد بن مخلد فقد جمع بين الإدارة والقتال، فقد استكتبه أبو أحمد[34] وعقد له على شهرزور وأقاليم الجبال[35]. وأرسله إلى الخليفة[36]، ثم جاء بالمدد إلى أبي أحمد[37]. بقوة بلغت زهاء عشرة آلاف من فرسان ورجالة[38]. وشارك في القتال عند نهر أبي شاكر[39]، ثم عاد إلى بغداد وكانت له مكانة في إدارتها.

---

(28) الطبري 3/ 1988.
(29) الطبري 3/ 1956.
(30) الطبري 3/ 1930.
(31) الطبري 3/ 1958.
(32) الطبري 3/ 1629.
(33) الطبري 3/ 1663.
(34) الطبري 3/ 1930.
(35) الطبري 3/ 1969.
(36) الطبري 3/ 2037.
(37) الطبري 3/ 2079.
(38) الطبري 3/ 2087.
(39) الطبري 3/ 2084.

كان أبرز القادة زيرك ونصير، وقد شاركا معاً في بعض الحركات السابقة[40] وكانا ممن شارك في معارك الزنج منذ أول تقدم جيش الموفق إلى أن قضي على حركة صاحب الزنج. فأما زيرك فهو تركي[41] له خبرة عسكرية قديمة إذ أرسل لمقاتلة الجيش الخارجي قبل إرساله للمشاركة في حرب صاحب الزنج[42] وكان بإمرته عدة قواد[43] ثم شارك في الحملة للقضاء على حركة صاحب الزنج[44] وكان مقدمة جيش أبي العباس[45]. وأرسل مع كمنجور والفضل ومحمد بن موسى بن بغا لاسترجاع الصينية[46]. ثم وجهه أبو أحمد لمطاردة قوات صاحب الزنج في طهيثا والقوات الأخرى. وشارك في معركة عند نهر ابن عمر[47]، وفي عدد من المعارك الأخرى[48]. وفي حصار صاحب الزنج شارك في القتال مع أبي العباس[49]، وهاجم دار الجبائي[50]. أما نصير ويكنى أبا حمزة، فقد شارك في الدفاع عن الإبلة[51]، وكان عسكره مقيماً في دجلة[52]، وكانت أكثر حركاته مع الشذوات، فكان صاحب الشذار في مقدمة قوات أبي العباس عندما تقدم من واسط[53]، وأشار على أبي العباس أن يجعل مقامه في

---

(40) الطبري 3/ 1986، 1992، 1998.
(41) الطبري 3/ 1414.
(42) الطبري 3/ 1880.
(43) الطبري 3/ 1969.
(44) الطبري 3/ 1962.
(45) الطبري 3/ 1996.
(46) الطبري 3/ 1956.
(47) الطبري 3/ 1978، 1985.
(48) الطبري 3/ 1996.
(49) الطبري 3/ 2065.
(50) الطبري 3/ 2035.
(51) الطبري 3/ 1837.
(52) الطبري 3/ 1900.
(53) الطبري 3/ 1949.

واسط، وتعرضت سفنه في إحدى المعارك إلى حريق[54]، ثم أرسله أبو العباس بمن معه من الشذوات إلى خسروسابو، وظل قائداً للسفن[55]، وقاتل مع الموفق في طهيثا[56]. وشارك في شذواته في عدد من الغارات[57]، ثم قتل في إحدى المعارك قبيل انتهاء الحملة[58].

لا يوضح الطبري تركيبة الموالي والغلمان الذين قسموا بين راشد وصاعد بن مخلد، وهل هم موالي وغلمان الموفق، أم موالي القائدين، علماً أنهم نزلوا وراء منزل الموفق. وفصل تركيب جيش راشد وهم الأتراك والخزر والروم والديالمة والطبرية والمغاربة، والزنج. ولعل تنظيم هذا التركيب هو الذي كان عليه الجيش العباسي في سامراء، وأكثرهم من أقوام الهضبة الإيرانية (الديالمة والطبرية) وأطرافها (الأتراك والخزر) ثم الروم، وغير واضح أصول الزنج الذين دخلوا في جيش راشد، ومن المرجح أنهم من أهل المنطقة الذين استسلموا للموفق إبان تقدمه المنتصر.

لا يوضح النص تركيب المجموعات التي نزلت مع بقية القادة بمن فيهم نصير وزيرك التركي وعلي بن جهشيار، ومسرور، والفضل ومحمد ولدا موسى بن بغا، وموسى دالجويه وبغراج التركي. ويلاحظ أن ثلاثة من هؤلاء القواد هم أتراك (نصير وزيرك وبغراج) وقد نضيف إليهما ولدي موسى بن بغا ومسرور البخاري.

غلمان الموفق

ذكر الطبري أن الموفق عندما تقدم بجيشه للقضاء على حركة صاحب

(54) الطبري 3/ 1950، 1953.
(55) الطبري 3/ 1954
(56) الطبري 3/ 1972.
(57) الطبري 3/ 1982، 1986؟
(58) الطبري 3/ 2047

الزنج، جاء في مواليه وغلمانه وفرسانه ورجاله[59]، وأنه باع الموارد وصرفها بمعطيات مواليه وغلمانه وفي جنده[60] ولا شك أن مجموعتي «الموالي والغلمان» كانتا قائمتين قبل تقدم جيش الموفق ولهما صلة بتنظيم الجيش العباسي القائم آنذاك، وأن هاتين المجموعتين مرتبطتان بالموفق شخصياً. ويوحي التعبير إن الموالي كانوا من المقاتلين الأحرار المرتبطين بالموفق بالولاء الذي يضمن لهم مصالح مادية، ولكن بمقدورهم التخلي عن رابطة الولاء إذا شاؤوا، وهذا يوحي بأن النظام فيه شبه بما كان في أوروبا في العصور الوسطى، أما الغلمان فهم مقاتلة مرتبطون برباط لا ينفصم ولعل كثيراً منهم كانوا أرقاء أو محررين.

تكرر ذكر غلمان الموفق في عدد من حوادث القضاء على صاحب الزنج، فقد حرض الغلمان على الحرب[61] وقد أمر أبو أحمد غلمانه أن يأبثوا صدور[62]، وأصيب جماعة من غلمان الموفق وغيرهم من جيشه، وفي إحدى الصولات أمر الموفق أبا العباس بالغلمان فظهروا على الزنج[63]، ووثب جماعة من غلمان أبي أحمد بحصر دار ابن سمعان[64] وشد بعض غلمان الموفق على علي بن أبي المهلبي وقصد جماعة من الغلمان دار صاحب الزنج[65] وأزال غلمان الموفق رجال صاحب الزنج من القنطرة وتابعوا تقدمهم إلى الجسر الأول وانتهوا إليه[66]. وانتهى غلمان الموفق إلى

(59) الطبري 3/ 1961.
(60) الطبري 3/ 1963.
(61) الطبري 3/ 1971.
(62) الطبري 3/ 1980.
(63) الطبري 3/ 2020.
(64) الطبري3/ 2013.
(65) الطبري 3/ 2005.
(66) الطبري 3/ 2050.

سجن كان لصاحب الزنج في نهر أبي الخصيب[67]، وحاولوا تشعيث السور بما كان معهم من سلالم[68]، ورمى بعض غلمانه بكلاليب كانوا قد أعدوها[69] وصار في أيدي غلمان الموفق نهر[70].

واقترن الغلمان بالموالي في عدد من الحوادث، فقد: (دخلت عدة من شذوات مع موالي الموفق)[71] وفي الأهواز: (أمر مسرور البلخي عامله بالأهواز ومن معه من الموالي والغلمان ليعرضهم، وأمر بأعطياتهم وأن ينهضهم في الجيش)[72]. و(عبر الموفق مع نفر من مواليه وغلمانه في الشذوات والسميريات وما خف من التمر والسويق إلى نهر أبي الخصيب[73]. وأرسل الموفق إلى سليمان في جمع كثيف من موالي الموفق وغلمانه والفرسان والبحارة[74].

وكانت أسلحة الغلمان ناشبة ورامحة، ففي (شحذ الشذوات بأنجاد غلمانه الناشبة) وذكر أنجاد غلمان الموفق الناشبة والرامحة[75].

وذكرت في عدة مواضع (غلمان الموفق السودان)[76]. وذكر أن أبا العباس له غلمانه (البيضان والسودان)[77]. وذكر: (قصد جماعة من غلمان الموفق المستأمنة والمضمومين إلى أبي العباس)[78]. وفي حصار دار ابن

---

(67) الطبري 3/ 2062.
(68) الطبري 3/ 2004.
(69) الطبري 3/ 2054.
(70) الطبري 3/ 2051.
(71) الطبري 3/ 2048.
(72) الطبري 3/ 1976.
(73) الطبري 3/ 2005.
(74) الطبري 3/ 2090.
(75) الطبري 3/ 2073.
(76) الطبري 3/ 1994، 2020، 2046، 2050، 2090، 2091، 2096.
(77) الطبري 3/ 2083.
(78) الطبري 3/ 2067.

سمعان (أقام نحو من ثلاثين غلاماً من الديالمة في وجوه الزنج وغيرهم، ولما قتلوا في المعركة أمر الموفق أن يصرف ما كان جارياً على أولادهم وأهليهم)[79].

قواد الغلمان

ذكرت في عدة حوادث قواد الغلمان: فقد (خلع عليه وضمه إلى قواد غلمانه) و(أمر أبا العباس وسائر القواد والغلمان للتأهب ليأتوا الزنج من مؤخر النهر المعروف بمنكي[80].

وذكر (غلمان) من غلمانه يقال له ثابت له قيادة في جمع كثير من غلمان السودان)[81]. وكان ثابت من غلمان الموفق، وكان من قواد الغلمان وجلّتهم[82].

و(أمر الموفق أبا العباس وسائر القواد والغلمان بالتأهب ليأتوا قوات صاحب الزنج من وراء النهر المعروف بمنكي)[83]. و(أمر الموفق جماعة من قواد غلمانه السودان وعرفائهم بأن يقصدوا المواضع التي يعتادها صاحب الزنج وأن يستميلوهم)[84]. و(أمر قواداً من قواد غلمانه ليهدموا قنطرتين كان الزنج قد أقاموها)[85]. و(ندب الموفق قائداً من قواد غلمانه في سبعة آلاف من الغلمان، وأن يأتيا نهر أبي الخصيب)[86]. و(صار الموفق إلى نهر الغربي وأمر قواده وغلمانه أن يخرجوا في أصحابهم فيحاربوا الفسقة في

---

(79) الطبري 3/ 2012.
(80) الطبري 3/ 1972.
(81) الطبري 3/ 1994.
(82) الطبري 3/ 2004.
(83) الطبري 3/ 2003.
(84) الطبري 3/ 2020.
(85) الطبري 3/ 2033.
(86) الطبري 3/ 2250.

حصتهم)[87]، ووجه قائداً من قواده يقال له البرور في جيش عسكر بالجزيرة المعروفة بالرياحين)، (كما ضم إليه قائداً من قواد غلمانه في أربعة آلاف من الفرسان)[88]. و(ضم إليه من قواد غلمانه الفرسان والرجال زهاء عشرة آلاف)[89]. و(استسلم دالجويه، فضمه مع جماعته مع قائد من قواد الغلمان)[90]. و(تقدم من نهر شاكر إلى جدى كور جماعة من قواد الموالي والغلمان)[91]. وذكر (كان من قواد غلمانه السودان)[92]. و(وثب جماعة من غلمان أبي أحمد بحضرة دتر ابن سمعان، ومنهم راشد وموسى ابن أخت مفلح في جماعة من قواد الغلمان)[93].

وذكر الطبري غلمان أبي العباس[94]، (وأنه أنفذ ثمانية آلاف من غلمانه لحماية مؤخرة المهلبي[95]، وذكر أبو العباس وقواده وغلمانه (وأشار إلى قواد غلمانه[96]، وذكر (موشكر غلام أبي العباس)[97].

وذكر لمحمد بن أبي الساح (جماعة من الغلمان أمروا عليهم ديواد بن محمد)[98]، وكان ابن محمد بن إسحاق بن كنداج وافى في شذا ومعه جماعة من الغلمان[99] لم يعيّن هويتهم.

---

(87) الطبري 3/ 2045.
(88) الطبري 3/ 2050.
(89) الطبري 3/ 1052.
(90) الطبري 3/ 2096.
(91) الطبري 3/ 2086.
(92) الطبري 3/ 2091.
(93) الطبري 3/ 2012.
(94) الطبري 3/ 1951، 1953.
(95) الطبري 3/ 2074.
(96) الطبري 3/ 2060، 2090.
(97) الطبري 3/ 2120.
(98) الطبري 3/ 2503.
(99) الطبري 3/ 213.

بدا على قوات الموفق الضعف في الانضباط العسكري، واهتمامهم بالنهب دون التركيز على متابعة القضاء على قوات صاحب الزنج. فذكر الطبري (أن جيش الموفق بعد انتصاره الأول على قوات صاحب الزنج عند دار المهلبي، تشاغلوا بانتهاب ما كان في الدار وإحراقها وما يليها، وتفرقوا في طلب النهب وكل ما بقي للفاسق وأصحابه مجموعاً في تلك الدار، وتقدم أبو أحمد في الشذار قاصداً للنهر المعروف بالسفياني، ومعه لؤلؤ في أصحابه والفرسان والرجال فانقطع عن باقي الجيش، فظنوا أنه قد انصرف، فانصرفوا إلى سفنهم بما حووا، وانتهى الموفق ومن معه إلى معسكر الفاسق وأصحابه وهم منهزمون، فاتبعهم لؤلؤ وأصحابه حتى عبروا النهر المعروف بالسفياني، فاقتحم لؤلؤ النهر بنفسه، وعبر أصحابه خلفه، ومضى الفاسق حتى انتهى إلى النهر المعروف بالقريري فوصل إليه لؤلؤ وأصحابه فأوقدوا وبمن معه، فكشفوهم، فتولوا هاربين وهم يتبعونهم حتى عبروا النهر المعروف بالغريري، وعبر لؤلؤ وأصحابه خلفهم وألجأوهم إلى النهر المعروف بالمساران، فعبروه واعتصموا بجبل وراءه. وكان لؤلؤ وأصحابه الذين أنفذوا بهذا الفعل دون سائر الجيش)[100]. ثم يذكر أن الموفق رجع (في الشذا في نهر أبي الخصيب وأصحاب لؤلؤ يسايرونه فلما حاذى نهر المهلبي لم ير أحداً من أصحابه، وعلم أنهم قد انصرفوا، فاشتد غيظه عليهم، وسار قاصداً القصر، وأمر لؤلؤ بالمضي بأصحابه إلى عسكره. وكان في نفس أبي أحمد على أصحابه من الغيظ لمخالفتهم أمره، أدركهم الوقوف حيث وقفهم فأمر بجمع قواد مواليه وغلمانه ووجوههم، فجمعوا له، فوبخهم على ما كان منهم وعجزهم وأغلظ لهم فاعتذروا.. حتى تحالفوا وتعاقدوا على أن لا ينصرف منهم أحد، فتوجهوا نحو الخبيث حتى يظفرهم الله، فإن أعياهم ذلك أقاموا عواطفهم حتى يحكم الله بينه وبينهم. فجزاهم

(100) الطبري 3/ 2088.

أبو أحمد الخير على تنصلهم وخطتهم ووعدهم الإحسان، وأمرهم بالتأهب للعبور، وأن يعظوا أصحابه بمثل الذي وعدوا به)[101]. وهذا يظهر أن جيش الموفق كان يفتقد الحماس القائم على العقيدة في قتال صاحب الزنج. وإن هم الكثير كان الغنائم التي لم تصل حد إضعاف ثقتهم بالدولة أو ميلهم إلى عدوّها. ولما قتل صاحب الزنج جاء أحد غلمان الموفق يركض على فرس ومعه رأس صاحب الزنج[102].

(101) الطبري 3/ 2089-90.

(102) الطبري 3/ 2097..

الفصل الثالث عشر

قوات لؤلؤ والمستأمنة

قوات لؤلؤ

كانت أكبر القوات التي انضمت إلى الموفق في المراحل الأخيرة من مقاتلة صاحب الزنج هي القوات التي جاءت بقيادة لؤلؤ الذي كان قائداً لقوات أحمد بن طولون وشارك في حصار أنطاكيا ثم ولي الرقة ثم انحاز إلى الموفق بعد مفاوضات ضمن فيها لقواته تكاليفهم المادية ونفقاتهم. (وكان لؤلؤ مقيماً بالرقة في جيش عظيم من الفراعنة والأتراك والروم والبربر والسودان وغيرهم من نخبة أصحاب ابن طولون، وكان قد تحرك قبل ذلك من الرقة وأقام في بغداد بطريقه مدة، ثم وصل إلى جبهة القتال، فأمر أبو العباس أن ينزل له معسكراً كان أعد له بإزاء أبي الخصيب، فنزله في أصحابه أي إنه وضعه في طليعة القوات مقابل معقل صاحب الزنج، وقد رحب الموفق به ووعده وصحبه خيراً، وأمر أن يخلع عليه وعلى خمسين ومائة قائد من قواده، وحمله على خيل كثيرة بالسروج واللجم المحلاة بالذهب والفضة، وحمل بين يديه من أصناف الكسي والأموال في البدور ما يحمله مائة غلام، وأمر لقواده من الصلاة والحملان والكسي على قدر محل كل إنسان منهم عنده، وأقطعه ضياعاً جليلة القدر، وصرفه إلى عسكره بإزاء نهر أبي الخصيب بأجمل حال، وأعدت له ولأصحابه الأنزال

والعلوفات، وأمره برفع جرائد لأصحابه بمبلغ أرزاقهم على مراتبهم، فرفع ذلك، فأمر لكل إنسان بالضعف لما كان يجري له، وضع لهم بالعطاء عند رفع الجرائد، ووضعوا ما رسم لهم)[1].

ولم يتأخر الموفق في الطلب إلى لؤلؤ (في التأهب والاستعداد للعبور إلى غربي دجلة لمحاربة الفاسق وأصحابه) وكان صاحب الزنج قد أحدث سكراً يعيق التقدم فأمر لؤلؤ أن يحضر في جماعة من أصحابه للحرب على هذا السكر، وأمر بإحضار الفعلة لقلعه ففعل. فرأى الموفق من نجدة لؤلؤ وإقدامه وشجاعة أصحابه وصبرهم على ألم الجراح وثبات العدة اليسيرة في وجوه الجمع الكثير من الزنج ما سرّه، فأمر لؤلؤ بصرف أصحابه إشفاقاً عليهم وضناً بهم، فوصلهم الموفق وأحسن إليهم وردّهم إلى معسكرهم، وألح الموفق على هذا السكر فكان يحارب المحامين عنه من أصحاب الخبيث بأصحاب لؤلؤ وغيرهم، والفعلة يعملون في قلعه، ويحارب الفاجر وأشياعه من عدة وجوه، فيحرق مساكنهم ويقتل مقاتلتهم ويستأمن إليه جماعة من رؤسائهم[2].

إن تركيب قوات لؤلؤ يشبه تركيب قوات السلطان... غير أن الموفق لم يخلطهما. ولم تذكر المصادر عددهم بل اقتصرت على ذكر عدد قوادهم وهو مائة وخمسون، ومن المرجح أن القائد كان على مائة أو أن قواته كانت حوالى ألفين، غير أن المصادر لم تذكر عدد من كان معه منذ أن نفذ من مصر، وعدد من ضمهم إليه من الرفقة.

تابعت قوات لؤلؤ إسهامها المتميز الفعال في القتال، وكان موقفها حازماً في مطاردة صاحب الزنج بعد أن تشاغل غلمان الموفق بالنهب مخالفين أوامر الموفق ومتراخين عن متابعة القتال، وأنقذ موقف قوات لؤلؤ

(1) الطبري 3/ 2080-2081.
(2) الطبري 3/ 2081-2082.

في انضباطها ومتابعتها القتال من احتمال استعادة صاحب الزنج قوته وإطالة القتال.

تسلل قوات صاحب الزنج واستئمانهم للموفق

كان توسع حركة صاحب الزنج في مراحلها الأولى كبيراً وسريعاً، لكنه كان سطحياً فلم يقم على عقيدة عميقة أو يثمر نتائج مغرية، ومن أبرز آثار سطحيته تخلي الكثير من أتباعه عنه وتسللهم إلى قوات السلطان والانضمام إليها منذ أن أحرزت قواته انتصاراتها الأولى في منطقة واسط، ثم تتابع التخلي تدريجاً وازداد بعد أن بدت علائم قدرة الموفق على القضاء على الحركة ومحاصرة المختارة، وقبل أن يقوم بالعمل الحاسم في القضاء عليه.

ولم ينحصر التسلسل بعامة أنصاره، بل امتد إلى القادة وذوي المكانة البارزة في حركته. وتدل كثرة الاستئمان أن صاحب الزنج لم يوصل في أتباعه فكرة دينية أو عقائدية أو ذات نفع مادي كبير تدفعهم إلى التمسك بتأييده ونصرته حتى في المراحل الأولى التي كانت قوته متكافئة مع قوة الموفق. ومما يدل على ضحالة عقيدة معظم أصحاب صاحب الزنج به أن كثيراً منهم انقلبوا عليه بعد استئمانهم للموفق ولم يبقوا على الحياد، بل شاركوا في قتاله والقضاء على حركته. ولم يقتصر هذا على (العامة) منهم، بل امتد إلى الرؤساء ممن كانوا ركائزه وعماده فقدم بعضهم المعلومات للموفق عن أنجح المسالك الواجب اتباعها للتغلب عليه في تلك المنطقة المعقدة بجغرافيتها، وشارك بعضهم في قيادة قوات تقاتله.

استأمن عدد من الرؤساء ممن جمعوا ثروات كبيرة إبان مشاركتهم صاحب الزنج، وكانوا منتفعين منه، ولعل من دوافع استسلامهم إدراكهم أن فرص الإثراء قد زالت، وأنهم أدركوا أن انضمامهم للموفق أضاع عليهم ما جمعوه، وفرص متابعتهم جمع الثروات، لكنه أمن لهم حياتهم ومستقبلهم، فأطلق سراحهم.

وكان أول من استأمن من قواد الزنج منتاب، واستسلم معه جماعة من أصحابه، فخلع عليه الموفق ورحله وحمله[3].

ومن أوائل من استسلم من رجال صاحب الزنج أبو صالح القصير وهو من رؤساء الزنج واستسلم عند نهر ميمون في ثلاثمائة من الزنج[4]. ثم استأمن عمران زوج جدة ابنه أنكلاي بعد معركة المرغاب[5] واستأمن كثيرون في واسط[6] وفي طهيثا[7]. كما استأمن بعد ذلك رجل من أصحاب صاحب الزنج إلى زيرك ونصير[8].

وفي نهر المرأة استسلم لأبي أحمد زهاء ألف رجل، فأمر بقبولهم وإقرارهم على الأمان وأمر بإغداق العطاء عليهم، وخالطهم بأصحابه لمضاعفة العفو عنهم[9]. ثم استأمن لأبي أحمد مقاتلان من مقاتلة السميريات وتلاهم آخرون[10].

وكان الموفق يرى أنه لا بد من الصبر عليه وتفريق أصحابه عنه ببذل الأمان لهم، والإحسان إلى من أناب منهم، والغلظة على من أقام على أخيه[11]. وكان يعطي الأمان لمن يرغب فيه ويبذل لمن صار إليه الإحسان، فصار إليه طائفة منهم في الأمان فأمنهم ووهب لكل واحد منهم من الخلع والصلاة على أقدارهم[12]. ففي استئمان مقاتلي السميريات ومن تلاهم (أمر

---

(3) الطبري3/ 1811.
(4) الطبري3/ 1792.
(5) الطبري3/ 1840.
(6) الطبري3/ 1950.
(7) الطبري3/ 1956.
(8) الطبري3/ 1979.
(9) الطبري3/ 1980.
(10) الطبري3/ 1983.
(11) الطبري3/ 2010.
(12) الطبري3/ 1990.

للمقاتلين بخلع ديباج ومناطق مصلات، ووصلهم وأمر للملاحين بخلع من الحرير الأحمر والثياب البيض ما حسن مرتبة منهم وشجع الباقين من أصحاب السميريات فانضموا إليه[13]. ثم تتابع استئمان أصحاب الشذوات، فاستأمن منهم خلق كثير من الزنج وغيرهم فقبلهم وحملهم في الشذا والسميريات، وأمر بالخلع عليهم، وأن يوصلوا ويحبوا وتكتب أسماؤهم في المضمومين إلى أبي العباس[14].

ومما زاد في الاستسلام تدهور أحوال صاحب الزنج، فدفع كثيراً من أنصاره إلى التقدم لطلب الأمان والاستئمان إليه والصفح عن حرمهم وجعلوا يهربون من كل وجه ويخرجون إلى أبي أحمد في الأمان كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا[15]. ثم تتابع استئمان أصحاب الشذوات فاستأمن منهم خلق كثير من الزنج وغيرهم فقبلهم وحملهم في الشذا والسميريات، وأمر بالخلع عليهم، وأن يوصلوا ويحبوا وتكتب أسماؤهم في المضمومين إلى أبي العباس[16]. وفي فوهة القندل استسلم مهبوذ، وهو من مذكوري أصحاب الخبيث ورؤسائهم وشجعانهم[17]. ثم كثر المستأمنة من الزنج وغيرهم وتتابعهم فكانوا خمسة آلاف رجل من بين أبيض وأسود[18]. ثم استأمن غلام كان مع الملاحين[19]. ثم استأمن بعد انكسارهم عند نهر أبي الخصيب بعض وجوههم، ومنهم محمد بن الحارث العمي، فخلع عليه الموفق، وحمله على عدة أفراس بجلتها ومالها، وأسنى له الأرزاق[20].

---

(13) الطبري3/ 1983.

(14) الطبري3/ 1985.

(15) الطبري3/ 1998.

(16) الطبري3/ 1985.

(17) الطبري3/ 1992.

(18) الطبري3/ 1993.

(19) الطبري3/ 1995.

(20) الطبري3/ 1998.

كما استأمن أحمد المعروف بالبردعي، وكان من أشجع رجال الخبيث الذين كانوا في حوز المهلبي وقواده. واستأمن معه مديد وابن منكويه، ومنين، فخلع عليهم جميعاً ووصلوا بصلات كثيرة، وحملوا على الخيل، وأحسن إلى جميع من جاؤوا به معهم من أصحابهم[21].

وتتابع طلب الأمان، ففي طلب الأمان جمع من قوات صاحب الزنج ومعهم جمع كبير من الفرسان.

ثم أرسل جماعة من قواد صاحب الزنج إلى الموفق يسألونه الأمان، معهم المهلب وجماعة من الزنج. وجاء إلى أبي العباس القواد الذين طلبوا الأمان، ومعهم كثير من الفرسان، وانصرف أكثرهم إلى مدينة الموفقية[22]. وبعد معركة ابن سمعان استأمن قواد صاحب الزنج وهرب جماعة من العرب الذين كانوا من عسكره وصاروا إلى البصرة، وبعثوا يطلبون الأمان من أبي أحمد فأمنهم وحملهم إلى الموفقية، وأن يخلع عليهم ويوصلوا ويجري عليهم الأرزاق والأنزال.

ورغب في الاستئمان ريحان بن صالح المغربي، وكانت له رئاسة، فطلب الأمان لنفسه ولجماعة من أصحابه[23]. ثم طلب جعفر بن إبراهيم السجان الأمان، فقبله الموفق وخلع عليه جوائز وحملان وأرزاق، وضمه إلى أبي العباس[24]، وتلاه خلق كثير من قواد الزنج وغيرهم[25]. ثم استسلم ابن أخت القلوص[26] واستأمن إليه علي بن عمر النقاب، ومالك.. فأمنهم وضمهم إلى أبي العباس.

(21) الطبري3/ 1998.
(22) الطبري3/ 2001.
(23) الطبري3/ 2007.
(24) الطبري3/ 2011.
(25) الطبري3/ 2015.
(26) الطبري 3/ 2056.

وكثر المستأمنون إلى رشيق حتى كانوا أكثر العشائر جميعاً[27]. ولما شدد الموفق الحصار على المختارة، خرج خلق كثير يطلبون الأمان وكثر الاستسلام[28]، فأمر الموفق لهم بالخلع والجوائز، وحملوا على الخيل والجياد بسروجها ولجمها وآلاتها وأجريت لهم الأرزاق[29].

ولما قتل بهبوذ استسلم عدد ممن كانوا في السميريات، فأمر لهم بجوائز وخلع وصلات[30] وألحق من سار إليه من أصحاب بهبوذ في الصلات والجوائز والخلع والأرزاق[31]. ثم استسلم الحرون[32] ومحمد بن سمعان كاتبه[33]. ولما استولى الموفق على الجسر استأمن فريق ممن كان يدافع عنه، فأمر الموفق أن يخلع عليهم[34]. ولما استولى على دار الهمداني استأمن جماعته[35]. ثم استأمن جماعة من أصحاب صاحب الزنج، وجماعة من خاصة غلمانه الذين كانوا في داره يتولون خدمته والوقوف عليه، فأمنهم الموفق وأمر بالإحسان إليهم والخلع عليهم وأن يجري عليهم الأرزاق[36].

ثم استأمن إليه رجل وجاءه بخبر صاحب الزنج[37] وطلب إليه ابنه أنكلاي عقد الصلح لكن صاحب الزنج منعه[38].

ثم طلب سليمان بن موسى الشعراني الصلح، فمنّ عليه الموفق ووفى

(27) الطبري3/ 2019.
(28) الطبري3/ 2020.
(29) الطبري3/ 2024.
(30) الطبري3/ 2034.
(31) الطبري3/ 2030.
(32) الطبري3/ 2026.
(33) الطبري3/ 2043.
(34) الطبري3/ 2051.
(35) الطبري3/ 2054.
(36) الطبري3/ 2055.
(37) الطبري3/ 2064.
(38) الطبري3/ 2068.

له بأمانه وأمر به ووصل أصحابه وخلع عليهم، وحمل على عدة أفراس بسروجها وآلاتها، ونزل وأصحابه إنزالاً وضمه إلى أبي العباس وأمنه.

ثم استأمن جمع كبير من قواد الزنج وغيرهم فحملوا إلى أبي أحمد وألحقهم في الخلع والجوائز. ثم طلب شبل الأمان، ومعه عياله، وولده وجماعة من قواده، وحمله على عدة أفراس بسروجها ولجمها[39]. وتتابع جمع كثير من الزنج في عدة من قوادهم وكانوا يحمون دار أبي العباس التي اتخذها صاحب الزنج مقاماً له بعد أن استولى الموفق على داره. وطلب درمويه الأمان، وكان يحمي البطيحة[40].

---

(39) الطبري3/ 2070.

(40) الطبري3/ 2095-6.

الفصل الرابع عشر

نفقات الجند

نفقات الجند

إن العدد الكبير من المقاتلة بمن فيهم الملاحون وأصحاب السفن كان عطاؤهم وأرزاقهم يتطلب مبالغ كبيرة لا يمكن أن تسده الضرائب الإضافية التي قد يكون فرضها الموفق. وكان الأغنياء الذين هدد صاحب الزنج ثرواتهم مستعدين للبذل، غير أن كل ذلك لم يسد المتطلبات الواسعة لتلك الحرب المضنية التي دامت عدة سنوات وتطلب القضاء عليها جهوداً وأموالاً على الموفق أن يبذلها. ولا شك أن بيت مال الخلافة في سامراء وبغداد أسهم في بعض هذه النفقات التي لم تذكرها المصادر، غير أن أحوال الخلافة لم تكن تمكنها من سد النفقات كافة، لأن موارد بيت المال كانت متناقصة بسبب سوء الإدارة وكثرة المستغلين الذين يعملون على الحصول على الأرباح الشخصية، ولأن الدولة كانت تواجه أخطاراً في الشمال والشرق من حركات المنتهزين من الخوارج وغيرهم، ومن يعقوب بن الليث الصفار الذي كوّن مصدر خطر أوسع بهيمنته على معظم أقاليم الهضبة الإيرانية وهدد الأهواز، ثم تقدم حتى وصل إلى جبل قريب من بغداد. وتظهر أخبار الطبري أن الخلافة اهتمت بصد هذه الأخطار أكثر من اهتمامها بالقضاء على حركة صاحب الزنج التي أوكلت للموفق القضاء عليها، وكان لا بد له من

أن يعتمد على الموارد المحلية لسد النفقات المطلوبة. وإن ما أشار الطبري به يدل على حرصه على العدالة وتجنب التعسف. غير أن المصادر لم تذكر كيف دبر الموفق الأموال اللازمة للقضاء على حركة صاحب الزنج وعلى تأمين النظام والاستقرار الذي أساسه العدالة.

كان لـ (جند السلطان) عطاء وأرزاق مقررة بنظم يسير عليها (ديوان الجند) الذي يضم تفاصيل في ذكر كل مقاتل وما له من مخصصات تختلف تبعاً لصنفه ومرتبته في ذلك الصنف. وكان العطاء بالنقود وليس بالعينيات. وكثيراً ما كانت موارد الجبايات تعجز عن دفع مستحقات الجند، فتدخل تعديلات مؤقتة تبعاً للأحوال والظروف.

وتحرص السلطات على دفع عطاء الجند عند إنفاذهم في الحملات، وربما في توفير الأرزاق لعوائلهم فضلاً عن أن الحملات تتطلب نفقات إضافية على متطلبات القتال من أجور نقل، وإعداد بعض الأسلحة التي لا يقدمها المقاتل كالمجانيق والعرادات وحفر الخنادق وإقامة الأسوار وغيرها. كما أن الحملات كانت تتطلب أموالاً بعضها أساسية من العطاء والرزق وبعضها إضافية. والمرجح أن أكثر هذه النفقات تؤخذ من موارد وجبايات المناطق التي يجري فيها القتال.

أشار الطبري في عدة مواضع إلى أن المقاتلة كانوا يأخذون عطاءهم من (السلطان) أي من بيت المال، وأن بعضها مما كان يغنم من أصحاب الزنج. فلما استولى الموفق على المنصورة وهي القاعدة الرئيسية التي اتخذها صاحب الزنج عندما تقدم إلى واسط (احتوى أبو أحمد وأصحابه كل ما كان في تلك المدينة من الذخائر والأموال والأطعمة والمواشي، وكان ذلك شيئاً جليل القدر، فأمر أبو أحمد ببيع ما أصابه من الغلات وغير ذلك وحمله إلى بيت ماله وصرفه في أعطيات من في عسكره من مواليه فحملوا من ذلك ما تهيأ لهم حمله[1].

(1) الطبري 3/ 1971.

أشار الطبري إلى عدد من المناسبات ذكر فيها أن عطاء الجند كان من بيت المال. (فلما استولى الموفق على ردودا في 17 ربيع الآخر سنة 267 أمر بوضع العطاء وإصلاح السفن ليحدرها معه)[2]. وأنه (أمر مسرور البلخي عامله بالأهواز بإحضار من معه من الموالي والغلمان والجند ليعرضهم ويأمر بإعطائهم الأرزاق وينهضهم لحرب الخبيث)[3]. وأنه (أمر بإحصاء المفقودين من أصحابه، فأحصوا، فأتي بأسمائهم، وأمر ما كان جارياً لهم على أولادهم وأرحامهم)[4]. و(أمر برفع جرائد لأصحابه بمبلغ أرزاقهم على مراتبهم، فرفع ذلك، فأمر لكل إنسان منهم بالضعف مما كان يجري له، ووضع لهم بالعطاء عند رفع الجرائد ووفوا أرزاقهم لهم)[5].

وذكر (الشذوات والسميريات والتي كانت يعبر فيها الخيل وفيها زهاء عشرة آلاف ملاح ممن كان يجري عليهم الرزق من بيت المال مشاهرة، سوى سفن أهل العسكر التي تحمل فيها الميرة ويركبها الناس في حوائجهم، وسوى ما كان لكل قائد من عسكره من أصحابه من الجريبيات والسميريات والزواريق التي فيها الملاحون الراتبة)[6].

شمل الموفق أعداداً من مقاتلة صاحب الزنج المستسلمين بالأرزاق من الديوان، وكان استسلامهم متتابعاً وأعداد بعض وجباتهم كبيرة. (ففي نهر المرأة استسلم زهاء ألف، فأمر بإعطائهم جوائز وإجراء الأرزاق عليهم، وخالطهم بأصحابه)[7]. ولما استسلموا أمر لهم بالجوائز (وتكتب أسماؤهم في المضمومين إلى أبي العباس)[8]. وفي نهر سمعان استسلمت أعداد كبيرة

(2) الطبري 3/ 1967.
(3) الطبري 3/ 1976.
(4) الطبري 3/ 13.
(5) الطبري 3/ 2082.
(6) الطبري 3/ 2074.
(7) الطبري 3/ 1980.
(8) الطبري 3/ 1985.

فأمر الموفق أن يقبل استسلامهم (ويخلع عليهم ويوصلوا وتجري عليهم الأرزاق[9]، ولما استسلم جعفر بن إبراهيم السجان أمر لأصحابه بالأرزاق[10]، ثم استسلمت وجبة تالية فأمر لهم بالخلع والجوائز وأجريت لهم الأرزاق)[11]. وبعد أن استولى الموفق على دار الهمذاني استسلمت جماعات فأمر بالإحسان إليهم والخلع عليهم وأن تجري عليهم الأرزاق[12].

وفي الطبري إشارات إلى أن الأهواز كانت المصدر الرئيسي لتوفير النفقات. فيذكر الطبري أن الجند الذين كانوا في البصرة (دخل أمرهم خلل للبيات الذي تهيأ عليهم لاحتباس الأرزاق التي كانت سببت لهم من مال الأهواز التي أبطأ واليها في إنفاذها[13].

وعندما قدم الموفق بحملته الثانية التي انتهت بالقضاء على صاحب الزنج، تقدم من واسط إلى الأهواز وحرص على ضبط جبايتها، فلما دخل تستر (أمر بجباية الأموال من كور الأهواز وأنفذ إلى كل كور قائداً ليروّج كذلك بحمل الأموال)، كما أمر بمجاملة محمد بن عبيد الله الكردي وأمر بإيناسه، وأن يتقدم إليه في تعجيل حمل الأموال والمسير إلى سوق الأهواز، وأمر مسروراً البلخي عامله بالأهواز بإحضار من معه من الموالي والغلمان ليعرضهم ويأمر بإعطائهم الأرزاق، وينهضهم لحرب الخبيث، فأحضرهم وعرضوا رجلاً رجلاً وأعطوا[14].

لم تقتصر أهمية الأهواز على سد نفقات جند السلطان، بل كان لها أثر كبير في سد حاجات أهل البصرة من الميرة، وكان صاحب الزنج مسيطراً

(9) الطبري 3/ 2001.
(10) الطبري 3/ 2007.
(11) الطبري 3/ 2020.
(12) الطبري 3/ 2054.
(13) الطبري 3/ 1844.
(14) الطبري 3/ 1977.

على المواصلات بين البصرة والأهواز، فلما ولي منصور بن خياط البصرة أدرك أهمية الأهواز الكبيرة لأهلها، فركز على معالجتها و(اقتصر على بذرقة القيروانات، واتسع أهل البصرة لوصول الميرة إليهم، وكان انقطاعها قد أضر بهم[15]، وأدرك صاحب الزنج ذلك فعسكر بالخيزرانية ومنع دخول الميرة إلى البصرة[16] فزاد ذلك من إرهاق أهل البصرة وإضعافهم في مقاومته التي أدركها فتجرأ على دخول البصرة.

وتابع صاحب الزنج خطته في الهيمنة على ما يرد من الأهواز، فأرسل قوات كبيرة إلى ميان روذان وأبرسان لقطع الميرة والمنافع عنهم[17] وكانت ميرة الأهواز وما يرد من صنوف التجارات منها ومن كورها ونواحي أعمالها تسلك طريق النهر المعروف ببيان[18] وكانت قوات السلطان وثيقة الارتباط بالسلطة، فلم يرد ذكر لمن انضم إلى صاحب الزنج من قادتهم أو جندهم ويبدو من أسماء قادتهم أن أكثرهم من الأتراك، ولعل مقاتليهم كانوا من الأتراك أيضاً، فليس لهم أي ارتباط عرقي بصاحب الزنج أو بمن تبعه، ولم تكن من مصلحتهم التخلي عن ولائهم للسلطة المركزية الواسعة الامتداد والانضمام إلى قائد يختلف عنهم كلياً في تنظيمه وأهدافه.

عرض عام

اعتمدت الدولة في الحد من حركة صاحب الزنج والقضاء عليها على مكانتها المثبتة في نفوس الناس، وعلى القوات المقاتلة المحلية بمن فيها الشرطة والأحداث والمعونة، والتي لم يذكر لها دور فعال في الحوادث. وكان الاعتماد الأكبر على القوات العسكرية المحلية التي يظهر من مجرى

(15) الطبري 3/ 1842.
(16) الطبري 3/ 1861.
(17) الطبري 3/ 1990.
(18) الطبري 3/ 1992.

الأحداث الأولى أنها لم تكن كبيرة في البصرة إن وجدت، بل كانت قواتها في الجانب الشرقي. ويسرت مكانة الوالي له القضاء على النشاط الأول لصاحب الزنج في البصرة. فقد أفلح الوالي في القضاء على دعوته فيها فسجن بعض من والاه وشتت بعضهم الآخر ولم يستخدم الجيش في ذلك، لكن نجاحه في تشتيتهم جعل صاحب الزنج يدرك عبثاً محاولة القيام بنشاط في المراكز الإدارية الرئيسية، واتخذ المراكز الريفية الصغيرة المتفرقة التي ليس فيها قوات حكومية بل أكثر أهلها فلاحون.

استطاعت القوات العسكرية المقيمة في الأهواز بإمرة الوالي أن تعرقل نجاح صاحب الزنج، لكنها لم تفلح في القضاء عليه، فتابع زيادة أتباعه، ولا سيما من عمال الأرض وذوي الطموح، وأفاد من طبيعة أرض المنطقة بما فيها من رخاوة وسباخ وأملاح وأنهار واسعة تخترقها، والمناخ الحار الرطب الذي يختلف عن مناخ أواسط العراق وشماليه ومناطق الثغور التي لم يألفها جند الخلافة، في حين أنها كانت مألوفة عند مقاتلته.

واعتمد علي بن محمد في حركاته العسكرية الأولى على سرعة الحركة والتنقل في مناطق لم يكن كثير منها في حسبان قادة قوات السلطان، فهي أقرب إلى حرب العصابات منها إلى معارك كبرى في عدد من يشارك فيها أو في اعتمادهم على الأرض أو على الأساليب المستقرة عند الجيوش الكبيرة.

وعندما تبين أن القوات المحلية في المنطقة لم تفلح في القضاء على حركة صاحب الزنج أنفذت الموفق وهو أبرز قائد عباسي وذو مكانة عند الخليفة، فأفلح في القوة المحدودة التي جاء بها وبمن انضم إليه من القوات المقيمة في المنطقة أن يقلص سلطان صاحب الزنج ويقصيه عن كثير مما استولى عليه من الأراضي، ويحد من تزايد سلطانه ويوقف تزايد قواته التي أخذت تتناقص بمن أخذ يتخلى عنه وقوّت هذه الحركات ثقة الأهالي بأنفسهم وبالدولة التي لم تتركهم عرضة لأعماله التي لا تؤمن لهم الطمأنينة والاستقرار.

غير أن حركات الموفق الأولى لم تفلح في القضاء عليه واجتثاث خطره الذي ظل قائماً وتجلى في عرقلته وصول ما تحتاجه البصرة من سلع ومواد بعضها أساسي لمعيشتهم، مما كان يصلهم من البطيحة. وبعض أسباب عدم توفيقه الزخم الذي اتسمت به حركة صاحب الزنج في مراحلها الأولى، وقلة قوات الموفق، والأحوال المناخية التي رافقت آثار الأمراض المستوطنة وخصوصاً الملاريا. ثم إن الموفق لم يفلح في توفير الحاجات المعاشية لجنده بتوفير العطاء والأرزاق ولم يكف في خلق الهدوء الذي عكرته الحركات المتتابعة في مناطق متعددة حول المنطقة.

أدركت الدولة كل هذه العقبات التي لن تزول إلا بالقضاء التام عليه، ولذلك عادت إلى إرساله بقوات كبيرة من مركز الخلافة وأمدته بقوات خارجية. وفي هذا يقول الطبري إنه في ذي الحجة سنة 169 (وافى عسكر أبي إبراهيم صاعد بن مخلد منصرفاً إليه من سامراء، ووافى معه جيش كثيف قيل إن عدد الفرسان والرجالة الذين قدموا كانوا زهاء عشر آلاف، فأمر الموفق بإزاحة أصحابه وتجديد أسلحتهم وإصلاح أمورهم، وأمرهم بالتأهب لمحاربة الخبيث). إن جلب صاعد بن مخلد هذه القوات، وهو الذي كان قائد إحدى المجموعات العشر الأولى التي نظمها الموفق عندما نظم قواته لحرب صاحب الزنج، يدل على أن القوات الجديدة جاءت بطلب من الموفق، وأن إزاحته جنده الأولين بعد وصول هذه القوات، يظهر مدى الإرهاق الذي صارت تعانيه بعد قتالها الطويل، وأن عبء المعارك التالية أصبح على عاتق القوات الجديدة القادمة ولكن هذا لا يعني أنهم حلوا محلهم، وإنما عززوهم. وقد بذلت هذه القوات جهوداً كبيرة مكنتها من إقصائه عن الأراضي التي كان قد توسع فيها، وإلى قصر حركاته على الدفاع عن عاصمته المختارة مستفيداً من أحوال الأرض فيها من أنهار متشعبة وتربة رخوة تسهّل حفر الخنادق وإقامة السواتر، ومن عصبة من الرجال المتمرسين في القتال في مثل هذه الأحوال، فضلاً عن أعداد غير قليلة من الزنج الذين

أدركوا المصير المظلم الذي قد يلقونه في حال عدم استسلامهم قبل فشل الحركة. إن هذا يفسر عنف المقاومة التي أبدتها قوات صاحب الزنج في الدفاع عن العاصمة المختارة، مما أضعف الروح العسكرية عند الكثير من رجال الموفق وغلمانه، فغلب حبهم للنهب على الضبط العسكري الذي من أبرز مثله الطاعة وتنفيذ الواجب العسكري دون الانصراف عنه إلى النهب وما يؤدي إليه من انفراط الضبط والنظام. وقد سدت هذه الثغرة قوات لؤلؤ التي أظهرت تشبعاً بمتطلبات الضبط العسكري، فكان لها الفضل الأكبر في الانتصار الحاسم الذي اجتث حركة صاحب الزنج وقضى عليها قضاء مبرماً.

أفلح الموفق في القضاء على حركة صاحب الزنج بعد جهود مضنية دامت عدة سنوات متبعاً في ذلك أسلوب المراضاة والقتال، فكان يعامل باللين من يستسلم له، فلا يقسو عليهم، بل يكرمهم ويضم بعضهم إلى قواته ليقاتلوا الزنج. وبجانب هذا استعمل القوة لإخضاع من ظل على تأييده، ومهما كان من قتل منهم في المعارك فقد ظلت أعداد كبيرة منهم أحياء لا شك أنهم أعيدوا إلى العمل في الأرض ولا شك أنهم أقل مما تتطلبه متابعة إحياء الأراضي. ولم تذكر المصادر كيف تمت إعادتهم، وهل عولج الفراغ الذي ولده قتل أعداد كبيرة منهم.

احتفظ بعض الزنج بذكراه وتقديرهم حركته. فيروي الطبري أنه في سنة 272، أي بعد سنوات من القضاء على حركته (كانت للزنج بواسط حركة، فصاحوا «أنكلاي يا منصور» وكان أنكلاي والمهلبي وسليمان بن جامع والشعراني والهمذاني وآخرون من قواد الزنج محتبسين في دار محمد بن عبد الله بن طاهر بمدينة السلام في دار البطيخ، ولما عرف الموفق بالخبر أمر بقتل هؤلاء، ولم تذكر لهم بعد ذلك حركة).

نقل الموفق أعداداً ممن استسلم من الزنج إلى سامراء وهناك ضموا إلى قوات السلطان وفي هذا يروي الصابي في كلامه عن مصروفات الخلافة

أن هذه النفقات يدفع بعضها إلى الزنج العجم المستأمنة من عسكر الخارجي بالبصرة مما كان صبر معه وإلى نفسه عليه وهم غتم ثم يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا لا يختلطون بالبيضان، ومن رسمهم أن ينوبوا في مصاف باب الخاصة وحوالي القصر ولهم وظيفة خبز في اليوم ثلاث مائة دينار وهذا المبلغ كان يساوي ما كان يدفع للغلمان وللمطابخ وهو ثلاثة أضعاف ما يدفع للحشم وثلث ما يدفع لأصحاب النوبة[19] وهو يدل على كثرتهم علماً أن المصادر لم تذكر هذا العدد. أما لؤلؤ فقد انتقل مع الموفق إلى سامراء، ثم غضب عليه الموفق فقيده واستصفى ماله في آخر سنة 273 وذكر أن الذي أخذ من ماله كان أربعمائة ألف دينار وذكروا عن لؤلؤ أنه قال ما عرفت لنفسي ذنباً استوجب لي ما فعل بي إلا كثرة المال[20]. ثم أطلقه المعتضد وحمله على دواب[21]. ويبدو أنه عاد بعد ذلك إلى مصر إذ يذكر ابن طولون (ونزلت حال لؤلؤ عند الموفق ببغيه الولي وأصله الدنيء وفعله الرديء، حتى قبض عليه، وأخذ جميع ما كان في يديه فلما صيره فارغاً، أطلقه كلباً، وفعل كل ذلك الموفق غيظاً عليه، لما شاهده منه في أمر مولاه ولعهدي بلؤلؤ في آخر أيام هارون بن أبي الجيش خمارويه، فقد دخل إلى الفسطاط فما رأوه إنساناً ولا أولوه إحساناً، ومنعوه أن يلبس سيفاً ومنطقة، فكان يركب بدراعه وغلام واحد بين يديه، وكأنه من بعض وكلاء الريف. فكان ما نزل به ثمرة العقل السخيف والفعل القبيح)[22] ولعل في هذا القول تحاملاً، لكنه يعكس مستقبلاً غير مزدهر للؤلؤ، ربما لم يكن أصاب الآخرين بالدرجة نفسها، إلا أن الكثير من المستأمنين لم يعودوا طموحين، وعادوا يبحثون عن عمل يعتاشون منه.

---

(19) الوزراء للصابي وانظر المنتظم 5/ 136

(20) الطبري 3/ 2112

(21) الطبري 3/ 2747

(22) سيرة أحمد بن طولون للبلوي. 308-9

خسر مؤيدو وأصحاب الزنج الثروات والمكانة المرموقة التي حصلوا عليها أيام انضمامهم إليه، إلا أنهم حققوا الحياة الحرة الهادئة، فلم يحاسبوا بعد استئمانهم على أعمالهم الماضية، بل صاروا مواطنين عاديين، يتمتعون بما يتمتع به أمثالهم من حلو الحياة ومرّها ولم تذكر لأحد منهم مكانة متميزة في المجتمع بعد استئمانه. لقد بذل كبار أعوان صاحب الزنج جهوداً وأفادوا مادياً عندما كانوا معه، فلما استأمنوا وعادوا إلى حظيرة السلطان لم تعد لهم فرص متابعة الأرباح، وإنما تأمنت لهم الحياة المطمئنة، ولعل من مظاهر ذلك أن المهالبة الذين كان منهم أبرز قادة صاحب الزنج، ظلت لهم مكانة في الدولة، وولي أحدهم الوزارة. أما السواد الأعظم من (عمال الأرض) فقد حررهم صاحب الزنج من ذلك العمل الرتيب المضني، ونقلهم إلى القتال. وهو عمل مضن فيه مخاطر على الحياة والإرهاق يوازي إرهاق عمل الأرض. ولم تذكر المصادر مصير من نجا من القتل بعد انتهاء الحركة. ولعل كثيراً منهم عادوا طواعة إلى أعمالهم الأولى، وإن لم يكن عند أصحاب الأرض أنفسهم التي كانوا يعملون فيها. إذ لم تكن لهم جرأة العودة إلى بلادهم أو أي بلاد بعيدة، أو متابعة العمل في الجندية التي لم تعد لها حادة. وتلك الأيام نداولها بين الناس وسيعلم الظالمون أي منقلب سينقلبون.

تتفق جل الروايات على أن علي بن محمد عربي الأرومة، ويتبين من مجرى حياته أنه عربي بلسانه وسماته، لكنه ليس أعرابياً، ولم يبالغ في تقدير أهمية النسب والدعوة له ولم يكن له اعتقاد بتفوق العرب ووجوب تسودهم. عني بالثقافة العربية بمعناها الضيق الخاص في قوامها من الأدب والشعر فقد كان ينظم الشعر، ويعنى بكتابة الرسائل، ولم يذكر عنه اهتمامه بالعلوم الإسلامية المتمثلة بالتفسير والفقه والحديث النبوي وما يتصل بها. كما أنه لم يعن بـ(علوم الأوائل) والثقافات الأجنبية بما في ذلك العلوم الصرفة والتطبيقية وما تشمله من الرياضيات وفروعها الهندسة والفلك والطب وما

يتصل به من تشريح وأقرباذين وأدوية. أظهر تعاطفاً مع (العلويين) بادعائه انتماءه النسبي إليهم، واتخاذه البياض شعاراً له في أعلامه، لكنه لم يحلهم عنده مكانة مرموقة أو تعصب لهم، فلم يول أحداً من بارزيهم مركزاً بارزاً في القيادة أو الإدارة أو الاستشارة، كما أن أكثر كتب الشيعة لم تظهر تعاطفاً معه أو تسبغ عليه العطف والتقدير والمديح، بل وردت أخبار قد تكون فيها مبالغة عن استرقاق علويات. وفي أي حال لم تذكر المصادر اهتمامه بالعقائد الفرقية.

لم يول مواضيع العقائد وعلم الكلام وما يتصل بها اهتماماً، ولعل هذا من أسباب عدم إشارة كتب الفرق والعقائد إليه، مع أنها ذكرت كثيراً من العقائد المغالية كالمجسمة والحلولية علماً بأنه لم يكن متصلاً في نشأته الأولى وإبان إقامته بسر من رأى بالجند بل كان معنياً بالفكر متصلاً بمن يعنى بالثقافة والأدب والشعر، ونظم لهم فيه مديحاً. رويت له ادعاءات برؤى غيبية ولكن لم يرد ذكر بادعائه نزول وحي عليه، أو آيات، أو أنه ادعى النبوة، علماً أنه ظهر قبيل قيام حركته عدد من المتنبين.

ذكرت المصادر عدداً محدوداً من أعماله ذات سمة عقائدية، كمنعه الزنج من شرب الخمور، وإقامته جامعاً ومصلى في المختارة.

قضى في أوائل سني نضجه الفكري قريباً من الأحداث التي كانت تمر بها الخلافة العباسية بما في ذلك اعتمادهم على الأعاجم وغير العرب في شؤون الإدارة المالية، وعلى الجيش الذي كان قوامه الأعاجم من أقليم المشرق وعصبة من الترك الذين كان أكثرهم رقيقاً في أصولهم، ثم صار لهم دور كبير في تثبيت سلطان الخلافة وتوجيهها على وفق أهوائهم ومصالحهم الشخصية.

وكانت حركاته كافة في بلاد عربية، ولم يحاول مدها إلى أي بلد أعجمي. فقد بدأ حركته الأولى في البحرين وهي بلاد أهلها من العرب،

ليس فيها إلا القليل من الأعاجم، وتميزت بكونها من أكبر مراكز التجارة والملاحة في المشرق، وكانت في أوائل العصر الأموي من أكبر مراكز الخوارج، ونجح الأمويون بعد جهود كبيرة في القضاء على نشاطهم فيها، ولم يذكر غيرهم من ذوي العقائد ممن اتخذها قاعدة له. وليس في المصادر ما يشير إلى سبب اختياره لها دون أي مكان آخر لتكون ميدان دعوته، وظفر في دعوته نجاحاً مؤقتاً، ثم اندحر لمعارضة فريق من سكانها لم تذكر المصادر دوافعهم إلى مقاومته أو مصادر قوّتهم في دحره وإلزامه اللجوء إلى البادية حيث تابعه خصومه وانتصروا عليه فغادرها، ولم يحاول إعادة الكرة للسيطرة عليها.

وبعد فشله في البحرين انتقل إلى البصرة، وليس إلى أي مكان آخر، علماً بأنه لم يتخذها مركزاً لأول دعوته. وأقام في بني ضبيعة التي كان قد أقام بها قريب وزحاف الخارجيان في زمن زياد لنشر دعوتهما بين الأزد. ولم يذكر للخوارج أتباع متنفذون داخل مدينة البصرة، علماً بأن العرب قد أقصوا الخوارج في تلك المنطقة في زمن الحجاج وكان القائد الذي أقصاهم المهلب بن أبي صفرة الأزدي العماني الأصل. ولا يوجد إلا ما يشير إلى أن بني ضبيعة ظلت مركزاً للخوارج أو للمعارضة العباسية، علماً بأنه لا يوجد ما يؤيد ميل صاحب الزنج إلى الخوارج أو تبنيه شعاراتهم، ولا يجمعه مع الخوارج غير أنه ثائر مثلهم. ومع أنه لا يعرف للعلويين نفوذ في البصرة، إلا أن صاحب الزنج ظفر بنجاح لا نعلم مدى سعته، ولكن كان من الخطر ما حمل ابن رجاء والي البصرة إلى استخدام القوة للقضاء على حركتهم. وأفلح في عمله فهرب صاحب الزنج وعدد من أنصاره إلى بغداد.

انتقل بعد فشله في البصرة إلى بغداد وتابع نشاطه فيها، ولم يلق مضايقة من السلطات العباسية، وتفرد من بين النابزين على اختيار بغداد مركزاً لنشاطه في الدعوة، وحظي بنجاح ضئيل لعل مرجعه تعدد التيارات السياسية والفكرية فيها، ما ضيّق الفرص له وأدرك فقدان الأمل في نجاح

الدعوة. ولعل التبرم من بغداد في الشعر المنسوب له راجع إلى الجو (السياسي) غير الملائم له.

عاد بعد مقامه غير المثمر في بغداد إلى منطقة البصرة واتخذ مقامه في برنخل وهو مستوطن مغمور لم يرد ذكره في أي من كتب التاريخ والبلدانيين في غير هذا الخبر الذي يظهر من سياق الأحداث أنه يقع عند المفتح وبالقرب من قصر القرشي في كور دجلة غربي الأهواز ولعله شرقي دجلة البصرة، ولا بد أنه أقام فيه أمداً لم تحدده المصادر ولم تشر إلى أماكن انتقل منه إليها إلا المقر الذي اتخذه في المختارة في أواخر سني حركته في الأطراف الجنوبية الغربية من مدينة البصرة، حيث دافع بعناد أرهق القوات الكبيرة التي استخدمها الموفق للتغلب عليه بالرغم من تزايد عدد من تخلى عنه واستأمن للموفق.

كانت جلُّ حركاته وتوسعاته في السنين الأولى في منطقة كور دجلة والأطراف الغربية من الأهواز، ولم يتقدم إلى أطراف البصرة إلا في زمن متأخر بغزوات وقتية ثم استقر في آخر سني حركته في المختارة التي شيدها مؤخراً في زمن لم تحدده المصادر.

قامت معظم حركاته على الريف، واعتمد في جلب أنصاره على أهل الريف، ولم يهيمن على أي مدينة، بل اقتصر على غزو قصير عنيف مؤقت على عدد من المدن ومنها سوق الأهواز والإبلة والفرات والبصرة، قام خلالها بأعمال من النهب والعبث والتقتيل الذي مهما كانت المبالغة في أخباره، فهو يعبّر عن تصرف لا حضري إن لم يكن همجياً. وكان عنيفاً في غزوه ولم تدم سيطرته وهيمنته على أي من هذه المدن. ولم يذكر اهتمامه بالمدن، فلم ينشىء غير مدينة واحدة (المختارة) التي أقام فيها سوقاً ومسجداً وجامعاً، وعيّن مسؤولاً عن ذلك. وتم هذا في أواخر حركته.

لم يكن شعوبياً كارهاً للعرب وثقافتهم وسيادتهم، فكان عدد من أبرز

قادته من العرب الذين أيدوا دعوته في مراحلها الأولى في البحرين، وحفظ لهم مناصب قيادية، وكانوا مرتبطين به تسندهم العشائر التي ينتمون إليها، فقوتهم مستمدة منه وليس من أصلهم، واحتفظوا بمناصبهم القيادية العسكرية وظلوا يقاتلون معه إلى أواخر أيام حركته، ولم يستسلم القليل منهم إلا بعد تضعضعه، واكتفى الموفق بضم بعضهم إليه، أو بسجنهم في بغداد دون أن يعدمهم.

لم يكن موقفه هذا بدعاً، فإن الخلافة العباسية بعد استقرارها أخذت تختار القادة وكبار رجال الإدارة ممن يقدّر السلطان سماتهم الشخصية وليس لما لهم من سند عشائري. ولم يولِ الزنج والسودان إلا مناصب قيادية ثانوية. وعمل على جلب أفراد وجماعات من العرب إليه ولا سيما من ذوي اللياقة البدنية دون الاهتمام بانتماءاتهم العرقية، وأفلح إلى حد ما في ضم عدد من الأعراب إليه وجماعات من الأعراب، ولكن نجاحه كان محدوداً فلم يحظَ بتأييد شامل من أي عشيرة مما يدفعه إلى وضعها في مكان مرموق من حركته. وقد أضر بأخذه عمال الأرض إلى جانب الملاكين والأكثر من العرب، فأثار خصومتهم لعوامل اقتصادية أكثر مما هي لدوافع عرقية، وقد يكون هذا من عوامل حرصه على استخدام هؤلاء بالنظر لقدرتهم القتالية وليس لأحوالهم العرقية، ولعل الدافع لكثرة اعتماده على الزنج والأفارقة وعمال الأرض هو أنهم لم تكن تربطهم روابط من العرق والمصلحة بأسيادهم، لكن قوته كانت أضعف من أن تكفي للهيمنة على مدينة البصرة التي لم يستطع غزوها إلا بعد أن ضم إليه الأعراب، علماً بأنه لم يبق فيها طويلاً. ولم يجر أي اتصال بالخلافة العباسية أو رجال الإدارة فيها، ولم يحاول الحصول منه على اعتراف بكيانه وحركته.

كان (منتزياً)، (نابزاً) ناجماً طموحاً يريد لنفسه سلطاناً دون أن يفكر في انتزاع الخلافة من الأسرة العباسية.

لم تكن له أفكار واضحة محددة عن توجهات السلطان أو النظام الذي يطمح لتحقيقه، فكان شأن عدد غير قليل من الثوار المنتزين الذين كثروا في زمنه عندما ضعف سلطان الخلافة.

لم يجرِ اتصالاً بأي من النابزين وأهل الأهواء والفرق المعارضين للخلافة العباسية ولم يحرص على جذب المفكرين والصفوة والمثقفين والخاصة إلى جانبه، بل حرص على جلب (الدهماء) إلى جانبه. لم يحاول نشر دعوته في صفوف جند الخلافة العباسية، ولم تذكر الأخبار من انضم منهم إليه غير رجل واحد من الجند في بغداد عندما كان مقيماً فيها.

أبدت الخلافة العباسية ورجال الإدارة فيها والمقاتلة من جندها تماسكاً وولاء للمؤسسة العسكرية العباسية وقياداتها بالخلافة، فقاتلت في سلسلة من المعارك التي حدت من توسعه وعرقلته ولم تؤثر في حقيقة ولائها النكسات التي أصابتها والتي يرجع أكثرها إلى قلة عددهم ولم يستكن منهم أحد في معاداته، ولم يتخلوا عنها أو ينضموا إليه.

لم تكن الخلافة العباسية عندما قام صاحب الزنج بحركته في مناطق البصرة وكور دجلة والأهواز معرضة لتهديدات خارجية أو أخطار فتن مهددة، وكان يؤمن الاستقرار فيها ولاء السكان والمتنفذين للخلافة، لذلك لم تكن للخلافة قوات عسكرية كبيرة تقيم فيها بل اكتفت في حفظ الأمن بقوات محدودة العدد، وبما فيها من المعاون.

قضى جل المدة التي كان له فيها سلطان هيمنة في القتال الذي كان كثيراً منه غارات متفرقة في الزمان والمكان فهي أقرب إلى حرب العصابات المضنية التي ترهق القائم بها وخصمه، لكنها لا تؤدي إلى نتيجة حاسمة. اعتمد في قوته العسكرية على الرجالة والسفن البحرية الصغيرة، ولا سيما السميريات والشذوات، وكانت تنقصه قوة الفرسان الذين اعتمد فيهم على الأعراب الذين قاموا بدور ملحوظ في المعارك القليلة التي شاركوا فيها، إلا

أنهم لم يكونوا قوة عسكرية ذات ولاء ثابت له.

لم يذكر عنه اهتمام كبير بالمفكرين والمثقفين والعلية، بل حرص على جلب العامة والدهماء إلى جانبه، وأراد أن تكون لهم اليد العليا في المجتمع دون الحرص على تثقيفهم وإنما الفكر فيهم. حرص منذ استقرار إقامته في برنخل على نشر دعوته بين أهل الريف وعمال الأرض دون أهل الحضر أو الملاكين، ولم يحصر دعوته بمن هم من أصل واحد أو حرفة واحدة أو من المنتسبين إلى أي من الفرق والأحزاب. وقد استجاب له الزنوج والسودان والفراتيون والشورجيون والقرماطيون وذكرت المصادر في ثنايا الحوادث التي شارك فيها والأشخاص الذين ذكرت أسماؤهم أن منهم أعداداً من الأعراب والعجم وأفراداً منوّعة.

كان عربياً في دمه، علوياً في مدعاه، وكان يخاطب أتباعه بالعربية وكان من أبرز قواده عدد من العرب، إلا أنه كان يقيّم تفضيله على أساس قوة ارتباطهم به وخدماتهم لتحقيق طموحاته بغضّ النظر عن انتماءاتهم العرقية كالذي كان يراه المطالبون بالتعصب للعروبة، والشعوبية التي تغالي بتقدير الأعاجم، ولم يقم حركته على أسس من (الحزبيات) بالرغم من ادعائه الارتباط بالعلويين في النسب وليس في توجهات فرقهم السياسية.

أولى علي بن محمد الرقيق الذين يعملون في الأرض بخاصة اهتماماً وعمل على جلبهم إليه ووعدهم بتحريرهم من سادتهم الأولين من أصحاب الأرض والعمل. ولكنه لم يوفر لهم الحرية المطلقة التامة، فقد استخدمهم في المعارك التي تتطلب خضوعهم إلى من اختارهم لقيادتهم، وإلى متابعة إسهامهم في الحركات الحربية الكثيرة التي تتطلب إشغالهم وبذلهم جهوداً كبيرة، وقد تعرضهم للقتل في المعارك، دون أن ييسّر لهم مجال إنماء مواهبهم في الحرف الحضرية كالصناعات والتجارات، أو إلى التوجه إلى النشاط الفكري والحضري والراجح أنه أمّن لهم حياة معاشية أفضل مما

كانت لهم، واعتمد في أكثر تأمينها على ما يحصل عليه من غنائم ومنهوبات منوّعة وغير ثابتة.

أشارت الكتب إلى دعوته لتحرير العبيد وتمليكهم، فحركته ليست تحررية أو اشتراكية محاربة للطبقية، بل هي إبدال السادة القدماء بسادة جدد دون النظر إلى الآثار الاقتصادية والاجتماعية التي تحدثها متابعة تطبيق هذه النظم من خلل قد تفوق أضراره على منافعه.

لم يولِ متابعة إعمار الأرض التي انتزع عمالها منها، مما كان يؤدي إلى تدهور أحوال الأرض والزراعة وتناقص الموارد لمن يعيش عليها، وللدولة التي كانت تجيء منها معظم مواردها، فكان لاستمرار عمله مردود سيّئ عليه لأنه ينقص موارده من جباية الأرض، ولا يعوضه بمصدر آخر من الموارد.

المحتويات